حائز جائزة دبلن الأدبيّة العالمية
وجائزة الإندبندنت للأدب الأجنبي

غيربرند باكر

المنعطف

رواية

مكتبة
Telegram Network

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

«مكتبة ♔ النخبة»

realpagex0002x

realpagex0003x

غيربرند باكر

المنعطف

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

realpagex0004x

Arabic Copyright © All Prints Distributors & Publishers s.a.l.

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغراقي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

يُمنع تصوير و/أو تحميل و/أو توزيع الكتاب إلكترونيًا أو التسهيل لذلك بأي شكل من الأشكال دون موافقة الناشر. يُرجى الاستحصال على النسخ الإلكترونية المصرّح لها من قبل الناشر فقط، وعدم المشاركة في قرصنة المواد الإلكترونية المحمية بموجب حقوق النشر أو التشجيع لها. نقدّر دعمكم لحقوق المؤلف.

القرصنة الإلكترونية جريمة يعاقب عليها القانون! لا تكن مجرمًا.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

Originally published as: **DE OMWEG/THE DETOUR.**
Copyright © 2010 by Gerbrand Bakker and Cossee Publishers, Amsterdam
The Publisher gratefully acknowledges the Support of the Dutch Foundation of Literature

Nederlands letterenfonds dutch foundation for literature

الطبعة الأولى ٢٠١٨
ISBN: 978-9953-88-964-1 النسخة الورقية
ISBN: 978-6144-58-479-8 النسخة الإلكترونية

ترجمة: أنطوان باسيل
تحرير: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
تصميم الغلاف: ريتا كلزي
صورة الغلاف: David Evers/Ilicker
صورة الكاتب: Monamar Comunicació
الإخراج الفني: فدوى قطيش

واسعاً اصنع هذا السرير.
جهّز هذا السرير برهبة؛
واقبعْ فيه منتظراً بزوغ الدينونة
البهيّة والعادلة.
كن فراشاً سويّاً،
ووسادةً مستديرة؛
لا تدعنّ صخب شروق الشمس الأصفر
يزعج هذا التراب.

إيميلي ديكنسون

realpagex0006x

realpagex0007x

تشرين الثاني

realpagex0008x realpagex0009x

1

شاهدتِ الغرائر [1] صبيحة أحد الأيام على مقربة من الحلقة الحجرية التي كانت قد اكتشفتها قبل أيام قليلة، وشاءت رؤيتها عند الفجر. لطالما اعتبرت الغرائر حيواناتٍ مسالمة، خجولة ومتثاقلة في مشيتها بعض الشيء، لكنها وجدتها تتقاتل وتهسهس. لاحظت الغرائر وجودها فابتعدت بخطى متثاقلة لتختبئ في نبتات الوزّال المزهرة. كان الجو عابقاً برائحة جوز الهند. ما لبثت أن سارت عائدةً عبر الدرب التي لا يمكن تمييزها إلا بالنظر إلى البعيد، وهي درب افترضت وجودها من البوابات الصدئة التي تسمح بعبور الناس لا الحيوانات ومن السلالم المهترئة والدعّامة العجيبة التي تحمل رمزاً يُفترض أنّه يمثّل أحد الرحّالة. فالعشب هنا لم تطأه قدم.

شهر تشرين الثاني ساكن ورطب. سعدت بالغرائر، وسُرّت لمعرفة أنها باقية عند الدائرة الحجرية سواء ذهبت هي إلى هناك أو لم تذهب. على جانب الدرب المعشوشبة كانت تنتصب أشجار قديمة أغصانها هشّة ومغطاة بالطحالب الخشنة والرمادية الفاتحة؛ هشّة لكن متماسكة ولا تزال مورقة. كانت الأشجار خضراء بشكل لافت بالنسبة إلى ذلك الوقت من السنة، وقد غلب اللون الرمادي على الطقس. كان البحر قريباً؛ أمكنها أحياناً أن تلمحه عندما تنظر في وضح النهار عبر نوافذ الطابق العلوي، إلاّ أنّه كان في أيام أخرى يغيب كلّياً عن الأنظار، فلا ترى إلا الأشجار، السنديان منها بنوع خاص، وأحياناً تشاهد أبقاراً لونها بنّيٌّ فاتح وهي تنظر إليها بفضول ولامبالاة في آن.

realpagex0010xكانت تسمع ليلاً خرير مياه الجدول الذي يعبر من أمام المنزل، وكانت تستيقظ بين حين وآخر مذعورةً حين تعصف الريح أو يزداد نشاطها فلا يكاد صوت اندفاعة الجدول يصل إليها. ها قد مضى عليها نحو ثلاثة أسابيع في المكان، وهي مدّة كافية لجعلها تستيقظ كلّما غاب عن أسماعها أحد الأصوات.

2

لم يكن قد تبقّى بعد ذلك بنحو أسبوعين سوى سبع إوزات من أصل العشر السمينة في الحقل المجاور للطريق، ولم تعثر من الثلاث الأخريات سوى على ريش وعلى إحدى القوائم البرتقالية. كانت الطيور الباقية تتفرّج بلا مبالاة وتنقد العشب. لم تستطع التفكير في أي حيوان مفترس باستثناء الثعلب، لكنّها لن تُفاجأ إذا سمعت بوجود ذئاب أو حتى دببة في المنطقة. شعرت أنها ستُلام إذا افتُرست الإوزات، وأنها المسؤولة عن بقائها.

«الطريق» كلمة فيها مسايرة للمسلك الترابي الملتوي الذي يبلغ طوله حوالى كيلومتر ونصف الكيلومتر، وقد رُقّع هنا وهناك بحمولة شاحنة من الآجر المسحوق، أو من قرميد السطوح المتكسّر. والأراضي الممتدة على طول الطريق، من مروجٍ ومستنقعٍ وأحراجٍ، تابعةٌ للمنزل، إلا أنها لم تكن قد تصوّرت بعد كيف سُويت هذه الأراضي بعضها ببعض لأنها كانت في الأساس كثيرة التلال. كان حقل الإوزات مسيّجاً بعناية بأسلاكٍ شائكة. لكن ذلك لم ينقذها. وكان سبق لأحدهم أن حفر لها ثلاث برك، الواحدة منها أكثر انخفاضاً من الأخرى، وتتغذّى كلّها من النبع الخفي نفسه. كما أن كوخاً كان قائماً فيما مضى قرب هذه البرك الثلاث، لم يبقَ منه الآن أكثر من سقف منقلب، يجثم أمامه مقعدٌ بالٍ.

لم تكن واجهة المنزل تطلّ على الدرب بل على الحلقة الحجرية (التي لا تبدو للأنظار) والبحر الأبعد، وكانت النوافذ الرئيسية كلّها تطلّ على الريف الذي ينحدر realpagex0011xبكثيرٍ من التدرّج. ولم يكن هناك في الخلف سوى نافذتين صغيرتين، واحدة في غرفة النوم الكبيرة والأخرى في الحمام. أما الجدول فكان يقع من جهة مطبخ المنزل. في غرفة المعيشة، حيث كانت تبقي النور مضاءً طوال اليوم، كان هناك موقد كبير يعمل على الحطب. كان الدرج خارجياً في الطرف المقابل تماماً للباب الرئيسي الذي كان نصفه الأعلى مؤلّفاً من لوح سميك من الزجاج. في الأعلى كانت هناك غرفتا نوم وحمّام ضخم يحتوي على مغطس قديم قوائمه على شكل مخالب. أما زريبة الخنازير السابقة، التي لم تكن تتسع لأكثر من ثلاثة خنازير كبيرة معاً، فقد تحوّلت الآن إلى مخزن يحتوي على مخزونٍ كافٍ من الحطب وعلى كل أنواع الخردة المتروكة. تحت الزريبة كان ثمة قبو كبير لم تفهم تماماً الغاية منه، وكان مرتّباً وقد اعتُني ببنائه وطُليت جدرانه بنوع من الصلصال. وكانت ثمة نافذة أفقية مجاورة للدرج الخرساني تؤمّن بعض الضوء. وكان بالإمكان إقفال القبو بباب جرّار يبدو من النظر إليه أنه لم يُنزل منذ وقتٍ طويل. أخذت تعمل بالتدريج على توسيع المنطقة التي انتقلت إليها: كانت الحلقة الحجرية تبعد بالكاد مسافة كيلومترين.

3

أما بالنسبة إلى المنطقة المحيطة بالمنزل، فقد توجهت مرّة بالسيّارة إلى بانغور للتسوّق، لكنها صارت تذهب بعد ذلك إلى كيرنارفون الأكثر قرباً. كانت بانغور صغيرة لكنها ظلّت، بالنسبة إليها، كثيرة الازدحام، وفيها جامعة، ما يعني وجود طلاّب. لم تكن ترغب في أن تقع عيناها على طالب جامعي آخر، وبالأخص على طالب في سنته الأولى. صرفت النظر عن بانغور. وفي بلدة كيرنارفون الأصغر أقفلت متاجر كثيرة وقد طُليت على واجهاتها بالأبيض عبارة «برسم البيع». لاحظت أن أصحاب الحوانيت يحافظون على معنوياتهم بزيارة بعضهم بعضاً وبشرب القهوة وتدخين السجائر. كان القصر موحشاً وحشة حوض سباحة خارجي في شهر كانون realpagex0012xالثاني، أما محلّ «تيسكو» فكان كبيراً وفسيحاً، ويفتح حتى التاسعة. لم تكن قد

تعوّدت بعد على الممرات الضيّقة والمغمورة فأخذت تضغط على الفرامل عند كل منعطف وتذعر في شأن سلوك خط اليمين أو اليسار.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle
كانت تنام في غرفة النوم الصغيرة في فراش موضوع على الأرض، وكان فيها موقد، على غرار غرفة النوم الكبيرة، لكنها لم تكن قد استخدمته حتى الآن. كان عليها استخدامه فعلاً، على الأقل لرؤية ما إذا كانت المدخنة مسدودة أم لا. كانت الرطوبة أقل بكثير مما توقّعت. أما مكانها المفضّل في الطابق العلوي فكان بسطة الدرج بدرابزينها الخشبية على شكل زاوية وبألواح أرضيتها الخشبية البالية وبالمقعد الموضوع عند النافذة. كانت تجلس على المقعد ليلاً وتحدّق في الظلمة عبر الأجزاء اللولبية للنبتة المتسلّقة القديمة، وتلاحظ بين الفينة والأخرى أنها ليست وحدها تماماً، إذ كان يلوح ضوء في مكان بعيد.
أنغليسي تقع في ذلك الاتجاه أيضاً، ومنها يمكن السفر بالعبّارة إلى إيرلندا. وتبحر العبّارة في أوقات محدّدة وترسو في المرفأ في أوقات محدّدة. سبق لها مرّة أن شاهدت البحر يتلألأ

في ضوء القمر ومياهه شاحبة وهادئة. كانت تسمع أحياناً قوقأة من حقل الإوز، تأتيها خافتةً بسبب الجدران السميكة التي تخفّف من حدّتها. لكنها لم تكن قادرةً على عمل شيء حيال ذلك: لم يكن في وسعها أن تردع ثعلباً ما في الليل.

4

نزل عمّها في أحد الأيام إلى البركة الموجودة في الحديقة الأمامية الكبيرة للفندق الذي يعمل فيه، لكن المياه أبت أن تصل أعلى من وركه. انتشله الموظفون الآخرون وأعطوه سروالاً جافاً وأجلسوه على الكرسي في المطبخ الدافئ (حدث ذلك في أواسط تشرين الثاني). لم تكن هناك جوارب نظيفة، فوضعوا حذاءه على أحد الأفران ليجف. كان ذلك كل ما في الأمر، أو ما عرفته في أي حال، ولم يقدّم أحد realpagex0013xمزيداً من التفاصيل، باستثناء أنه سار إلى البركة ووقف فيها وقتاً وقد غمرته المياه حتى حزام بزّة الفندق التي كان يرتديها. فوجئ ولا بد ظنّاً منه أن المياه أكثر عمقاً.

كان لوجودها هنا علاقة ما بذلك العم، أو على الأقل أخذت تظنّ ذلك. فلا يكاد يمرّ يوم من دون أن تفكّر فيه وتراه أمامها في مياه بركة الفندق الساكنة. كان قد ذهب بعيداً في الخَرَف حدّ أنه لم يكد يلحظ أن المياه التي تصل إلى وركه لم تكن كافية لإغراقه. عجز وحسب عن إسقاط نفسه بالماء وقد ملأ جيوب ملابسه بما أمكنه العثور عليه من أشياء ثقيلة في مطبخ الفندق.

لقد مضى وقت طويل لم تفكّر فيه خلاله. لعلها فكّرت فيه الآن، في هذا البلد الغريب، لأن لتشرين الثاني وجوداً هنا أيضاً، أو لأنها أحسّت بمدى ضعف البشر عندما يعجزون عن معرفة ما الذي يتوجّب عليهم القيام به تالياً، وما إذا كان عليهم المضيّ قدماً أم الرجوع القهقرى. هكذا يمكن لبركة الفندق الضحلة هذه أن تبدو راكدة تماماً، كما يراوح المرء مكانه حين يتعامل مع البنوك - ما من بداية أو نهاية، وكل شيء دائري - كالماضي والحاضر والمستقبل غير المحدود. ولهذا اعتقدتْ أيضاً أنها تفهم سبب مجرّد وقوفه هناك من دون أن يحاول إنزال رأسه تحت الماء. حالة من الركود التام، الخالي من أي شكل من أشكال المشاعر الجسدية: لا جنس، ولا شهوة، ولا شعور بالتوقّع. وباستثناء فترة وجودها في المغطس ذي القوائم الشبيهة بالمخالب، لم تشعر قط، في الأسابيع القليلة

التي مضت عليها في المنزل، بأي دافع لدسّ يدها بين ساقيها. لقد سكنت هذا المنزل بالطريقة نفسها التي وقف فيها عمّها في تلك البركة.

5

كانت قد حوّلت غرفة النوم الكبيرة إلى مكتب. قامت، بصورةٍ أدقّ، بدفع طاولة السنديان، التي وجدتها لدى وصولها وقد نخرها الدود، صوب النافذة ووضعت realpagex0014xعليها مصباح مكتب، وإلى جانب المصباح منفضة، وإلى جانب المنفضة مجموعة شعرية لإيميلي ديكنسون. كانت تعمد، في العادة، إلى رفع النافذة بعض الشيء قبل الجلوس إلى الطاولة، وتنفث، عندما تدخّن، الدخان عبر ذلك الشق. كانت أوراق النبتة المتسلّقة إلى هذه الغرفة تزعجها، فجاءت في أحد الأيام بالسلّم المتخلخل الصغير من زريبة الخنازير وقطعت بسكين الأجزاء اللولبية قبالة النافذة. وفّر لها ذلك رؤية لا تُحجب لأشجار السنديان وللحقول وأحياناً كثيرة للبحر، وأطلق ذهنها للتفكير في ما تعنيه لها كلمة «مكتب»، هذا إذا عنت. كانت ثمة أريكة تقبع خلف المكتب خصّصتها لنفسها بعدما غلّفتها بقطعة قماش بلون الطحالب الخضراء، وكوّمت بعض الكتب على طاولة صغيرة بقربها لكنها لم تقرأ كلمة واحدة منها، ووضعت على رفّ الموقد، في الوسط تماماً، صورة لديكنسون داخل إطار اشترته من متاجر «بلوكر». إنها صورة مثيرة للجدل، ونسخة عن الصورة المحفورة على لوحة فضية ومعروضة للبيع على موقع "ebay".

كانت البقرات ذات اللون البنّي الفاتح تقف أحياناً عند الجدار الحجري الذي يفصل الحقول عن باحتها؛ بدت البقرات كأنها تعرف تماماً من أيّ نافذةٍ بالتحديد تتمّ مراقبتها. «باحتي». يمكنني عمل شيء فيها، قالت لنفسها وهي تدخّن السيجارة تلو الأخرى. تساءلت عن المُزارع الذي يمتلك البقرات وعن موقع مزرعته. فهذه التلال، المُترعة بالجداول والسواقي والأجمات، كثيرة التعقيد عليها وشديدة الإرباك. أخذت تضع يدها بين حين وآخر على مجموعة ديكنسون وتمرّر أصابعها على الورود الموجودة على الغلاف. كانت قد اشترت مقصّاً للأشجار ومنشاراً للتقليم من متجر للخردوات في كيرنارفون.

6

أخذت المنزل كما هو، بما يحتويه من بعض قطع الأثاث وبراد وثلاجة، واشترت realpagex0015xبعض السجاد (أرضيات الغرف كلّها كانت مرصوفة بالألواح الخشبية العريضة العارية نفسها)، ووسادات، وأواني مطبخ وقدوراً وصحوناً وإبريقاً للشاي، وشموعاً، ومصباحين عاديين. تركت الحطب يشتعل طوال اليوم في موقد غرفة الجلوس، وكان المطبخ يحظى بالدفء من فرن بريطاني نموذجي يتزوّد بالوقود من خزّان حُشر بين الجدار الجانبي والجدول، وتخفيه عن الأنظار أجمة من الخيزران. كان هذا الجهاز الضخم يؤدّي دوراً آخر كمسخّن

للماء. كانت قد عثرت في اليوم الذي انتقلت فيه إلى البيت على تعليمات مكتوبة بخط اليد موضوعة على طاولة المطبخ، وفوقها ثقّالة ورق هي عبارة عن حجر مسطح. تمنّى لها من كتبها في الختام الحظ السعيد! تساءلت لفترة وجيزة جداً عمّن قد يكون، لكنها سرعان ما تخلّت عن ذلك باعتباره غير مهم. اتّبعت تعليمات قصاصة الورق حرفياً، خطوة بخطوة، ولم تُفاجأ حين اشتعل الموقد. استطاعت تلك الليلة ملء المغطس الكبير بالمياه الساخنة.

إنها تلك الإوزات وحسب: غريب أمرها! هل استأجرت الإوزات أيضاً؟ وظهر فجأةً صباح أحد الأيام قطيع من الخراف السود في الحقل المجاور للطريق، وكان لكل منها غرّة بيضاء وذنب طويل أبيض الطرف. ترى من صاحبها؟

7

اكتشفت أن الدرب التي تؤدّي إلى الحلقة الحجرية - وتتجاوزها مع أنها لم تذهب قط إلى ما هو أبعد منها - تلتقي بالمسلك المؤدّي إلى بيتها حيث تنعطف بحدّة. كان اللبلاب قد نما حتى تجاوز ارتفاعه البوّابة الموجودة في أجمة من أشجار السنديان المكتنزة. يدرك المرء، بمجرد النظر إليها، أنّ أعواماً مرّت عليها لم تطأها خلالها قدم. وهناك على الجانب البعيد من البوابة كان ثمة حقل يحتوي على أعشاب بنّية طويلة. لا بدّ أن هناك منزلاً في مكان ما؛ فعلى مسافة أبعد قليلاً على الدرب كان يقبع خمّ للدجاج ينيره نهاراً وليلاً ضوءٌ خفيض. قطعت اللبلاب بمقص الشجر realpagex0016xالذي ابتاعته حديثاً، وأعملت المنشار في الجذوع الكبيرة عند مستوى الأرض. كانت البوّابة لا تزال تعمل فقامت بتزييت مفاصلها بعلبة زيت من الطراز القديم عثرت عليها في زريبة الخنازير. عندها فقط أدركت أن الدرب تتبع الطريق المفضي إلى منزلها وتقطع فناء بيتها قبل أن تمر عبر بوابة أخرى مخصّصة للبشر في السور الحجري الخفيض، لتؤدي عبر الحقول إلى الجسر الخشبي الذي يعلو الجدول. بدا طريقاً للعامّة، وراودتها ذكرى ضبابية عن إخفاق ملّاكي الأراضي البريطانيين إقامة معارضة في طرقٍ للعامة. زيّتت المفاصل، ثم سارت، وعلبة الزيت لا تزال في يدها، وانعطفت يميناً. بعد نحو مئتي متر عثرت على لافتة عليها رمز الرحّالة، وقد غطّت الطحالب ساقيه. لم تجرؤ على تسلّق السلّم وخشيت أن تصادف المنزل الذي لم تَرَه بعد. كانت تلك المرّة الأولى التي تنعطف فيها يميناً، فكيرنارفون تقع إلى اليسار. سارت إلى مسافة أبعد حيث ارتفعت الطريق المنخفضة بعض الشيء، وبلغت بعد حوالى عشر دقائق تقاطع طرق عمودياً، وشاهدت الجبل للمرة الأولى. لم تكن قد أدركت حتى اللحظة مدى رحابة المنظر الطبيعي الشاسع الموجود خلف منزلها، ومدى صغر المنطقة التي انتقلت إليها. انتبهت فجأةً إلى علبة الزيت في يدها، فحكّت البثرة في باطن إبهامها وعادت أدراجها سريعاً. قوقأت عليها الإوزات في صخب كما تفعل في كل مرة تمرّ بها. قصدت في اليوم التالي متجراً في الهواء الطلق ابتاعت منه خارطة لكيرنارفون من وضع مؤسسة «أوردنانس سورفاي» بمقياس: 1-25,000.

8

قرّرت في إحدى الليالي الباردة اختبار الموقد الصغير في غرفة نومها، واضطرت إلى فتح النافذة، لا لطرد الدخان، بل الحرارة. رغم ذلك بقيت الغرفة حارّة إلى درجة أنها realpagex0017xاضطرت إلى التمدّد عارية فوق اللحاف. بدلاً من التفكير في عمّها، شاهدت طالب السنة الأولى، فباعدت ما بين ساقيها وتخيّلت أن يديها أصبحتا يديه.

أشعلت بعد فترة النور، ليس الضوء الرئيسي بل مصباح القراءة على الأرض بجانب الفراش. ظهر ثدياها ضخمين على الجدار الأبيض، لكن يديه كانتا أضخم حتى. بدا كما لو أن الحطب المشتعل يمتص كل الأوكسيجين من الغرفة الصغيرة؛ لم تستطع الامتناع عن اللهاث. ظلّت تنظر إلى النافذة المظلمة الخالية من الستائر وإلى نفسها وهي ممدّدة هناك، بالرغم من عدم وجود أي جيران. امرأة وحيدة شبقة تتخيّل أموراً مضى عليها زمنٌ طويل، أموراً من الأفضل نسيانها. ذلك الجسد العفيف، النحيل والرشيق، المؤخّرة القويّة، التجويفان وراء الترقوة، الحوض البارز. الأنانية، الطاقة والاستهتار. كان في وسع من يشاء أن ينظر إلى الداخل عبر النافذة المكشوفة، يكفي أن يتكبّد مشقّة إسناد سلّم إلى الجدار وإزاحة بعض لوالب النبتة المتسلّقة. قامت بعد ذلك، وهي لا تزال عارية، بتدخين سيجارة في المكتب. رأت نفسها تجلس في المكان وهي ترتعش من البرد. نفثت الدخان من فوق وجهها وفكرت فيه لاحقاً وهو جالس قبالتها، بين الطلاب الآخرين، واحداً من كثر، بوجه طفل حرد. طفل أناني ضاغن، وقاسٍ بالقدر الذي يمكن فيه الأطفال أن يكونوا قساة.

9

سطعت الشمس في اليوم التالي. الطقس هنا ليس كما توقّعته أبداً؛ يمكنه أن يكون ساكناً جدّاً وعلى درجة كبيرة من الدفء حتى في ذلك الوقت، وعلى امتداد فترة طويلة من السنة. مضت قرابة الظهر إلى الحلقة الحجرية التي غابت عنها الغرائر. لم تستغرب ذلك لأنّها كانت شبه متأكدة من أنها كائنات ليلية. عثرت في الخريطة المفصّلة التي اشترتها على خط أخضر متقطّع يمرّ حتى دربها وعبر فنائها. حتى إنها وجدت اسم منزلها. وتبين لها أن المنزل الذي يتبع له خمّ الدجاج يقع على بعد realpagex0018xأقل من كيلومتر واحد؛ كما أن هناك بضعة بيوت ريفية في الجوار. أشير إلى الحلقة الحجرية بزهرةٍ ما، وقد كُتبت إلى جانبها عبارة «الحلقة الحجرية» بخط من الطراز القديم. أما الجبل فاسمه «جبل سنودن». شعرت وهي عند الحلقة الحجرية أن ثمة من يراقبها؛ كان مجرّد شعور هذه المرة، في مقابل شبه تأكّدها من وجود من يراقبها في المرة السابقة. خلعت ثيابها واستلقت على أكبر صخرة مثل حيوان ذي دم بارد. أدفأت الصخرة ظهرها فغفت.

انقضت بضع ليالٍ ولم يعد صوت انسياب الجدول يهدّئها، وكانت الضوضاء، المتمثّلة في صرير الألواح، والسير المتثاقل لما تأمل أن يكون حيوانات صغيرة، والصراخ النائح الذي لا يكاد يُحتمل الآتي من الأحراج، تبقيها مستيقظة. شرعت في التفكير، وانتهى بها الأمر من جديد إلى

حالة من التحدّي والغضب. تنهّدت وتقلّبت من جنب إلى جنب وهي تتخيل ما يحدث لجسمها. حاولت أيضاً تحديد مكان الألم الخفيف والمزعج، لكنّه، على غير ما توقّعته، لم يكن يتآكلها: أشبه بعشرات المناقيد الصغيرة التي تشق طريقها ببطء، ولكن بثبات، إلى أجزائها الداخلية. لعلها تجاوبت جيّدا مع حبوب «الباراسيتامول» التي تتناولها. كان قلقها يزداد. فقد رأت في الليلة الماضية، لمّا نظرت إلى نفسها في المرآة وهي تدخّن، أن وجهها يتحول إلى وجه شخص غريب: وجه متلصّص وليس انعكاس وجهها هي. إنه تشرين الثاني؛ وفي كانون الأول ستصبح النهارات أقصر. كتبت «ستائر» على قصاصة ورق موضوعة على الطاولة أمامها. كانت هذه أوّل كلمة تكتبها. عادت إلى غرفة النوم، أغلقت النافذة واستلقت وهي تحدّق في الزجاج العاري وقلبها يخفق بشدة كما لو أنها كانت تركض الدرج صعوداً ونزولاً.

لم تفهم، لدى استيقاظها، ما الذي يحدث عند قدميها. فكّرت في الهواء وفي شجيرات الوزّال. فما يلمس باطن قدميها، مهما يكن، ليس حاداً. رفعت رأسها عن الصخرة بحذر شديد، فرأت في البداية خطّاً أبيض محاطاً على جانبيه ببقع سود، وفكّرت على الفور برؤوس الخراف السود. كانت عينان سوداوان صغيرتان تنعمان النظر إلى الأعلى من بين رجليها. كان ثمة غرير يحدّق مباشرة في منطقة realpagex0019xحوضها. أخذت عضلات عنقها ترتعش وجبهتها تخزها تحت شعرها. نظر الحيوان إليها فتساءلت إذا كان بإمكانه رؤيتها فعلاً، وما إذا كان الغرير يدرك أن العينين هما عينان. ظلّ مثلها جامداً لا يتحرك، لكن ذلك لن يستمر طويلاً إذ أخذت فقرات أعلى ظهرها تضغط بشكل موجع على الصخرة، فقد شرع الحيوان يتسلق الصخرة ببطء بين بطّتي ساقيها وركبتيها. انتصب، أدار رأسه وشرع يتشمّم وقد أمال أنفه وهو ينظر أمامه مباشرة. انتفضت محرّكة كلتا يديها لحماية منطقة حوضها، فروّعت الغرير إلى درجة أنه قفز وقام بنصف استدارة في الهواء في محاولة للهرب. هبط على ساقها اليسرى، وأعاقت قدمها طريق فراره فعضّها في مشطها. امتلكت ما يكفي من الوقت لالتقاط غصن عن الأرض هوت به بقوة على ظهر الغرير، بقدر من القساوة فرقع معها بصوت جاف كالسوط، الأمر الذي حملها، بالرغم من خوفها، على أن تشهق وتفكّر: «آه، يا إلهي، آمل أنني لم أصبه بالشلل».

تلوّى الغرير ورغى وترنّح تحت شجيرة الوزّال. طارت بضعة عصافير. ثم عاد الهدوء من جديد إلى المكان. انساب الدم على رجلها وتساقطت قطراته على الصخرة لكن ذلك لم يؤلمها كثيراً. فكّرت «فلأتركْه ينزف في الوقت الحاضر»، واستلقت من جديد. لم تعد الصخرة تمدّها بأي دفء. تركت يدها ترتاح عند منطقة حوضها؛ وبدا أن جسدها قد عاد إليها. الغريب أنها لم تدرك ذلك في الليلة الماضية، والأغرب أنها فكّرت في الحيوان الذي هاجمها على أنّه «هو».

لم تكن لديها علبة إسعافات أولية، فمزّقت قميصاً قطنياً قديماً، وملأت حوض الحمام إلى ربعه ونقعت قدمها في الماء الساخن إلى أن تجعّد الجلد، ثم لفّتها وربطتها بشريط من القماش. سحبت لاحقاً كتاب «الريح في الصفصاف»(*) من بين كومة الكتب على الطاولة الصغيرة بقرب

الأريكة وأعادت اكتشاف كيف يمكن للغرائر الفظّة والمنعزلة أن تكون حيوانات «كارهة للمجتمع». أخذت قدمها في تلك الليلة تنبض بالألم. [2]

realpagex0020x10

كانت قبل ذلك بأسابيع قد تخلّت عن هاتفها الخلوي، تركته في القمرة حين رست العبّارة في الوقت المحدّد في «هول»، وبات أفضل ما يسعها التفكير في فعله الآن هو التوجّه بالسيّارة إلى مركز الاستعلامات السياحية في كيرنارفون والسؤال عن طبيب. صعبت عليها القيادة بسبب تورّم رجلها التي عجزت عن إدخالها في الحذاء، كما استحال عليها ارتداء الجينز فاستعاضت عنه بالتنّورة. شعرت أن دوّاسة القابض قاسية كالصخر، قاسية وصلبة. غطّت طبقة من المطر الخفيف الزجاج الأمامي، ففكّرت في الموقد في غرفة الجلوس وتساءلت ما إذا كان عليها أن تطفئه. خشيت أن يكون آخر طبيب صحة عامة قد غادر كيرنارفون، معلّقاً على نافذته هو الآخر لافتة «برسم البيع»، فترسلها سيدات الاستعلامات السياحية الخدومات إلى بانغور.

«هل أنتِ في عطلة؟» سألها الطبيب.

أجابت: «كلا، بل أقيم هنا».

«أألمانية أنتِ؟».

«بل هولندية».

«ما مشكلتك؟» كان الطبيب نحيلاً أصفر الشعر وكان يدخّن في العيادة.

سألته: «أيمكنني أن أدخّن أيضاً؟».

«يمكنك. علينا جميعنا أن نموت جرّاء شيء ما».

فكّرت وهي تشعل سيجارتها في قصور الضمائر الاسمية الإنكليزية. ذلك أن طريقة مخاطبته، في تصوُّرها، بدت أشبه بالعامية، قياساً على طريقة مخاطبة المرأة في مكتب الاستعلامات السياحية، التي اتسمت بالرسمية، وكان على المستمعين أن يقرّروا بأنفسهم كيف يريدون أن تتم مخاطبتهم والرد وفقاً لذلك. realpagex0021x مجّت سيجارتها بقوة لمحو صورة طالب السنة الأولى الآخذة في الظهور.

«هل المشكلة في قدمك؟».

«نعم. كيف عرفت ذلك؟».

«شاهدتكِ تسيرين بشيء من الصعوبة وأنت تدخلين. كما أن معظم الناس الذين يعبرون هذا الباب يأتون منتعلين فردتي حذاء».

«عضّني غرير».

«مستحيل»، وأطفأ الطبيب السيجارة بسحق عقبها.

«لكنه فعل».

«كاذبة».

نظرت إلى الرجل فلاحظت أنه يعني ذلك فعلاً.

«الغرائر حيوانات وديعة». وديعة؟

سألته: «هل أنت متديّن؟».

فأشار إلى صليب معلّق على الجدار بجانب ملصق مائل يحذّر من مرض فقدان المناعة المكتسبة: شكل غامض لم تتمكّن من تمييزه تماماً ويحمل كلمتي: للخروج فقط.

«نعم، لن يتبقّى في أحد الأيام من يجول في المدينة سوى الغرائر. الغرائر والثعالب. وقد شرع الناس فعلاً في الانتقال. كما أنهم قد يموتون وحسب، وذلك بالطبع خيار آخر. هل يمكنكِ أن تخبريني كيف انتهى بك الأمر بالتعرّض لعضّة مثل هذا الحيوان الوديع؟».

فكّرت في أنه لم يستخدم صياغة لغوية تتناسب مع السؤال المطروح. «كنت نائمة».

realpagex0022x«هل دخل الحيوان منزلك؟ هل تقيمين هنا في المدينة؟».

«أقيم أعلى الطريق. وكنت في الخارج متمدّدة على صخرة كبيرة».

«هل اخترقت عضّة الغرير حذاءك؟».

«ألديك وقت لكل هذا الحديث؟ أفضّل أن تلقي نظرة على قدمي».

«الوضع هادئ هذا الصباح. يبدو صوتك أجشّ قليلاً. ألديك مشكلة في الحلق؟».

أجش؟ هل بدا صوتها أجش؟ «ربما كنتُ على شيء من الحمّى».

«أمتعبة أنت أيضاً؟».

«متعبة للغاية. لكن ذلك..».

«ألم تكوني تنتعلين حذاءً؟».

«بلى. أعني أنني كنت قد خلعت حذائي».

حدّق الطبيب فيها لكنها تركت الأمر يمر. «أريني»، وأومأ صوب أحد الأسرّة. فقفزت على رجل واحدة متوجّهةً صوب السرير وكافحت للصعود عليه كونه كان مرتفعاً جداً، وخلعت الجورب السميك من قدمها المصابة.

«آخ»، قال الطبيب.

«نعم»، قالت. «إنه مؤلم للغاية».

أمسك بقدمها اليسرى واعتصرها بحذر، ثمّ مرّر يده على قصبة ساقها وقال: «توجد خدوش هنا أيضاً».

حاولت كبح احمرار الخجل الذي أخذ في الارتفاع من عنقها، لكنّها أدركت عدم جدوى ذلك، فاكتفت بالقول: «نعم».

«الغرير؟».

realpagex0023x«نعم».

أخذ يفرك ركبتها. «لم تكتفي بخلع الحذاء؟».

قالت: «الشمس لا تزال قوية جدّاً هنا حتى في تشرين الثاني».

«إنّنا نتمتع بمناخٍ رائع».

تنهّدت.

«هل من شكاوى أخرى؟».

جالت بنظرها مرةً أخرى في أنحاء العيادة قبل أن تجيب: «لا».

«أمتأكدة أنت؟».

«لماذا تسألني ذلك؟».

«لا يأتي الناس إلى هنا بسبب نثرة في عيونهم، بل يستخدمون ذلك عذراً ليشيروا عرضاً إلى كل أوجاعهم وآلامهم».

أبقت عينيها على الصليب الذي كان، على غرار الملصق، مائلاً بعض الشيء. رفع الطبيب في النهاية يده عن ركبتها.

«إذا كنت متأكدة من أنه غرير فيجب أن أحقنك ضد الكزاز».

«إنه غرير».

«سأترك الجرح على حاله. انقعيه مرتين أو ثلاث مرات في اليوم بالماء الساخن بعد أن تذيبي فيه ملعقتين صغيرتين من كربونات الصودا. هذا علاج قديم. وسأصف لك مضاداً حيوياً».

آلمتها الحقنة ألماً جهنّمياً. رمى الطبيب القارورة والحقنة وأشعل على الفور سيجارة جديدة، وراح يكتب الوصفة والسيجارة في زاوية فمه وإحدى عينيه تدمع.

«أتعرفين مكان الصيدلي؟».

أجابت: «كلا».

realpagex0024x«على بعد ستة منازل إلى الأمام»، ونظر إلى ساعته. «ستكون الصيدلية مفتوحة الآن».

نهضت وأخذت الوصفة قائلةً: «شكراً لك».

«إن لم يتحسن الجرح راجعيني بعد نحو أربعة أيام».

«سأفعل».

«وانتبهي من الغرائر».

«حسناً».

«من الغرائر والثعالب. فللثعالب أيضاً عضّة قبيحة».

قالت: «لا بدّ أنها مشغولة للغاية بإوزاتي».

وشرع الطبيب في السعال.

إوزاتي، فكّرت وهي في الطريق إلى الصيدلي. ها قد أصبحت فجأةً إوزاتها. صعب عليها كثيراً القفز على رجل واحدة: يمكنها أن تعلّق الجورب قبالة الموقد في المنزل لكنها سترميه في حال أحدثت فيه ثقبا. كان ثمة زوجان شابان يتجهان نحوها وهما يضحكان ويتحدثان بصوت مرتفع وقد لفّ كلٌّ منهما ذراعه حول خصر الآخر، وعند مرورهما بها نظرت إليها الفتاة بالطريقة نفسها التي تنظر بها الفتيات اللواتي يعتقدن أن العالم في متناول أيديهن، وهنّ ضائعات في سعادة اللحظة

ويصررن على أن يشاركهن الآخرون بهجتهن. يكاد الأمر يقارب الإهانة: سعادة خالصة ستزول قريباً جدّاً. ابتسمت الفتاة بابتهاج كمن يقول: شاركيني فرحتي! فقابلت نظرتها بلا مبالاة متجاهلةً الفتى. فمجرّد رؤية فتاة تبلغ نصف عمرها وتجول في المكان هي في حدّ ذاتها أمر لا يُحتمل. بعد ذلك بثوانٍ دفعت باب الصيدلي لفتحه. لم يكن هناك أي طابور عند منصة البيع.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle
اشترت، بالإضافة إلى المضاد الحيوي الذي
وصفه لها الطبيب، عدة إسعاف
realpagex0025xكاملة وخمس علب
«باراسيتامول» ومرطّباً لليدين ومعجون أسنان
وأنبوبين من أقراص السعال.

سألتها المرأة من وراء المنصة: «هل اليوم عطلة؟».

أجابت: «كلا».

«ألمانية؟».

«لا».

«التهاب في القدم؟».

«نعم».

وأكملت مساعدة الصيدلي الصفقة بصمت.

كان المطر لا يزال ينهمر، فقادت السيارة عائدةً إلى المنزل بسرعة الحلزون.

11

لم تقوَ تلك الليلة على تحريك ذراعها، وكانت قدمها لا تزال تنبض بالألم. سلقت بعض البطاطا ثم قَلَتْها مع بصلتين وخمسة فصوص ثوم، وشربت كأسي نبيذ مع العشاء. شعرت أنها تريد شرب المزيد لكنها تذكّرت أن الكحول والمضادات الحيوية يشكّلان تركيبة سيئة. من غير المفاجئ

ألاّ يأتي الطبيب على ذكر ذلك، فهو منشغل كثيراً في جرّ نفسه إلى الموت بالتدخين في غرفة عُلّق فيها صليب على الجدار. أنهت العشاء وصعدت الدرج أشبه بامرأة عجوز، تمسك الدرابزين بيدها الضعيفة وتجرّ رجلها جرّاً. استلقت على الأريكة في المكتب، وكانت النافذتان لا تزالان تمرّران بعضاً من الضوء. فكّرت في الزهور. هذه الغرفة تحتاج إلى زهور. ومن الأفضل وجود هاتف أيضاً. كانت قدمها قد تعرّضت لعضّة من الغرير، وكان يمكن أن تكسر realpagex0026xكلتا ساقيها. كما أن الطبيب لم يقل شيئاً عن ذراعها المتيبّسة. تحتاج أيضاً إلى جهاز راديو، فالمكان هادئ جدّاً بحيث يمكنها أن تسمع زخّات المطر وهي تعبر من أمام النوافذ، وأن تسمع بين الزخّة والأخرى احتكاك قصب الخيزران بخزان الوقود عند جانب المنزل.

دخّنت سيجارة.

تمدّدت. العاهرة القاسية القلب.

كان ذلك يوم الثامن عشر من تشرين الثاني.

12

كان الزوج قد عاين كل لوحات الإعلانات في قسم اللغة الإنكليزية، وعثر على إخطارٍ آخر في مكان محجوب عن النظر، ملصقاً على الجدار بين مكتبين وشبه متوارٍ وراء لائحة بنتائج الامتحان. كان الإخطار مطابقاً تماماً لمضمون الورقة التي يمسك بها في يده. «أستاذتنا ‘المحترمة’ المحاضرة في دراسات الترجمة امرأة عابثة، ولا تشبه، بأي شكل، محبوبتها إيميلي ديكنسون: إنها عاهرة قاسية القلب». أدرك أن الرسالة نفسها معلّقة حتماً على الكثير من اللوحات. سار إلى مكتبها. كان السكون يعمّ ممرات مبنى الجامعة الطويلة والضيقة. كانت هناك لوحة بلاستيكية جديدة معُلّقة على الباب، تحت اللوحة التي تحمل اسم زوجته واسم زميل سبق له أن سمع به، عليها اسم رجل ومنصبه: أستاذ محاضر في دراسات الترجمة. تردّد، ووجد صعوبة في تخيّل أنهم قد أفرغوا المكتب من جميع أغراضها. أوليس من المؤكّد أن الحاسوب والكتب والملاحظات لا تزال هنا؟ إنها، على حدّ علمه، لم تعد موظفة كأستاذة محاضرة، لكنهم ربما يواصلون السماح لها بالاستمرار في العمل على أطروحتها في المكتب. دخل. كان المكان خالياً. خرج بعد قليل وعاد إلى الممر realpagex0027xوشرع في الصياح. أخمد رجلان النار بخرطوم مياه ملفوف على بكرة وتمكّنا من حصرها في هذا المكتب وحده. لم يتبقَّ لفوج الإطفاء لدى وصوله بعد ذلك بعشر دقائق ما يفعله. انتظر الزوج بهدوء وصول رجال الشرطة.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle *

كانت الملاحظة موضوعة على طاولة غرفة التحقيق في أقرب مخفر للشرطة. كان قد سبق له الاعتراف بافتعال الحريق، وسحَب الملاحظة من جيبه في منتصف التحقيق، وقال: «سأدقّ عنقه».

«ذلك ممنوع»، قال الشرطي الذي كان يدوّن إفادته.

«سأبتر عضوه إذن».

«ذلك بالتأكيد غير مسموح به». سأله الشرطي عن مكان وجود زوجته في تلك اللحظة.

«لا أعلم. لقد رحلت بسيارتها. كما أن المقطورة لم تعد هي الأخرى موجودة في الحظيرة».

وهل تركه ذلك من دون وسيلة نقل؟

«كلا، فلدينا سيّارتان».

هل حاول الاتصال بها؟

«ماذا تعتقد؟ حاولت بالطبع! وهاتفها الخلوي يعطي طوال الوقت إشارة بأنه مشغول».

هل فُقدت أشياء من المنزل؟

«ثيابها كلّها وطاولة القهوة البشعة التي فرحتُ بتخلّصي منها، وفراش ولحف ومصابيح! وأشياء مختلفة، وكتب، وكثير من أغطية السرير، وصورة لإيميلي ديكنسون و..».

realpagex0028x«من؟».

«إنها شاعرة أميركية. كانت تكتب أطروحة الدكتوراه عنها. لقد تأخّرتْ، لو سألتني، بعض الشيء لكن من الواضح أنها كانت تحاول إثبات شيءٍ ما. يا للمسيح العظيم».

ألديهما أولاد؟

كانت تلك المرة الأولى التي يخفض فيها الزوج نظره.

كيف هي العلاقة بينهما؟

«بمَ يعنيك ذلك؟ وما الذي أفعله هنا في أي حال؟».

ذكّره الشرطي أنه متّهم بإضرام حريق في أحد مباني الجامعة.

«وإن يكن! قُم بواجبك وحسب، ولا تتدخّل في حياتي الخاصة».

وانتهى الشرطي بسؤاله إن كان يريد تسجيل زوجته الغائبة في عداد الأشخاص المفقودين.

رفع الزوج رأسه وقال بعد تفكيرٍ طويل: «لا، دعنا لا نفعل ذلك».

هل يريد بعض القهوة؟

نظر إلى الشرطي وقال: «نعم. شكراً». علا وجه الشرطي تعبير ودّي وانتظره بصبر وهو يشرب القهوة. ثم قال الزوج: «فردي».

«ماذا؟».

«الفراش الذي أخذته فرديٌّ».

realpagex0029x

13

ظلّت تتوقّع دوماً مجيء زائر ما. فتلك الإوزات كانت تخصّ أحدهم، وكذلك الخراف السود على الطريق. سيأتي أحدهم في النهاية ولو كان رحّالةً تائهاً. ملأتها الفكرة بالاضطراب. مرّت بضعة أيّام ولم تعد قدمها تنبض ألماً واستطاعت رؤية الجرح وهو يلتئم. لم تجرؤ على النظر إلى قدمها بعد العضّة مباشرةً، لكنّها كانت، كلّما نقعتها بالصودا، وفي انتظار أن تجفّ، تمرّر إبهامها فوق آثار الأسنان على قدمها التي ما برحت تصيبها بالحكاك، وتبقيه عليها لدقائق عدّة. تذكّرت أنها قد سمعت، إضافةً إلى موضوع التنافر بين الكحول والمضادات الحيوية، أن على المرء إكمال مسار العلاج، فثابرت على تناول الحبوب. كان عضدها الآن، الذي لا يزال متصلّباً، يقلقها أكثر من قدمها. استمرّ المطر في الهطول، لكنه كان مطراً لطيفاً إلى حدّ أنها لم تكن ترتدي حتى المعطف عند خروجها. سمعتْ ذات يوم أحد بضع صفرات حادة لم تتمكن من تحديد مصدرها، فأخرجت الخريطة ووجدت خطّاً للسكة الحديدية لا يبعد كثيراً عنها وهو «خط سكة ولش هايلاند». كانت هناك، على مقربة من موقع كيرنارفون على الخريطة، صورة قطار بخارية من الطراز القديم. من الواضح أن هذا القطار يعمل خلال العطلة الأسبوعية.

14

شرع عمّها، بعد مضي بضعة أيام على قيام الموظفين الآخرين بانتشاله من البركة، في صنع خزانة، كانت عبارة عن مجموعة رفوف أكثر منها خزانة. «أرأيت»، قالت أمها لأبيها. «أرأيت، هكذا تُنجز الأمور. الأمور تُنجز، تبدأ بها وتنجزها». استغرقه صنع الخزانة أسابيع؛ أسابيع كان خلالها في إجازة لأن إدارة الفندق طلبت منه أن realpagex0030xيعود عندما «يشعر أنه في حال أفضل». نشرَ وثقب وثبّت البراغي وصقل بورق الزجاج وطلى؛ ثم جلس على كرسي محدّقاً في ما أنجزه حتى الآن. وأصيب عند انتهائه بانتكاسة طفيفة. قالت أمّها: «لم أكن لأستبعد أن يعمد إلى تفكيك ذلك كله مرةً أخرى، لكنه لم يفعل».

15

كانت قد اشترت، من دون سابق تفكير، مقصّاً للشجر ومنشاراً للتشذيب لأنها أرادت أن تفعل شيئاً حيال التعريشة الملتصقة بواجهة المنزل. كانت تستمتع بتشذيب اللبلاب. حدّقت، عبر زجاج باب المدخل، في مستطيل الأعشاب بين الجدول والحائط الصخري المنخفض الذي تتجمع وراءه أحياناً الأبقار البنّية الفاتحة، ورأت على امتداد الجدول بعض الشجيرات المفرطة في النمو وبعض الأشجار الغريبة الشكل. كان العشب ينتهي أمام البيت تماماً عند ممر واسع من الحصى

الخشن الأطراف. كلا، لم تكن قد رأت حصىً عندما خرجت وركعت للمرة الأولى، بل قطع من الإردواز، وأدركت أن التلّة الرمادية وراء المنزل ليست مجرد تلّة رمادية، بل مخزون من الإردواز. دلّكت عضدها الأيسر وعادت إلى المنزل لترتدي سروالها الأعتق، ثم أخرجت، وهي في الحمام، حبتي «باراسيتامول» من مظروفهما وابتلعتهما مع جرعة كبيرة من الماء.

عثرت في زريبة الخنازير على مجرفة صدئة وعلى مذراة أكثر صداً. أسندتهما إلى الحائط المنخفض الذي وضعت مقص الشجر فوقه. تلاشت سحب المطر في الضباب الشبيه بغيمة غائرة في الأرض. تنهّدت. تقدّمت خمس خطوات إلى الأمام انطلاقاً من عدد من البقع على الجدار الأمامي للمنزل، وغرزت قطعة من الحطب في الأرض: انتهى الأمر بإحدى قطع الحطب على الإردواز وبأخرى على العشب. وما إن غرزت المذراة وحاولت دفعها في الأرض بقدمها السليمة حتّى استسلمت realpagex0031xعلى الفور. كان الأمر عديم الجدوى، وكانت بحاجة إلى قبقابين؛ إلى قبقابين وعجلة يد وحبل وأوتاد قصيرة. أعادت إسناد المذراة إلى الحائط. كان المكان يعبق برائحة روث البقر القوية. قالت بينها وبين نفسها: «عليّ الإمعان في الأمر مليّاً. هذا كلّ ما يتطلّبه الأمر. وإذا أردتُ - إذا أردتُ فعلاً - فيمكنني حتى تشييد حائط كامل. أعمال كهذه تُنجز خطوة فخطوة. لا يمكن فعل المزيد الآن». أمسكتْ بمقص الشجر وذهبت إلى الجهة الأخرى من المنزل، حيث كاد بعض الخيزران أن يبلغ السطح، وأخذت تقطع أعواد الخيزران عند مستوى الكتف، وأدركت بعد ذلك بنصف ساعة، وهي تسترق النظر إلى كومة الخيزران خلفها، أن في وسعها شطب الأوتاد من القائمة. اكتشفت وجود نافذة صغيرة في المطبخ لم تكن قد لاحظتها من الداخل. لم تكن منذ خروجها من البيت قد دخّنت أي سيجارة، وستجد الآن صعوبة في رفع يدها اليمنى إلى فمها.

ارتفعت الغيمة في وقت لاحق من ذلك النهار واخترقتها أشعة الشمس. سارت ببطء إلى الحلقة الحجرية والمقص في يدها، وهي تقطع الأغصان التي تعترض الطريق وتزيل اللبلاب عن البوابات الحديدية. وشيئاً فشيئاً، كان الممرّ يأخذ شكل الممرّ الحقيقي. بلغت الحلقة الحجرية لكنها لم تجلس على الصخرة الكبرى، بل تابعت في الاتجاه نفسه حتى بلغت أحد السلالم. كان المكان رطباً؛ رطباً فعلاً، مستنقعياً؛ مع أجمات كثيفة من العشب تنتصب بين بقع المياه الصغيرة. كانت الدرب تمتد مباشرةً عبر المستنقع وعلى نوع من الرصيف الطبيعي مع صخور متوزّعة هنا وهناك. غداً، قالت في سرّها. كان سبق لها أن شاهدت على الخريطة بركة مائية أكبر، مستطيلة، كما لو أنها من صنع الإنسان. [3]

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

جلست ساكنةً، تنتظر، وقد لفت ذراعيها حول

ركبتيها المرفوعتين. لم يظهر أيّ غرير. رفرفت فراشتان صفراوان فوق الوزّال. فراشتان، فكّرت. فراشتان خرجتا ظهراً / ورقصتا الفالس فوق الساقية(*). اجتاحتها موجة عارمة من الحنين إلى الديار. سبق realpagex0032xلها مرتين أن شعرت بشيءٍ من هذا الحنين في متجر «تيسكو» الضخم في كيرنارفون، وبخاصة في الأجنحة المبرّدة. قاومته آنذاك، لكن استحال عليها هنا في الشمس، مع الفراشتين والمستنقع، مقاومة ذكرى الشارع في «دي بييب». رأته أمامها بالأبيض والأسود: الأشجار هناك بحجمها الذي يضاهي نصف حجم الأشجار هنا، السيارات ذات الملامح والهياكل المستديرة، الأطفال بالسترات الصوفية المحاكة مع رقع من الجلد على رُكَب سراويلهم، الأدراج الشديدة الانحدار الموصلة إلى الأبواب الأمامية، الرائحة المسكرة لحلويات عيد القديس مارتن! كان العيد قد حلّ قبل أسبوع بالتمام. أفلتت ركبتيها

ومدّت ساقيها، احتضنت بطنها وانحنت إلى الأمام.

بعد ذلك بقليل، خرج الغرير بمشيته المتثاقلة من تحت شجيرة الوزّال.

16

عندما عادت من الحلقة الحجرية وذراعها محمّلة بحزم العشب، وجدت قصاصة ورق على الباب الأمامي كُتب فيها: «جئت ولم أجد أحداً. سأعود، ربما غداً. ريس جونز». كانت القصاصة ملصقة على الباب بقطعة من العلكة.

استدارت لتنظر إلى ما ستصبح عليه الحديقة، وفكّرت: «لا يمكنني القيام بهذا، فأنا لا أعرف حتى أسماء هذه الشجيرات. لا أعرف من هو ريس جونز. وكيف أحمي سبع إوزات من ثعلب؟» رمت بمقص الشجر وحزمة العشب، وكانت الشمس قد انخفضت بالفعل. الحدس هو ذلك الظل الطويل على العشب/ الدال على أن الشموس تغيب/ وهو إشعار للعشب المشدوه/ بأن الظلام على وشك الحلول. كان قد سبق لديكنسون أن رأت ما شاهدته هي الآن. انحسر حنينها إلى الديار. سارت إلى غرفة الجلوس، وصبّت كأساً من النبيذ، هزّت بعض الوسادات لإعادتها إلى شكلها وجلست على مقربة من الموقد الذي كان الحطب يشتعل فيه. كان طعم السيجارة التي أشعلتها أشبه بطعم السيجارة الأولى. بدأ الظلام يعمّ ببطء شديد كما لو أن realpagex0033xالضوء يتم امتصاصه عبر النافذة مثل الغبار الدقيق. أشعرها ذلك ببعض الدوار. أضاءت شمعتين ووضعت ثلاث حطبات في الموقد. كانت قد خلّفت كلّ شيء وراءها، كلّ شيء ما عدا الأشعار التي يجب أن تكفيها في الوقت الراهن، ونسيت أن تتناول الطعام.

17

تعثّرت في الصباح التالي بحزمة العشب. وضعتها، وهي تكيل الشتائم، في زهريّة زجاجية كبيرة وجدتها في خزانة المطبخ. تركت مقص الشجر مرمياً على الأرض. أوصلت المقطورة بخلفية السيارة وقادتها على غير هدى، فهي في المملكة المتحدة ومن المحتم بالتالي أن تصادف عاجلاً أم آجلاً متجراً لبيع لوازم الحدائق. وجدت نفسها بعد نحو ساعة في قرية تدعى «وانفاور»، لم يكن فيها مثل هذا المتجر ولكن كان فيها مخبزٌ. اشترت خبزاً وبسكويت وكعكة بالقشدة. لم تكن لديها أي فكرة عن مكان وجودها بالرغم من أن الجبل الذي رأته في البعيد، لدى دخولها المتجر، بدا مألوفاً. لكنّها، ولمزيد من الاطمئنان، أبلغت الخبّاز باسم منزلها.

سألها الخبّاز: «ألا تعرفين أين أنت؟» أجابت: «كلاّ».

لم يقل الخبّاز شيئاً بل اكتفى بهزّ رأسه بلطف.

«إحساسي بالاتجاهات ضعيف».

نظر الخبّاز إلى السيارة المركونة أمام المحل تماماً. «شغّلي السيارة، وقودي مباشرةً إلى الأمام. اتبعي الطريق. انعطفي يساراً بعد ميل، ثم إلى اليسار مرةً أخرى».

«أبهذا القرب؟».

«بهذا القرب. واشتري من الآن وصاعداً الخبز من هنا».

«عفوك؟».realpagex0034x

«من الآن وصاعداً اشتري الخبز من هنا. بما أنّك قد عرفت الآن موقعنا».

«بالطبع».

«نفتح أيضاً صباح أيام الأحد»، واستدار صوب أحد الأبواب المفتوحة. «أوين؟».

أطلّت زوجة الخبّاز برأسها من خلف الزاوية.

«إنها زبونة جديدة تقيم في منزل السيدة إيفانز القديم».

«آه، هذا لطيف»، قالت زوجة الخبّاز. «مرحى يا حبيبتي»، واختفت من جديد.

«شكراً»، واتجهت صوب باب المخبز. «هل تعرف متجراً لبيع لوازم الحدائق في المنطقة؟».

«بانغور. أتعرفين أين تقع؟».

«نعم».

«جيد».

«إلى اللقاء».

«عندما ينقصك الخبز».

«نعم».

«هل أنت ألمانية؟».

«قطعاً لا»، وخرجت من المخبز ووضعت ما اشترته على مقعد السيارة الخلفي. اجتازت بضعة منازل وبضع تلال وتقاطعاً للطرق. لم يكفِها حتى جبل سنودون لتعرف اتجاهها. "Godverdomme!" (اللعنة) قالت للجبل. «يجب أن أتوجه إلى المنزل أولاًrealpagex0035x». وقف الخبّاز عند واجهة المتجر وإحدى ذراعيه مبسوطة كلافتة الطريق. كان ثابتاً لا شيء فيه يتحرّك، فيما عدا يده، بسبابتها الممدودة، والتي راحت تهتزّ صعوداً ونزولاً، مثل دمية معبّأة بالزنبرك. هزّت رأسها، ورفعت ياقتها بعض الشيء لإخفاء البقع الساخنة على عنقها، وصعدت بسرعة إلى السيّارة.

انعطفت إلى الممر، فلاحظت على الفور أن الحقل فارغ. لم ترَ الخراف السود إلا بعد اجتيازها المنعطف الحاد وقد باتت قريبة جدّاً من المنزل. كانت الإوزات السبع تبقبق وهي على مقربة بعضها من بعض. فرملتْ ونزلت من السيارة. ستّ. عاودت عدّها بالرغم من أنها كانت قريبة من السياج، ومرّة أخرى لم تصل إلى أكثر من ستة. قالت في نفسها: إذا استمر الأمر على هذا المنوال فلن يتبقّى أيٌّ منها مع حلول عيد الميلاد.

كانت قصاصة الورق قد اختفت عن الباب الأمامي واستُبدلت بها رسالة جديدة. «جئتُ مرّة أخرى. نقلت خرافي. سأحاول من جديد. غداً صباحاً عند التاسعة. ريس جونز».

حسناً، فكّرت بشجاعة. صاحب مزرعة خراف وموعد. لقد اشتريتُ قالباً من الكعك.

التقطت مقص الشجر ودخلت المطبخ. كانت الخريطة لا تزال مفتوحةً على الطاولة؛ فهي لم تُعد تطويها. حدّدت عليها موقع وانفاور، ووجدتها قريبة بشكل لا يُصدّق. وقفت هكذا لبرهة، ظهرها منحنٍ وراحتا يديها على الخريطة. تبيّن لها، بعد فترة، أن الخطوط المنقّطة الخضراء التي تظهر دروب المشاة تلتقي كلها عند دربها، على أرضها. فكّرت: ذلك الجبل! يجب أن أبقي عيني على جبل سنودن، وسأعرف مكان وجودي.

realpagex0036x

18

لم تكتفِ بعد ظهر ذلك اليوم بشراء عربة يد وحبل وقبقابين للحديقة، بل اشترت أيضاً لفّة من سياج خمّ الدجاج ومطرقة ومسامير. كان «ديكسونس غاردن سنتر» خالياً من الطلاّب؛ ولكن كانت فيه نساء متقدمات في السن، وكان هناك رجال متقاعدون مع أحفاد سعداء، وزبائن يمسكون بقوائم طويلة مكتوبة بخط رديء، زبائن من النوع الذي لا يترك شيئاً للمصادفة. رافقتهم الموسيقى الكلاسيكية الهادئة عبر الأجنحة. كذلك كان خرير النوافير والمعالم المائية يضفيان، سواء بسواء، جوّاً هادئاً. بقيت فترة أطول مما يلزم وطلبت كوباً من القهوة في «الكافي كورنر». ألقت نظرة ثانية على الورود واشترت ثلاث نبتات داخلية مزهرة من النوع الذي كان جدّاها يضعانه على حافة النافذة منذ ثلاثين عاماً، واشترت أيضاً مقصّاً أفضل للشجر لأن الذي كانت قد ابتاعته من متجر الخردوات أصبح رخواً ومثلوماً بعض الشيء. ساعدها فتىً أخرق ذو ضفائر حمر على تحميل عربة اليد في المقطورة، ثم مدّ يده لمصافحتها وهي تهمّ بركوب السيارة. لم تستطع التفكير عندها بما هو أفضل من قول «شكراً. إنك ودود جداً». لم يتفوّه الفتى بكلمة بل اكتفى بالابتسام وأغلق باب السيارة. رأته من المرآة الجانبية يراقبها بانتباه وهي تنطلق مبتعدة.

*

تركت الحديقة الجديدة تستكين بعد ظهر ذلك اليوم، واستخدمت بدلاً من ذلك عربة اليد لنقل لفة السياج إلى البرك الثلاث حيث كانت الإوزات الست تقف في انتظارها لتهرب ما إن تدخل هي من البوابة إلى الحقل. فكّرت في أن الأمر يبدو وكأن الإوزات تنتظر شيئاً منها. لكن ماذا؟ استخدمت قدماً واحدة - تلك المجروحة لتختبرها - لدفع مختلف أجزاء الكوخ المنهار. أزالت بعض الألواح الخشبية فاستقرّ السقف المغطّى بالصفائح المطلية بالإسفلت على الأرض على شكل مثلّث. في realpagex0037xذلك متّسع كافٍ وأكثر للإوزات. بسطت لفّة السياج وأدركت أنها تحتاج إلى ما تقطعها به. وجدت، كما في السابق، أدوات مفيدة في زريبة الخنازير القديمة. عادت عبر الممشى حاملةً منشاراً وكمّاشة كبيرة ولفة من السلك المعدني الرفيع. قامت في البداية بعزل ظهر المأوى المثلّث، وثبّتت سياج الخمّ في مكانه بدقّه، ثم أحكمت تثبيته بالمسامير تحت الألواح التي لم تكن مهترئة كلّياً. قالت في سرّها: انظري بانتباه وتمعّني مليّاً في الأمر. إذا قمتِ بذلك فستتمكّنين حتّى من صنع خزانة جدار. كانت الإوزات تراقبها وهي تقوقئ بهدوء. تقدّمت الخراف السود في الحقل المجاور إلى مسافة أقرب وبات معظمها مصطفّاً عند السياج. سحبت علبة السجائر من جيب معطفها وأشعلت واحدة.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

اندفع طائر كبير ذو لون أحمر مائل إلى البني نزولاً صوب الأيكة المستنقعية وحطّ على غصن سنديانة قبالتها. «أهذا أنتَ؟» نادته بالإنكليزية كما لو أن الطائر لن يفهم إذا كلّمته بالهولندية. حدّق فيها الطائر من دون أن يتأثر. رمت بالسيجارة التي دخّنت نصفها في إحدى البرك.

عملت على الواجهة بشكل مختلف، فعمدت أولاً إلى تقطيع الألواح الخشبية حسب القياس لتستخدمها من ثمّ في إغلاق القسم الأعلى من المثلث. تركت فجوات واسعة بين الألواح لعدم توفّر ما يكفي من الخشب المتين، وبلغ عرض السياج مئة وعشرين سنتيمتراً. عادت من جديد إلى زريبة الخنازير بحثاً عن مشبّكات، وعثرت عليها. بسطت السياج على الأرض وطوت ما زاد عن المثلث فوق أحد جوانب السقف ثم ثبّتته بدقّ المشبّكات بالمطرقة. ثم لم تعد تدري ماذا تفعل، فتراجعت بضع خطوات وتأمّلت المأوى. نظرت إليه وأمعنت التفكير. شعرت أن عليها أن تستسلم، وكان كل ما في جسمها يقول: «توقفي. دعي الأمر. عودي إلى الداخل وتناولي مشروباً. دخّني سيجارة. أنزلي جسدك في مغطس مملوء بالماء الساخن». كان قد بقي لوحا خشب سليمين؛ القصير منهما منتصب والآخر ملقى على الأرض. فكّرت: يمكنني بعد ذلك أن أتوصّل إلى كيفية إقفال ذلك الجزء الأخير من سياج الخمّ الذي يجب أن يعمل كنوع من الباب. استمرّي في ذلك وحسب. سمّرت اللوحين بزاوية realpagex0038xمستقيمة وأضافت قطعة خشب صغيرة ثبّتتها في الزاوية كدعامة، ووضعت الهيكل عند واجهة المأوى ثم دبّت إلى الداخل لشبك السياج بالخشب. صعب عليها إدخال المشبّكات لعدم وجود ما يثبّت اللوح الأفقي في مكانه. "Godverdomme " (اللعنة) قالت. عليها وضع شيء وراء اللوح. دبّت إلى خارج المأوى ونظرت من حولها. كانت هناك حجارة كبيرة عند البركة، وكانت ثقيلة جدّاً. قلبت عربة اليد رأساً على عقب ودفعتها بقوّة على اللوح وحاولت من جديد. أخذت العربة في الانزلاق بعيداً، بيد أنها تمكنت من إدخال المشبّكات في الخشب بطرْقها بألطف ما أمكن. آلمتها ذراعها، وكان بإمكانها الشعور بقدمها. زحفت خارجةً من المأوى وهي تشتم وتتساءل عمّا تفعله. سحبت عربة اليد من الطريق وأعادتها إلى وضعيّتها وتحققت مما قامت به يداها. بدا عملها إلى حدّ ما متيناً، وارتأت أن المأوى صلب كفاية لإبعاد ثعلب. كما أنّ طائراً

كبيراً لا يمكنه بالتأكيد ولوجه. لم يتبقّ عليها الآن سوى التفكير في كيفية إغلاق القسم الأخير من دون تسميره حتى لا يقفل بشكل دائم. بقيت لديها نحو عشرة مسامير كبيرة فدقّت ستة منها في السقف مباعدةً نحو عشرين سنتيمتراً بين الواحد والآخر في الجهة المقابلة تماماً للمثلّث الذي شبكته عند الجانب الآخر من السقف. قطعت أطوالاً من السلك وفتلتها لتعليقها بالسياج المشبّك، وباعدت أيضاً عشرين سنتيمتراً بين السلك والآخر. تأكدت من تراصف أطوال الأسلاك بشكل أو بآخر مع المسامير الستة، وعمدت بعدها إلى تشذيب الفائض من السياج المشبّك. "Godverdomme! " (اللعنة!) قالت من جديد. أدمت يديها وأخذت تفوح منها رائحة براز الإوز الكريهة.

رفضت الإوزات سوقها إلى المأوى، وهربت في طابور في الاتجاه الخاطئ، أو تفرّقت كما لو أنها أدركت أنّ الاختيار بين ستة طيور منفصلة أمر صعب. حافظت الخراف في الحقل المجاور على عدم مبالاتها؛ كان معظمها يرعى بهدوء، ويرفع بعضها رأسه بين الحين والآخر متطلّعاً. جمعت، وهي تلهث، بعض الحصوات ورمت بها الإوزات، وهي تصيح: «يا للكائنات الجاحدة، القذرة، النتنة، العنيدة! اللعنة، فأنا أحاول إنقاذك!» وقررت القيام بمحاولة واحدة وأخيرة، وبهدوء شديد. كانت realpagex0039xالإوزات واقفة عند البركة الكبرى على مقربة من المأوى. أشعلت سيجارة وجلست على العشب. قوقأت الإوزات قليلاً وشربت اثنتان منها بعض الماء. مهلاً عليها، قالت لنفسها، سأتركها تتعوّد عليّ أولاً. ثم نهضت وبسطت ذراعيها والسيجارة في فمها. أخذت الإوزات وقتها وتجمهرت بعيداً عن البركة وسارت مجتازةً المأوى. بقيت هي في مكانها. توقفت الطيور على بعد أربعة أمتار أو خمسة من قطعة السياج المشبّك المطوية. «ادخلي»، قالت بهدوء. «هيا. المكان آمن في الداخل». أصغت إلى نفسها تتحدث بالإنكليزية وفكّرت: عليّ توجيهها. دبّت وراء الإوزات بهدوء كبير وبما أمكنها من السكون، ظنّاً منها أنها ستنجح، لكن الطيور ظلّت واقفةً بلا حراك وأجسامها البدينة ملتصقةٌ بعضها ببعض، من دون أن تحرّك سوى رؤوسها وأعناقها. كانت المرأة تسير الآن في اتجاه الملجأ وذراعاها لا تزالان مبسوطتين. نعم، فكّرت. نعم. التفّ الدخان المتصاعد إلى عينيها وتسبّب بانحدار الدموع على خدّيها.

في تلك اللحظة بالذات مرّ شيء بسرعة من فوق رأسها، قريباً جدّاً بحيث شعرت بالهواء يحفّ بشعرها. بعد ذلك بنصف ثانية رفرف الطائر البني الأحمر بجناحيه، ثم انساب صعوداً من فوق المنزل إلى الغابة. كانت الإوزات، عند ذاك، قد صارت في الطرف البعيد من الحقل. طاف بعض الريش الأبيض نزولاً إلى الأرض. سقطت على ركبتيها وانهارت جانبياً على العشب الرطب، وقالت بهدوء: «لماذا أفعل هذا؟» رمت ما تبقى من السيجارة. «لا يمكنني على الإطلاق القيام بذلك».

استلقت، بعد نحو ساعتين، في المغطس ذي القوائم الشبيهة بالمخالب. تأمّلت أصابعها ورفعت ساقها اليسرى ونزعت قشرة الجرح عن باطن قدمها. اصطبغت المياه عند أسفل المغطس بمسحة حمراء. قالت «يمكنني القيام بذلك». خرجت من المغطس وجفّفت نفسها. غطّت غشاوة

المرآة الصغيرة فوق المغسلة؛ رأت وجهها وجذعها وكأنهما كتلتان زهريتان فتناولت حبتي «باراسيتامول». نشرت المنشفة على القضيب المعدني في بيت الدرج إلى realpagex0040xجانب بعض الثياب الرطبة. كانت النار مشتعلة في موقد المكتب ومصباح الطاولة مضاءً. جلست قبالة النار. شعرت باشتداد جلدة فخذيها وبطنها. مرّرت يديها على ثدييها ونظرت مباشرةً في عيني إيميلي ديكنسون السوداوين، وقالت: «الأمر سهل بالنسبة إليك، فأنت ميتة».

19

لم تدرك إلا بعد حوالى يومين على تركها هاتفها الخلوي في العبّارة أنها لطالما استخدمته كساعة وروزنامة. كانت قد جلبت مفكّرتها معها؛ ولو شاءت فعلاً لتمكّنت من معرفة التاريخ. كما أن عدم امتلاكها ساعة - لا بدّ أنّ الساعة المعلّقة على جدار المطبخ متوقّفة منذ زمنٍ بعيد - ليس بالمشكلة، فهي تأكل حين تجوع وتأوي إلى السرير عندما تشعر بالحاجة إلى ذلك، ولكن ليس من دون أن تبتلع قبل ذلك قرصاً من «الباراسيتامول». لم تكن بحاجة إلى منبّه.

حين نزلت في الصباح التالي إلى الطابق السفلي أمكنها الخروج مباشرةً من باب المدخل الذي كان مفتوحاً على مصراعيه. كان الضوء قد طلع وأحسّت برطوبة العشب تحت قدميها الحافيتين. تلك هي الأيام التي ترتدي فيها السماوات/ سفسطائيات حزيران القديمة، القديمة،.../ خطاً أزرق ذهبيّ. لم تتأكد تماماً لماذا راودت هذه الأبيات فجأةً ذهنها. إنه تشرين الثاني والطقس لا يزال لطيفاً جداً، بل ربما خادع في لطفه. أزرق وذهبي، لكنه لغو. كانت هناك جزمتان مطاطيتان عند عتبة الباب. استدارت ولم تغلق الباب. كان الرجل جالساً إلى طاولة المطبخ كما لو أنه يأتي كل صباح لتناول القهوة، وكان قد فتح الخريطة وهو ينقر بإصبعه بهدوء.

قال: «bore da» («صباح الخير» بلغة مقاطعة ويلز).

realpagex0041x

سألت: «كم الساعة؟».

أومأ بإبهامه من فوق كتفه.

نظرت إلى الساعة: إنها التاسعة والدقيقة الثالثة عشرة. لم تستطع أن تتذكّر الوقت الذي كانت الساعة متوقّفة عنده طيلة هذه الأسابيع كلها.

«أَمَضى عليك ربع ساعة وأنت هنا؟».

«نعم».

لم تكن ترتدي سوى قميص قطني فضفاضٍ كانت تلبسه للنوم. ويصل إلى ما فوق ركبتيها تماماً. هل فات الأوان على العودة إلى الدور العلوي؟

وقف الرجل ومدّ يده قائلاً: «ريس جونز».

لو لم يقف، لأمكنها أن تستأذن. رفعت عنق القميص القطني بعض الشيء ومدّت يدها الأخرى. «صباح الخير»، قالت من دون أن تعطي اسمها. ملأت إبريق القهوة بالماء والبنّ ورفعت واحداً من أغطية الفرن الكبير. سمعت المزارع يعاود الجلوس، من صرير الكرسي.

قال: «إنه في الواقع لا يفنى».

تطلعت عبر النافذة وسألته وهي لا تزال تدير له ظهرها: «أتريد الحليب مع القهوة؟».

«نعم، من فضلك. حليب وسكّر».

رفعت الغطاء الثاني، ثم أخرجت قنينة حليب بلاستيكية من البراد وسكبت منها في إناء صغير، والتقطت المخفقة من طبق لوازم المائدة الموضوع على المنضدة. لاحظت أن يدها ترتجف. «سأصعد إلى فوق»، قالت من دون أن تتزحزح من مكانها.

لم يصدر عن الرجل أي رد فعل.

realpagex0042x

«سأذهب لأرتدي ثيابي، فقد استغرقت في النوم».

«لستِ بحاجة إلى القيام بذلك من أجلي»، قال ريس جونز.

واجهته. «ألم يكن الباب موصداً؟».

مدّ يده إلى جيبه الخلفي وسحب مفتاحاً وضعه على الخريطة. «معي المفتاح».

«الذي ستتركه هنا الآن؟».

«إذا رغبتِ في ذلك».

«أرغب، نعم»، وأدارت له ظهرها من جديد لتحرّك الحليب بالمخفقة وهي تشعر بعجزها يهتزّ بعض الشيء تحت قماش القميص القطني الرقيق. «لديّ كعكة. هل تود قطعة مع قهوتك؟».

«رائع».

شرع إبريق القهوة بالغمغمة. «هل أنت من كتب التعليمات؟».

«نعم».

«فعلتَ ذلك بطريقة جيّدة جدّاً. أستطيع تدبّر أمر الموقد الآن».

«تمّ ملء الخزان بالوقود وسيكفيك أشهراً»، وأزاح الخريطة جانباً.

«كانت السيدة إيفانز تحبّذ أن يكون معي نسخة عن المفتاح».

صبت القهوة في كوبين كبيرين مضيفةً الحليب إلى أحدهما، وأخرجت الكعكة من البراد وقطعت شريحتين وضعتهما في صحنين، ثم دفعت الكعكة والقهوة صوبه وأمسكت، قبل أن تجلس، بذيل قميصها عند فخذيها محاولة قدر الإمكان عدم لفت النظر.

بدا ريس جونز أشبه بصورة كاريكاتورية عن المواطن الويلزي: وجه عريض، شعر كثيف دهني، عينان دامعتان وذقن غير حليقة. اعتقدت أنها تلتقط رائحة خراف خفيفة، إلا أن ذلك قد يكون من مخلفات ما عاقره في الليلة الفائتة من الجعة. كان ظفر إبهامه الأيمن أزرق ومهشّماً. قضى على قطعة الكعك بخمس قضمات.

realpagex0043x

قال: «كنت تعانين مع الإوزات».

«ما الترتيب الذي كان بينك وبين المرأة التي عاشت هنا من قبل؟».

«في ما يتعلق بالخراف؟».

«نعم».

«مرعى مجاني. جزّ العشب وصنع التبن مرة أو مرتين في السنة، وحَمَلٌ في الخريف».

«حمل؟».

«مذبوح».

«وهل سأحصل على ذلك الحمل أيضاً؟».

«أجل. إنكِ تقيمين هنا الآن، وخرافي ترعى الأرض التي تستأجرينها. الترتيب هو نفسه».

«وإذا كنت لا أحب لحم الحمل؟».

«تحصلين عليه مع ذلك. لا أستطيع إعطاءك خنزيراً أو عجلاً، لكن الحمل ممتاز»، وحدّق بها مضيفاً، «زوارتبلز».

«عفوك؟».

«إنها خراف 'زوارتبلز' من السلالة 'الفريزية'، من بلادك».

نظرت إلى كعكتها وعرفت أنها لن تأكلها، وفكّرت في ألّا تقابل هذا الرجل مرةً أخرى أبداً في التاسعة صباحاً. «هل تربطك بالسيدة إيفانز صلة قربى؟».

«لا... لماذا لم تبع السيدة إيفانز المنزل؟».

«ليس لديها أحد. وقد طلبت من أحد الوكلاء العقاريين، وهو صديق لي، أن يعرضه للإيجار».

realpagex0044x

«لتتأكد من أن تتمكن من مواصلة رعي خرافك هنا؟».

«من بين أمور أخرى»، ورشف بصوتٍ عالٍ ما تبقى من قهوة في كوبه. «إنهم يبحثون في غضون ذلك عمّن تبقّى من عائلتها، وقد يستغرق الأمر وقتاً».

سألته: «أترغب في كوبٍ آخر؟».

«رائع»، استرخى بعض الشيء في كرسيه وبسط ساقيه من تحت الطاولة. «أنا من قام بترتيبات دفنها».

«هل الإوزات لك أيضاً؟».

كلّا. كانت تخصّ السيدة إيفانز».

«إذاً هي لي الآن؟».

«نعم، بصورة أو بأخرى».

كان عليها أن تقف لتناول كوبه وأخذه إلى المجلى. حدّق فيها كما لو أنه يعلم مدى صعوبة وضعها. «بصورة أو بأخرى»، قال.

«ما معنى ذلك؟».

«إنها إوزات مستأجرة. لا تخصك. وأظن أن من غير المسموح لك استخدام فرنك في عيد الميلاد لشيّ إوزة مستأجرة».

نهضت وهي تبادله التحديق حتى لا يتعرّض لإغراء النظر إلى أسفل، وقد نجحت في ذلك فلم يسترق النظر إلى وركيها إلى أن ناولها كوبه. وضعت قدر الحليب من جديد على الصفيحة الساخنة وعاودت التحديق في الخارج حيث أخذ العشب يبدو الآن أكثر جفافاً. تمنّت لو أنها كانت هناك: تحفر بالمجرفة وتشدّ الحبل على طول الممر، وتعمل على جدارٍ مجازي. لاحظت أن النبتات المزهرة الثلاث على حافة النافذة تحتاج إلى الريّ. شعرت، وهي تحرّك الحليب، بتعب مريع وبخدر في ذراعها. غير أن خدر ذراعها لم يكن يقارب ولو من بعيد ما تشعر به من سوء جرّاء التحدث إلى رجل جاء على ما يبدو لتأكيد سلطته على الأرض وعلى هذا المنزل.

realpagex0045x

«بالمناسبة، لم أحصِ منها إلا ستّ».

«ماذا؟».

«ست إوزات».

«وهل تحصين إوزاتي؟».

«طبعاً».

وقالت في ذهنها: *"Goddomme "* (اللعنة).

«اعتنت السيدة إيفانز بها خير عناية وكانت تطعمها الخبز».

عاودت ملء الكوب بالقهوة والحليب وهي تحسب الوقت الذي سيستغرقه لشربه. لم تعد تهتم بما قد يظنّه عنها، بل عمدت، بعدما أعطته الكوب، إلى رفع قميصها القطني بعض الشيء لتجلس. شرع على الفور في الشرب وهو يمرّر بيده الحرة المفتاح جيئةً وذهاباً على غلاف الخريطة. دفعت بكعكتها بعيداً ولم تتفوّه بأي كلمة أخرى.

«إنه وضع مؤقت. المنزل مشغول. أنت سعيدة وأنا سعيد والوكيل سعيد. لكنّ الوضع قد يتغيّر في أي وقت». انحنى إلى الأمام وسحب صحنها صوبه. «هل تسمحين؟».

لم تجب، لكنه تناول مع ذلك حصّتها من الكعكة. أصابها ظفره المكسور بالاشمئزاز وهو يحوم من حول فمه الآخذ في المضغ. راقبته بصمت وهو يتجرّع القهوة، ثم وقفت. لم تعرف ماذا تقول. ربما يستوعب بنفسه أنه قد أمضى ما يكفي من الوقت جالساً في المطبخ.

أومأت صوب غرفة الجلوس وباب المدخل.

قال: «آخ، سأمضي في طريقي من جديد»، ووقف وسار ببطء إلى غرفة الجلوس. «مهلاً»، قال، «لديك كل الأثاث، أحب ذلك».

«لماذا ليس هناك سرير؟».

«لقد أخذتُه».

«والساعة؟».

«لم تعد تقوى على تسلّق السلّم الصغير. لذا كنتُ أقوم باستبدال البطارية بين الحين والآخر».

سُرّت لرؤيته يعبر الغرفة بجوربيه. فمن الصعب أخذ رجل في جوربين، ولا سيّما بجوربين فيهما ثقوب، على محمل الجد.

استدار عند باب المدخل ونظر إليها من أعلى إلى أسفل، وسألها: «هل أنت مصابة؟».

«عضّتني غرير».

«مستحيل».

«عضّتني مع ذلك».

«الغرائر حيوانات خجولة». خجولة. وقال بعد أن اجتاز العتبة: «سأعود إذاً»، ثم سحب الباب وأغلقه وراءه.

قالت في سرّها: لا يريدني أن أنظر إليه وهو ينحني لانتعال جزمته، وابتسمتْ. «الوداع» نادت عبر الباب عندما رأته يأخذ في الانحناء. جرّت نفسها إلى الطابق العلوي وتمدّدت على الأريكة في المكتب وأغمضت عينيها. انطلق ريس جونز بسرعة بسيارته الخضراء. لعلها شاحنة صغيرة مع فسحة في الخلف لبضعة خراف، أو لحزم من التبن، أو لسرير مزدوج. لم تشعر بأي ميل للنظر من النافذة. بدأت، بعد ذلك بساعتين، نهارها من جديد؛ بصورة صحيحة هذه المرة.

realpagex0047x

20

كانت الشمس مشرقة، وكان العشب قد جفّ كلّياً، وكاد يغيب أي أثر للهواء. قطعت قضبان الخيزران لتصبح بحجم الوتد وغرزتها في الأرض على مقربة من قطع الحطب، وربطت بين الأوتاد بأسلاك. اصطفّت البقرات ذات اللون البني الفاتح وأخذت تراقبها من فوق الحائط الحجري. كان الحقل العشبي أعلى بأكثر من نصف متر من الحقل الذي توزّعت فيه البقرات وهي تخور؛ وكان الجدار من جانبها أكثر ارتفاعاً. استخدمت، من دون كثير من التركيز، المعول الصدئ لاجتثاث الأعشاب على امتداد سلك السياج، ثم انكبّت على إزالة العشب عن جانب الممر. أخذت ترمي بالعشب في عربة اليد وتدفعها على امتداد الجدول إلى خلف المنزل إلى أن شكّلت، في النهاية، كومةً بين شجيرتين. جلست بعد ذلك أعلى تلّة الإردواز، وراحت تنظر من حولها وهي تلهث. ما الذي يمكنها استخدامه لتسوية الممر؟ رأتها الإوزات تجلس هناك فأخذت تتجوّل قرب سياج الشريط الشائك وهي تهذر بصخب. رمتها بقطع من الألواح الصخرية لكن بدا أنها لا تبالي. لم يعد في ذراعها ما يكفي من القوة لبلوغ تلك المسافة.

عثرت في زريبة الخنازير على دعامتين خشبيتين لا تكادان تكفيان الممر كله. نزلت مرة أخرى الدرج البيتوني إلى القبو وجلست على الدرجة السفلى. كان بلاط الأرضية أخضر شاحباً. لماذا يبدو المكان هنا نظيفاً إلى هذا الحد وكأنّه كُنّس حديثاً؟ بدا كما لو أن الغرفة كانت تُستخدم لشيء رطب. تشمّمت؛ لكنها لم تجد في الرائحة ما يعطيها أي دليل.

فكّرت في حوض السباحة المقفل في الخريف، في الأكشاك البيض لتبديل الثياب قرب الحوض، في الشطائر التي تناولتها في طريق عودتها إلى المنزل، في الشجيرات العارية تحت وشاح من الضباب في حديقة «ريكسموزيوم»، في هدير realpagex0048xحركة السير عند جانب القناة. فكّرت في والديها في شقتهما في الطابق العلوي، وتراءت لها والدتها وهي تحضّر لها شطيرةً تأخذها معها إلى حوض السباحة وتسلق البطاطا، وقد رطّب البخار نافذة المطبخ الضيق، ومصباح الفلورسنت يلقي بضوئه على كل شيء. إنهما لا يزالان يقيمان في المكان الذي بات مزوّداً بالتدفئة المركزية وبأرضيات خشبية ملساء وبمطبخ جديد وبتلفاز حجمه كبير جدّاً على غرفة الجلوس الصغيرة، وبرسالة من ابنتهما. كانت تواصل الاتصال وتقفل الخط إلى أن أخذ يردّ عليها المجيب الآلي، وعليه صوت أبيها الذي اكتفى بإعطاء كنيته. «أعلمُكم وحسب أنني غائب. لا داعي للقلق. حقّاً». وجدتْ، وهي تفكّر في ذلك الآن، أنها لم تكن سعيدة بعبارة «حقّاً» تلك. لم يكن لها ضرورة على الإطلاق. فالحنين إلى الديار أمر يمكن للمرء أن يستمتع به، لكن ليس دائماً، فهو أحياناً يضعفك جدّاً إلى حد تبدو معه خمسة أدراج من البيتون كأنها خمسون.

أغصان شجرة جار الماء [4]. كانت الشجرات الثلاث بجانب الجدول من نوع جار الماء. عرفتْ ذلك من الأكواز الصغيرة المستديرة. كان قد مرّ زمنٌ طويل لم تُشحَّل فيه الأشجار. كانت تعرف معنى كلمة «تشحيل» بالرغم من أنها لم يسبق لها قط أن استخدمت منشار تقليم لقطع أي نوع من الأخشاب على الإطلاق. هل يمكن أساساً اعتبار جذوع اللبلاب الغليظة خشباً؟ تمدّدت على الأريكة نحو ساعتين ثمّ نقلت أحد كراسي المطبخ إلى الخارج، وهو الكرسي الذي جلس عليه ريس جونز، ووضعته إلى جانب إحدى الأشجار وصعدت عليه بقبقابها الموحل. قالت في نفسها: من المعيب أنّني لم أفعل هذا في الصباح الباكر. كان ذلك ليؤدي إلى اتساخ عجزه علاوةً على الثقوب الموجودة في جوربيه. فعل المنشار فعله عندما سحبته - شعرت بذلك - وليس عندما دفعته. لاحظت أيضاً أنّ عليها أن تعنى بالتفكير في مكان وقوفها لضمان عدم وقوع غصن على رأسها. شعرت، بعدما نشرت خمسة أغصان، أنها قامت بعمل يكفي وأكثر لنهار واحد وقرّرت التوقف. قطعت الأفانين realpagex0049xوالرؤوس الرفيعة بمقص الشجر الجديد وجرّت الأغصان إلى حافة العشب. عندما اجتثت العشب كانت قد أحدثت ثلماً على جانب الممر، فأخذت تمدّد الأغصان، الواحد تلو الآخر، في ذلك الثلم. ثم جلست على الدرجة. بدا الأمر متقناً، فقد كان سمك الأغصان كافياً لتشكيل حدّ حقيقي. لم تنتبه إلا الآن إلى أن الحقل العشبي عبارة عن مرجة خضراء جزّها أحدهم منذ وقت قريب نسبياً. اكتشفت لدى وقوفها أن الأبقار كانت قد غادرت، وأنها باتت بعيدة جداً. لم تكن قد لاحظت على الإطلاق أنها قد سارت مبتعدة. هي طريقةٌ جميلة لقياس الوقت الذي يمضي: الشمس التي قفزت فجأةً إلى الأمام وقد باتت منخفضة إلى حدّ كبير، وقطيع البقر الذي انتقل بهدوء وطمأنينة إلى مكان جديد. كانت ترى ذلك للمرة الأولى وأمعنت التفكير في نظريتها.

21

إيميلي ديكنسون. كتبت ديكنسون، بالرغم من شهرتها («لعلها الشاعرة الأكثر شعبيةً بين الشعراء الأميركيين وأعظمهم بالتأكيد»، حسب ما ورد على الغلاف الأخير لسيرة حياتها التي وضعها هابغر)، عدداً ضخماً من الرباعيات المقفّاة الكسولة، الركيكة إلى حدّ ما برأيها. أخذت تتصفّح «المجموعة الشعرية» وأظافرها محشوّة بالتراب. كان الليل قد حلّ، وكان الظلام حالكاً في الخارج باستثناء الضوء الغريب في البعيد. شربت كأساً من النبيذ وأشعلت سيجارة. كانت تقبع على المجلى في الطابق السفلي مقلاة لا تزال تحتوي على مقدار لا بأس به من الطعام، وكانت النار مشتعلة. خطر لها أنها لم تتعرّض قط للسعة نحلة، والنحل موجود في كل مكان: في النسيم اللطيف أو في البرسيم. فكّرت في مكتبها في الجامعة: الحاسوب البارد الذي يحتوي على كل ملاحظاتها حول ديكنسون والتصميم الأولي جداً لأطروحتها التي افتُرض بها أن تتناول وفرة القصائد الأقلّ شأناً، والتلهّف الشديد على تطويب realpagex0050xديكنسون؛ أوعية النباتات؛ خزانات الملفّات المعدنية؛ والثلج خارج النافذة المطلة على شارع طويل وضيّق. سيرة الحياة التي لا تُهضم والتي وضعها هابغر - كتاب ضخم ممتلئ بعلامات الاستفهام وبنظريات فارغة (شامل جداً إلى حد أنّه

يستشهد بنوبة سعال أصيب بها العمّ الأكبر لديكنسون في ربيع ١٨٣٧ بوصفها سبباً ممكناً لبعض الحساسية في شِعرها) - أدت إلى تأخير عملها أشهراً.

جعّدت قصاصة الورق التي كتبت عليها «ستائر» (كانت نافذة غرفة النوم الصغيرة لا تزال مكشوفة) والتقطت قلم رصاص. تخيّلت نفسها في الخارج في ضوء النهار وظهرها إلى باب المدخل، ورسمت العشب والجدول الذي يتعرّج بلطف، والحائط الحجري الخفيض الذي يشكّل زاوية قائمة حول العشب، وزريبة الخنازير المقابلة تماماً للمنزل، والممر المستقيم الجديد على امتداد الجدار الأمامي، وأشجار جار الماء الثلاث والشجيرات الثلاث. مؤسف أنه لم يكن بحوزتها أي أقلام تلوين. سيصبح هناك ممر جديد: من باب المدخل مباشرةً عبر العشب وانتهاءً بالحائط. ستكون هناك أحواض للأزهار. حاولت رسم قنطرة من الورد فتبين أن ذلك أصعب بكثير مما تخيلت، وقد تخرّبت الرسمة ولم تكن تمتلك ممحاة. جعّدت أيضاً قصاصة الورق هذه. أقحمت عوضاً عن ذلك سيجارة جديدة في فمها، والتقطت «المجموعة الشعرية» وفتحتها على صفحة المحتويات. لقد اقتنت هذا الكتاب منذ أكثر من عقد - وهو يحتوي على ملاحظات وقد تلطّخت صفحاته وتمزق قميص الغلاف - وقد لاحظت الآن للمرة الأولى مدى إيجاز القسم المعنون «حب» وكم أن القسم الأخير المعنون «زمن وأبدية» طويل. شرعت في البكاء.

22

كان الزوج جالساً في غرفة المعيشة الضيّقة جدّاً على التلفاز الجديد، وكانت والدة زوجته جالسة بجواره على الأريكة، ووالدها على كرسي بقرب التلفاز. كان مطر realpagex0051xتشرين الثاني العاصف يطرق على النوافذ، وكان أحد مصابيح الشارع يتأرجح جيئةً وذهاباً. كان التلفاز مشغّلاً. كان مشغّلاً في المرة الأولى التي جاء فيها الزوج إلى هنا، وقد مرت على ذلك أعوام كثيرة، وكان مشغّلاً في كل مناسبة أخرى جاء فيها ليلاً. بل وغالباً ما كان يُشغّل خلال النهار، وبخاصة في نهايات الأسبوع. أخفضا الصوت لدى وصوله خمس درجات غير أنه كان لا يزال مزعجاً ويبثّ غناءً وتحكيماً يتخلّلهما زعيق الإعلانات.

قالت الوالدة: «يكاد كانون الأول يحلّ».

«نعم»، قال الزوج.

«لقد بدأ الأمر يغضبني بالفعل».

سألها: «وماذا يسعنا حيال ذلك؟».

«الخطأ كله خطؤك».

«خطئي؟».

رمقته الوالدة بنظرة مفادها أن الأمر لا يحتاج إلى مزيد من الشرح وأن عليه أن يدرك تمام الإدراك أنّه المُلام.

«نعم»، قال الوالد وهو لا يكاد ينظر إليه. ولم يكن قد نبس بعد ببنت شفة.

«نعم، ماذا؟» سألت الوالدة.

«نعم وحسب»، أجاب الوالد.

تنهّدتْ. «كيف يمكننا البدء بموسم الأعياد على هذا الشكل؟ القديس نقولا، عيد الميلاد». لوحت بإشارة ضعيفة صوب حافة النافذة حيث كانت ثلاث شموع تشتعل على شمعدان مثلّث الشكل، بشعلاتٍ ساكنة تتيح سكونها النوافذ المعزولة جيّداً.

«لا تسأليني»، قال الزوج.

realpagex0052x«باه!» قال الوالد.

«ماذا؟» سألت الوالدة.

«إنه لا يحسن الغناء على الإطلاق!».

«هل سبق لها أن فعلت ذلك؟» سأل الزوج. «أعني قبلي».

«أبداً! لم يسبق لها أن اختفت. حتى إنها لم تكن تحب حفلات المنامة، ولم تبت الليل قط عند صديقاتها».

قال الوالد: «فعلت ذلك في منزل شقيقي».

«نعم. لم تكن تشبع من منزل عمها. حتى إنها لم تأتِ على ذكر عمّتها قط. ذانك الاثنان كانا متقاربين جداً».

«علّمها التدخين»، قال الوالد.

«باه. ذلك صحيح. وكان دائماً يعبّئ رأسها بالأفكار. اعتاد إخبارها بأمور عجيبة. كانت كلّ مرّة تعود فيها إلى المنزل يستغرقنا الأمر دوماً دهوراً لإعادتها إلى طبيعتها».

«أي نوع من الأمور؟».

«أنّ عليها أن تتمكن من القيام بالأشياء بنفسها؛ وأنّ المرء، إذا تعمّقنا في الأمر، وحيد دائماً؛ وأنّ الإنسان يجب ألا يسمح للآخرين أبداً أن يملوا عليه ما يفعل».

«هذا ليس سيئاً جداً، أليس كذلك؟».

«كلّا، لكنها أخذت الأمر على محمل الجد، وغادرت فجأة. أصيبت عمّتها بالذهول، لكن عمّها ضحك ضحكةً مكبوتة. وبعد رجوعها إلى البيت توقّفت كلّياً عن الاستماع إلينا».

«اعتادت أن تختفي إذاً».

«كلّا، لساعة أو ما شابه، ولكن ليس لفترة طويلة. لساعتين كحدّ أقصى. ولمّا عرفنا بأمر التدخين، طفح بنا الكيل ولم نعد نسمح لها بالمبيت هناك».

realpagex0053x

قال الوالد: «شقيقي ليس... كلّياً على ما يرام».

«هذه هي إحدى طرق وصفه»، قالت الوالدة. «لكن يمكنك القول إنه مصاب بجنون مطبق».

«رويدك..».

قالت وهي تشير إلى زوجها: «لطالما خفت أن يسلك هو أيضاً هذا الطريق. لحسن حظه أنه متزوّج من امرأة عاقلة جداً، امرأة قوية جداً».

«أتشرب شيئاً؟» سأله الوالد.

ردّ الزوج: «نعم، من فضلك».

«طبعاً، الجأ إلى الزجاجة، فذلك يحلّ الأمور».

سألها الوالد: «أتريدين أنت أيضاً؟».

«كلا، قطعاً لا! وهل سبق لي أن شربت قطرة واحدة من الكحول؟».

«لم يَفُت الوقت كي تبدئي». نهض الوالد وصبّ كأسين من شراب «جينيفر» المعتّق [5]: امتلأت كأسه حتى الجمام بحيث اضطر أن ينحني ويرتشف منها قبل أن يتمكن من رفعها. وضع الكأس الأخرى أمام الزوج قبل أن يحوّل انتباهه على الفور إلى التلفاز.

«نعم»، قالت الوالدة وهي تتنهّد. «إنه يسير في ذلك الاتجاه أيضاً...».

«آخ، يا امرأة».

شرعتْ تبكي بهدوء.

ارتشف الزوج شرابه، وتساءل إن كانت حماته على حق، وما إذا كان الخطأ خطأه. غطّت زخة من المطر لبرهة وجيزة على غناء الفتاة السمينة ذات الشعر الشائك والتي كانت تقف جامدةً في غرفة واسعة. كان صوتها رائعاً وصافياً وبدت كأنّها realpagex0054xتنسى كل ما حولها حين تغنّي. كانت عيناها تبرقان، ويداها متدليتين على جنبيها، وكانت مسترخية تماماً، وقد أضحت جميلة. لكنّهم قالوا لها بُعيد ذلك إنها تفتقر إلى «الكاريزما المطلوبة». فليتقدّم التالي، رجاء.

«أنذال»، قال الوالد.

بدأت الوالدة من جديد خلال الوقفة الإعلانية. «هل سيلقون بك في السجن الآن؟»

«كلا»، قال الزوج. كانت أمامه كأس ثانية من الشراب.

«ولمَ لا؟».

«لأنني سأعوّض كلّ الضرر».

«إذاً، يمكن للمرء هذه الأيام أن يفتعل حريقاً كلّما شاء من دون أن يُرسل إلى السجن؟».

«أعتقد أن ذلك يتوقّف على الوضع»، قال الزوج. «فأنا لم أغادر المكان، وكنت متعاوناً. أعتقد أن الأمر متعلّق بذلك».

«هل حصلت على المال؟».

«بالتأكيد».

«ومع ذلك الخطأ خطؤك».

«لماذا تقولين ذلك؟ أتعتقدين فعلاً أن الأمر على هذا القدر من البساطة؟»

«نعم».

«تعرفين ما الذي فعلَتْه».

«نعم».

«فكيف يكون خطئي إذن؟».

«كيف نعرف أنها الحقيقة؟ فنحن لم نعرف بالأمر إلا منك. من يقول إنك لا تكذب؟».

realpagex0055x

«ولماذا قد أكذب؟».

«بسبب كلّ ما لديك لتخفيه».

«ليس لدي ما أخفيه».

«كلاّ»، قال الوالد وهو يحدّق في شاشة التلفاز.

«لا تتدخّل»، قالت الوالدة. «إلى أين قد تكون ذهبت تلك الطفلة المسكينة؟».

قال الزوج: «العم، شقيقك ذاك، هل ما زال حيّاً؟».

«وبكامل حيويته!» قال الوالد. «لم يبلغ السبعين بعد».

«أين يقيم؟».

سألته الوالدة: «أتعتقد أنّها عنده؟».

«إنها ليست هناك»، قال الوالد.

«لقد سبق واتصل به هاتفياً، وهي ليست عنده. إلا إذا كان يكذب. هذا أيضاً ممكن جدّاً بالطبع، فهو مجنون خالص».

كان هناك المزيد من الغناء والتحكيم على التلفاز. رفع الوالد الصوت بعض الشيء عقب ملاحظة زوجته الأخيرة. جلس على مقربة شديدة من الشاشة، بحيث كان من الصعب تصديق أنه يستطيع رؤية أي شيء مع أنفه المدسوس في الشاشة بهذا الشكل. أو لعلها كانت طريقته في جعل نفسه غير مرئي بحيث يتمكّن من التعليق على الهامش بين الحين والآخر؟

«المال»، قال الوالد.

«ماذا؟».

«ألا تتلقى كشوفات حساب من البنك تظهر ما تم سحبه، أين ومتى؟ فهي تحتاج إلى المال، أليس كذلك؟».

«أنا أحصل على الكشوفات»، قال الزوج. «لكنها لا تفعل. فهي تقوم بكل شيء عبر الإنترنت، وليس لي وصول إلى حسابها. لدينا حسابان منفصلان».

«إذا سألتني فسأقول إن لديك الكثير لتخفيه»، قالت الوالدة. «فقد تبيّن في النهاية أنك مفتعل حرائق».

تنهّد الزوج.

«والذنب يقع عليك أيضاً في عدم إنجابكما أطفالاً. أنا متأكّدة من ذلك».

«أمتأكّدة أنت؟».

«نعم».

«ألم تخبركِ عن الفحوصات؟».

«أيّ فحوصات؟».

«تلك التي أجريتُها».

«لا أعرف شيئاً عن ذلك».

«ذلك واضح».

«أريد كأساً من النبيذ».

«ماذا؟» قال الوالد.

«قلت أريد كأساً من النبيذ الأبيض».

«اخدمي نفسك بنفسك».

«أنت تخدم صهرك وتريدني أن أخدم نفسي؟».

«نعم»، قال الوالد. «أنا أشاهد التلفاز، وأنت لا تشربين أبداً».

نهضت الوالدة وتوجّهت إلى المطبخ. تفكّر الزوج في الضراوة التي أرفقتها بعبارة «صهرك» وانتظر أن يستدير حموه ليقول له شيئاً، من رجل لرجل. ارتعش الضوء عبر غرفة الجلوس.

قال الوالد: «لماذا يجعل جميع هؤلاء الناس من أنفسهم أضحوكة؟».

هزّ الزوج كتفيه.

realpagex0057x

«لا أستطيع فهم ذلك».

«ألا تريد الظهور على التلفاز؟».

«كلّا».

«هم يريدون ذلك، مهما يكن».

«كان من عادتها في الأيّام الغابرة النظر من النافذة عشية عيد القديس نقولا. إنها من نوع الأولاد الذين يجلسون ووجوههم قريبة من الزجاج ويحدّقون في الشوارع الرطبة».

«وماذا عن الهدايا؟» سأل الزوج.

«نعم، كانت تهتمّ بها أيضاً بالطبع، لكن يبقى..». ونظر الوالد إلى الشاشة ثم قال بهدوء: «ما يزعجني هو أنها قالت 'حقّاً'. ليس هناك 'حقّاً' ما يدعو إلى القلق».

عادت الوالدة وهي تمسك بكأس ممتلئ ربعها بالنبيذ، جلست وتجهّمت بعدما ارتشفت جرعة كاملة. «إذاً أنت لا تشكو من شيء؟».

«لا خطب فيّ على الإطلاق».

«ومتى حصل ذلك؟».

«في الخريف الماضي».

«هل خضعت هي أيضا للاختبار؟».

«لا».

«ولمَ لا؟».

«لأنها لم تعتقد أنه ضروري؟».

«أتسألُني؟».

«لا، كنت أقول ذلك وحسب».

realpagex0058x

«لو كنتُ مكانها لأخضعتُ نفسي للاختبار أيضاً».

أخذ ثلاثتهم يشربون ويحدّقون إلى التلفاز. قفز شاب، يرتدي سروالاً قصيراً وجوربين صوفيين والقسم الأعلى من جسمه عارٍ وممتلئ بالأوشام، في أنحاء الأستديو وهو يصرخ بما خطر له، إلا أنهم لم يتمكنوا من متابعته. ربما جاء من شرق البلاد. لم يشأ الزوج التفكير في الطالب. أراد الحفاظ على هدوئه.

قالت الوالدة: «بات الوقت متأخراً جدّاً».

«آه».

«كم عمرك؟».

«ثلاثة وأربعون».

«هل كانت الأمور على ما يرام بينكما؟».

فكّر الزوج لبرهة. «كلاّ». ثم عاود القول بعد قليل: «لا».

قال الوالد: «إنه معتوه خالص».

سألت الوالدة: «ما الأمر؟ ما الذي حدث؟».

«آه».

«والآن؟».

«أنتظرُ بعض الشيء؟».

«وبعدها؟».

«ربما أقصد الشرطة؟ سأسأل الشرطي الذي استجوبني عما يمكننا أن نفعل غير ذلك».

«هل لا تزال تراه إذاً؟».

«ذهبنا، بعدما أخذ إفادتي، وتناولنا الجعة معاً».

«لماذا؟».

realpagex0059x

«ما من سبب. إنه فتى لطيف».

«حتى ولو اقتضى الأمر أن يزج بك في السجن».

«لم يكن ذلك ضرورياً».

قال الوالد: «رجال الشرطة مواطنون عاديون أيضاً».

سألته الوالدة: «ما الذي تعرفه في هذا الشأن؟».

«آه، يا امرأة».

لم يتمكن الزوج إلا أن يلحظ كم بدا ذلك ودّياً.

تناولت الوالدة جرعتها الأخيرة من النبيذ ثم قالت: «ما زلت أفضّل تناول فنجان من الشاي اللذيذ».

23

لم يعد لديها خبز. كانت قد كرهت الكعكة ورمتها في صندوق القمامة. قررت عدم ركوب السيارة للذهاب إلى وانفاور. أرادت أن ترى إذا كان في مقدورها سلوك واحد من تلك الخطوط المتقطعة الخضراء وتحويل رموز الخريطة ذات البعدين إلى دروب حقيقية وتلال ومنازل وحقول. انتعلت حذاء المشي، والتقطت حقيبة الظهر، وأقفلت باب المدخل. شعرت بالإحباط وهي تعبر الممر أمام المنزل، فالوتر الذي شدّته لا يزال في مكانه وكذلك أوتاد الخيزران. عليها نقل الكثير من الإردواز. دارت حول زاوية المنزل وسارت على الدرب متجاوزة حقل الإوز. كانت خمس منها تقف عند البوابة، فتصرفت كما لو أنها لم ترها بوجوهها الفضولية، ونقنقتها الهادئة، وسيرها المتثاقل المتوقّع. خمس.

realpagex0060xسارت والخريطة في يدها عبر البوّابة المزيّتة. أنبأها الخط المنقّط الأخضر ألا تسلك درب بيتها، غير أن العشب الطويل كان يخفي آثار كل الدروب. حدّبتْ كتفيها وعبرت الحقل كيفما اتفق وبلغت سياجاً ذا سلّم فتسلقّته وأرادت الاستدارة يساراً. كان هذا منزل الجار؛ وسيكون عليها كما يبدو أن تمر من أمامه مباشرة. بدا وكأنّ هناك باباً مفتوحاً. تردّدت ودرست الخريطة بعناية قبل أن تستدير عائدةً كما لو أنها مجرّد رحّالة سلك منعطفاً خاطئاً. تسلّقت السلّم بسرعة وعاودت النزول من الجانب الآخر وعبرت حقل الأعشاب الطويلة وتبعت الدرب إلى الطريق الضيّقة. عادت وعثرت على الخط الأخضر المنقّط على بعد نحو مئة متر وقد أشير إليه في الواقع باللافتة التي تحمل «رمز الرحّالة». بعد مسيرة بدا أنها لن تنتهي وصلت إلى المخبز لتجد أن الساعة صارت الواحدة إلّا ربعاً.

«جئتِ سيراً؟» سأل الخبّاز.

«نعم»، أجابت منقطعة نفسها.

«ليست بالمسافة البعيدة على الإطلاق، أليس كذلك؟».

«لا. لم يستغرق وصولي إلى هنا وقتاً طويلاً».

«نحن نقفل في الواحدة، هذا لتعرفي من أجل المرّة المقبلة. أوين!».

ظهرت زوجة الخبّاز من الخلف. قالت: «آه، مرحى حبيبتي. كيف وجدتِ الكعكة؟».

«جيّدة. وقد تلذّذ بها ريس جونز أيضاً».

«ريس جونز»، قال الخبّاز.

«إنه يحبّ كعكنا»، قالت أوين. «هل ستستقرين هنا بشكل دائم يا حبيبتي؟».

«وأين يقيم في الواقع؟».

«على مقربة من الجبل. في ذلك الاتجاه» وأشار الخبّاز صوب الجدار. «كما أنه ينقل الخراف في أواخر تشرين الأول إلى مزرعة إيفانز القديمة».

realpagex0061x

«هل يأتيكم عدد كافٍ من الزبائن؟» كانت قد أخذت تشعر بالحر فانتقلت خطوة إلى أحد الجوانب بحجة البحث عن شيء ما في الإطار الزجاجي تحت المنضدة.

«لقد توفيت زوجته»، تابعت أوين. «الأمر مأساوي جدّاً، ولو كانت لا تزال على قيد الحياة لما سمحت له قط بتناول هذا القدر من الكعك».

«إننا نتدبّر أمرنا» ورمق الخبّاز زوجته بنظرة جانبية. «مادام الناس لا يشترون خبزهم من تيسكو..».

سألت أوين: «هل ذاك المنزل دافئ بما يكفي؟».

قالت: «لا بأس».

«أوليس منفرداً ومنعزلاً جدّاً بالنسبة إليك؟».

«لا، ذلك ليس بمشكلة. هناك الإوزات، وهناك الآن الكثير من الخراف».

«هل أنت وحدكِ؟ أما من زوج؟».

قال الخبّاز بصوت مرتفع كما لو أنّه يحاول أن يطغى على صوت زوجته: «بقيت السيدة إيفانز تأتي إلينا لشراء خبزها حتى آخر رمق في حياتها».

قالت أوين: «يجب أن تقتني كلباً».

سألها الخبّاز: «ما الذي تودّينه؟».

أرادت أن تسأل عن سبب وفاة السيدة إيفانز ومتى حدث ذلك، غير أن الزوجين في الجانب الآخر من المنضدة كانا يحدّقان فيها بترقّب وفضول شديدين فاكتفت بطلب رغيفين من الخبز ورزمتي بسكويت.

«أراكما لاحقاً»، قالت وهي تضع مشترياتها في حقيبة ظهرها.

«عندما ينفد منك الخبز»، قال الخبّاز. «وقريباً ستتوفر لدينا حلوى البودينغ لعيد الميلاد».

realpagex0062x

«كلب»، صاحت زوجة الخبّاز. «إنه صديق حقيقي».

ردّت باب المتجر من ورائها وتأمّلت السماء. كانت رمادية. رمادية وكئيبة، لكنها لم تكن تمطر. نظرت صوب جبل سنودن وتذكّرت أن عليها أن تبقي الجبل إلى يسارها. ألقت نظرة إلى الوراء وهي تعبر الرصيف فرأت الخبّاز الذي لا اسم له وزوجته أوين واقفين هناك من دون حراك، يراقبانها. لم يلوّحا لها، بل كانا يراقبانها.

الطريق التي سلكتها للعودة لم تكن الطريق نفسها بالضبط؛ فكلّ مكان تقريباً كانت قد أخطأت في سلوكه وهي متوجّهة إلى هناك سلكته بشكل صحيح في طريق العودة. تقريباً. لأنها ارتكبت بعد كلّ ذلك خطأ آخر في مكان ما واستغرقها الأمر وقتاً طويلاً لتدرك أنها انعطفت إلى خطّ منقّط آخر. كان من الصعب تمييز أي شيء: السياجات الشائكة، أشجار السنديان المكتنزة، المراعي، أحواض الشرب المعدنية، زقزقة العصافير المجنونة. وجدت ذلك غريباً: إنها أواخر تشرين الثاني، فلماذا كانت الطيور تتصرّف وكأنه الربيع؟ بلغت، من دون أن تخطّط لذلك، تقاطعاً عموديّاً هو نفسه الذي شاهدت منه الجبل أول مرة فعرفت أين هي على الفور؛ حتى إنها لم تعد بحاجة إلى الخريطة بعد الآن. جلست وظهرها إلى بوابة خشبية، سحبت رزمة البسكويت من حقيبة ظهرها وأكلت نصف محتواها مانحةً نفسها المزيد من الوقت لدراسة الجبل. كان الجبل، بالرغم من الطقس الكالح، مغطى بألوان مختلفة: البني، المتورّد، الأخضر، بل وبطيف من الأرجواني. قالت لنفسها: لا يبدو الأمر صعباً.

عندما تابعت دربها بدا كما لو أن الغسق قد حلّ بالفعل. اضطرّت إلى الانحناء والتمسك بشجرة، وعندما انتصبت شعرت بألم شديد؛ أحسّت، وهي منكمشة، بأن الألم الموضعي الحاد أخذ ينتشر بعض الشيء ويصبح أكثر احتمالاً. لم تستطع تحديد مصدره، فقد كان ينخزها ويضايقها حتى

في ذراعيها وساقيها. فركت بطنها وزنديها، وضغطت بيدها على جبهتها، وفكّرت في عمّها. عندما همّت بُعَيْد ذلك بمتابعة السير رأت أمامها إيميلي ديكنسون تمشي في حديقتها الخريفية، وفي ذهنها مطلع قصيدة realpagex0063xيقول: توقفت دندنة النحل، وتحاول التفكير في كيفية إكمال القصيدة.

كلا، فإيميلي خاصتنا لم تتعرض قط للسعة نحلة.

24

أخذت وقتها في الصباح التالي على الفطور. فهي لم تكن تأكل جيّداً، وتهمل بانتظام وجبتها المسائية، لكنها دأبت على شرب الكثير من الماء. أشارت الساعة إلى التاسعة والنصف. كان بإمكانها سماع تكتكاتها كلّما عمّ الهدوء المنزل. تكتكات صغيرة حادة وحاقدة. لم تُردْها، لم تشأ وجود الوقت في مطبخها. أرادت إيقاف الساعة، لكن فكرة وضع كرسي تحتها كانت كافية لتُشعرها بالاعتلال من الوهن. أرادت إيقاف الساعة، لا للتخلص من الوقت وحسب، بل لتهزم أيضاً صاحب مزرعة الخراف الأحمق ذاك. كانت تفكّر في ريس جونز كثيراً وكان ذلك يصيبها دوماً بالغيظ.

بذلت جهدها لكي تضفي رونقاً على غرفة الجلوس والغرف الأخرى في الطابق العلوي؛ المطبخ بقي على حاله تماماً كما تركته السيدة إيفانز. كانت رائحة امرأة عجوز لا تزال عالقة حول المجلى والخزائن، رائحة أخذت، في الأسابيع التي عاشت فيها هنا، تربطها تدريجياً بنفسها. بدا حتّى أن الغسّالة القديمة الطراز مشبعة بها: فور انتهائها من فوج الغسيل، وقبل أن تنشره في الخارج ليجفّ على المنشر في أعلى الدرج، كان الهواء العفن يفرض نفسه على رائحة مسحوق الغسيل المنعشة. البارحة، في متجر الخبّاز، التقطت بوضوح رائحة المرأة العجوز، ربما لأن السير جعلها تتعرّق، وانحرفت جانباً لتفادي انعكاس صورتها في المرآة الضيقة المعلّقة خلف رفّ الخبز وقد استبدّ بها الخوف من رؤية شخص مختلف فيها.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

حضّرت القهوة، خفقت الحليب، قطعت شريحتين من الخبز ومرحتهما بالزبدة realpagex0064xالمالحة. مرحت إحداهما بمربى التوت ووضعت الجبن على الأخرى ثم جلست وأكرهت نفسها على الأكل والشرب.

تطلّعت إلى الخارج ووجدت أن المعترشة، التي كانت تشبه صورة الظلّ على خلفية السماء الزرقاء الصافية، تزداد شفافية. دسّت خصلة من شعرها وراء أذنها، وتساءلت إذا كان عليها أن تذهب ولو لمرّة إلى مصفف الشعر. غسلت الصحن والكوب ثم صعدت إلى الطابق العلوي. كانت مفكرتها على الطاولة في المكتب، فتحتها ودرست التواريخ ثم بدأت العمل انطلاقاً من تاريخ كانت متأكّدة منه ومزّقت الزاوية المخرمة. كان ذلك يوم الجمعة ٢٧ تشرين الثاني.

ركنت السيارة في مرأب مهجور على مقربة من القصر وسارت إلى المدينة. عثرت على صالون للشعر في الشارع الذي فيه ساعة - ساعة أخرى أيضاً - على قنطرة سور البلدة، ويقع بين عيادة الطبيب والصيدلية؛ لم تلحظه في المرة السابقة. كانت لتستمتع بالأمر لولا أن اليوم كان السابع والعشرين من تشرين الثاني، ولو أن إقامتها هناك كانت عادية. كان ليروق لها التوجه مباشرةً إلى مصففة الشعر في بلدة غريبة والتعامل مع الأمر كما لو أنه أكثر أمور العالم بساطةً وطبيعية، وكما لو أنها تقصد المكان كل شهر للعناية بشعرها. كان انعكاس الشمس الآن على النافذة الكبيرة يبهر عينيها، والخبز يثقل على معدتها كالإسمنت، وشعرت أنها على وشك الاستسلام، كما لو أنها تسلّم نفسها إلى مُعذّب ذي يدين لطيفتين. لم تكن حتى قد دخلت المكان بعد.

كان هناك زبون واحد آخر فقط، الطبيب، وكان جالساً في المكان يدخّن، فيما كانت سيجارة أخرى تحترق ببطء في المنفضة القريبة من المرآة.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

«مرحباً يا حبّي» قالت مصفّفة الشعر. «تفضلي

بالجلوس. سأنتهي على الفور من هذا السيد. أنا على وشك ذلك».

«آه، سيّدة الغرير»، قال الطبيب. بدا وجهه من فوق برنس الحلاقة الأزرق الداكن أشبه بالصوص المفقّس حديثاً. كان الطبيب يتفحّصها عبر المرآة.

سألته مصففة الشعر: «ماذا قلت؟».

realpagex0065x

«سيدة الغرير. فقد عضّها غرير في قدمها».

«لا! مستحيل».

«هذا ما قلته، لكنه حدث».

«كيف؟».

«وهي مستلقية وحافية على صخرة كبيرة».

«حقّاً؟».

«نعم».

توقّفت مصفّفة الشعر عن العمل، ووقفت ويدها التي تمسك بالمشط والأخرى التي تمسك بالمقص معلّقتان في شكل متوازن في الهواء. «لم أرَ قط سوى غرائر نافقة. على حافة الطريق». مدّت يدها إلى المنفضة وأخذت «مَجّة» قوية من سيجارتها بحيث نتأت أوتار عنقها، ولوّحت بيدها الأخرى لإبعاد ما نفثته من دخان.

«وأنا أيضاً. إنها حيوانات غبية تعتقد أنها تمتلك الليل. هذا هو سبب عدم احتراسها».

«أتعتقد أن الأمر على ذلك النحو؟».

«لا أدري. عشت حياتي كلّها هنا ولم أرَ غريراً حيّاً قط. ربّما يجب أن تسألي المرأة الهولندية».

عند هذا الحدّ نظر كلا الطبيب ومصفّفة الشعر إليها في المرآة. كان الصالون الصغير عابقاً بالدخان. لحسن حظها أنها كانت قد انتقت إحدى المجلات الموضوعة على طاولة القهوة بعدما

أذهلها هذا القدر من النقاش الذي يدور في شأنها، وشرعت في تقليب الصفحات عشوائياً. لم يسألها أحد في الواقع شيئاً، ولم تحتج إلى الإجابة. حاولت التركيز على مقالة تتناول كيفية ترتيب اليقطين على الشرفة، فيما كان الطبيب يتحدّث بالتفصيل عن شكاوى مرضاه. كانت لديه طريقة عجيبة في التحدّث إلى مصفّفة الشعر بوصفها مساوية له كما لو أنّهما امرأتان في منتصف العمر تعرف إحداهما الأخرى منذ دهور، صديقتان تناقشان أمور الحياة اليومية. أكملت المصفّفة ثرثرتها مع الطبيب واستمرت في القصّ إلى اللحظة التي رفعت فيها البرنس من على كتفيه وقالت بصوت مرتفع «انتهينا!» نهض الطبيب عن الكرسي وشكرها. لم يبدر عن مصفّفة الشعر أي إشارة تدل على أنّها ستتوجّه صوب صندوق النقود.realpagex0066x

وقف الطبيب قبالتها وأشعل سيجارة، ثم سألها: «هل ستمرّين عليّ من جديد؟».

سألت: «لماذا؟».

«لأفحص الجرح، من بين أمور أخرى».

«لا أعتقد أن ذلك ضروري»، وأبقت عينيها مسمّرتين بعناد على صورة ليقطينة ضخمة خضراء.

«إذا كنت ترتئين ذلك»، قال الطبيب. «إذا كنت ترتئين ذلك»، وغادر.

«تعالي واجلسي هنا»، قالت المصفّفة. «سنبدأ بغسل شعرك جيّداً».

دلّكت المصفّفة الشعر ودعكته. كانت يداها ناعمتين، وحرارة الماء مناسبة تماماً، ورائحة الشامبو لطيفة جدّاً. لم يكن ليزعجها تأجيل القصّ قليلاً.

سألت المصففة: «كيف تودّينه؟ مشذّباً؟.

«أريده قصيراً رجاءً، مريحاً».

«هل قِصّة الغرير صحيحة فعلاً؟».

«نعم»، قالت. «والغرائر تخرج في النهار أيضاً». لم تتفوّها بأي كلمة إضافية خلال عملية غسل الشعر، وعند الانتهاء منها تمكّن أنفها من التقاط رائحة السيدة إيفانز بالرغم من رائحة الشامبو. نظرت إلى نفسها في المرآة، رأت عنقها وقد اختفى الشعر عنه، ووجهها الشاحب، وعينيها الداكنتين، وعرفت أنها ستطلب أمراً لم يسبق لها قط أن طلبته من قبل. «هل يمكنك ربما أن تديريني؟».

«ماذا؟».

realpagex0067x«أن تديريني. أن تديري الكرسي».

«لكن لماذا؟».

«لأنني..». ولم تعرف كيف تشرح لها الأمر.

«لن تتمكّني من رؤية ما أفعله».

«أنا واثقة من أنّك ستتقنين عملك. أحبّ المفاجآت».

«هذه جديدة عليّ»، قالت مصفّفة الشعر وهي تدير الكرسي بقدمها. «لكنني لن أتمكّن هكذا من رؤية ما أفعله بشكلٍ جيّد»، وأخرجت سيجارة من علبة السجائر وأبقت الباب مفتوحاً جزئياً بعدما كانت فتحته كلّه وتلفّتت في الشارع يمنةً ويسرة، ثم وضعت السيجارة المشتعلة في المنفضة وسألت: «أهذه عادة هولندية؟».

«كلا».

«حسناً، ها نحن نبدأ». لم تمضِ ربع ساعة حتّى كان الأمر قد انتهى، ولم يكن قد جاء أي زبائن جدد. استخدمت المصفّفة المجفّف لتنشيف المادة الهلامية التي فركت بها الشعر وشدّته بقوة لتضفي عليه شكله.

أكملت السيجارة احتراقها من دون أن تدخّنها.

نهضت عن الكرسي من دون أن تدير وجهها للمرآة وسارت صوب المنضدة الصغيرة التي عليها صندوق النقود.

«ألا تريدين النظر؟».

«كلا. أريد أن يكون ذلك مفاجأة بالفعل».

حدّقت المصفّفة فيها وفتحت فمها ربما لتسألها إن كانت هذه عادة هولندية أخرى.

«أحبّ المفاجآت»، قالت.

realpagex0068x

شعرت المصفّفة بإهانة شديدة وأطبقت فمها وطبعت المبلغ على صندوق النقود القديم الطراز الذي رنّ بصوت قوي.

دفعت المرأة المال، وودّعتها بمودّة، وخرجت من الصالون تاركةً الباب مشقوقاً بعض الشيء. قطعت مسافةً قصيرة في الشارع ثم استرقت النظر إلى الوراء فرأت مصففة الشعر واقفةً

خارج محلّها وقد كتفت إحدى ذراعيها تحت ثدييها ويدها مدسوسة تحت إبطها والسيجارة باليد الأخرى وهي تحدّق بشكل ثابت في محل العطور في الجهة المقابلة من الطريق، وقد بهت شعرها المصبوغ في الغيمة المتصاعدة ببطء من دخان السيجارة الذي كانت الشمس تنيره. تمالكت مشاعرها وهي تمشي عبر الشوارع الضيّقة ومرأب السيارات مع أن المكان كاد يخلو من الناس. وعندما جلست في السيارة ورأت نفسها في مرآة الرؤية الخلفية وهي تبدو أشبه بحيوان مذعور شرعت في البكاء.

25

تفقّدت مخزون الحطب في زريبة الخنازير، وهي تنظر وتحصي، وقرّرت ألا تشعل الموقد في أكثر من غرفة في آن. حينها سيكفيها الحطب. ويمكنها دوماً، في حال نفاده، الجلوس في المطبخ على مقربة من الفرن.

عاودت الشمس السطوع وارتفع دخان سيجارتها بشكل مستقيم تماماً كدخان مصفّفة الشعر بالأمس. استندت إلى جدار الزريبة الفاتح اللون وشعرت بدفئه على ظهرها عبر قميص نومها، لكن ملمس عنقها كان بارداً. كان رأسها خفيفاً كما لو أن كيلوغرامات كثيرة من الشعر قد جُزَّت منه. أخذت تدخّن وعيناها مغمضتان.

ها هي الآن من دون أي موعد ومن دون أي التزام. فكّرت في الإوزات والخيط المشدود على طول الممر، وتذكّرت عهداً أخذته على نفسها، أن تشتري الخبز realpagex0069xمن الخبّاز في وانفاور، وشعرت من ثم أن كل الأشياء خرجت عن السيطرة. رمت بالسيجارة على العشب، ومضت إلى المنزل ومسحت قدميها الحافيتين بممسحة الأرجل للتخلّص من رمل الإردواز. ارتدت ثيابها ووضعت منشفة في حقيبة الظهر وخرجت تمشي.

*

ها هي على دربها؛ في الجانب الآخر من الجدول وعبر البوابات المزيّتة وحرج الأشجار القديمة الصغير حيث تزداد الدرب وضوحاً كلّما سلكته. غناء عصافير لم تستطع تمييزها ولم تعرف بها قط؛ وسنجاب. عبرت الحلقة الحجرية واتَّجهت نحو السد عبر الأرض المستنقعية. كانت قد تركت الخريطة في المنزل على طاولة المطبخ. تجاوزت القسم الموحل لتبلغ بوّابة حديدية في الجانب الآخر منها ماشية سوداء ذات شعور طويلة وقرون كبيرة، وإلى جانب البوّابة سلّم مزدوج. سيكون عليها أن تعبر الحقل. لم تتردّد، بل صعدت السلم متجاوزةً البوابة من دون أن تعير الماشية أي انتباه. فكّرت: إذا ادّعيتُ أنها غير موجودة فلن تلحظني هي أيضاً. بدا أن الدرب يتبع ضفة حرجية. إذا تطلّب الأمر فستزحف في الأجمات الكثيفة من أجل السلامة. استمرّ الريف في التموّج، ولم تتعرّف شيئاً عندما التفتت إلى الوراء بعد خمسين خطوة. لكنها كانت محظوظة: فقد أظهر لها

إطارُ ما كان في السابق بوّابةَ قديمة أنها سلكت الاتجاه الصحيح. خلّفت الماشية السوداء وراءها. أخذت الأرض أمامها في الانحدار؛ وصار بإمكانها رؤية المياه.

كانت الأشجار هنا شبه عارية من أوراقها، والعشب أصفر وقد رُعي وبات قريباً من مستوى الأرض، وكانت أجمات البلاّن الشوكي متناثرة هنا وهناك. على الضفة كانت ثمة صخرة من النوع الذي أُطلق عليه في الخريطة اسم الصخرة الواقفة، إلا أن هذه الصخرة بدت كأنها من فعل مزارع يمتلك آلية ثقيلة. رأت، وهي تدور حول البركة الكبيرة، أكواماً إسمنتية ومبنىً صغيراً من الآجرّ؛ أمكنها أن تسمع في داخله realpagex0070xصوت تدفّق الماء لكنها لم تتمكّن من رؤية المكان الذي يخرج منه الماء. تأكّدت عندها من أن البركة أشبه بخزّانٍ صنعه أحدٌ ما. بلغت طريقاً معبّدة تصل إلى ما وراء المبنى. كانت المياه أمامها هادئة وساكنة جداً كطبق من الفضة قد صُقل للتو. كانت صافية ولزجة لكنها لم تبدُ باردة. تعرّت قرب صخرة كبيرة أمكنها وضع ثيابها عليها، ثم عكّرت سكون المياه بتغطيس قدمها المصابة. كانت باردة لكن ليس إلى درجة تحملها على التراجع. شعرت بقساوة القعر الشديدة تحت الطبقة الرقيقة من الوحل، فقد كان أشبه ببلاطة ضخمة من البيتون تم تنظيفها منذ وقت قريب بعض الشيء. خاضت في الماء وسارت بأقصى حدّ من التمهّل إلى الوسط حيث غمرتها المياه حتى خصرها وقبعت ساكنةً هناك إلى أن تلاشى آخر تموّج وعاد الهدوء إلى المياه. استطاعت رؤية أصابع قدميها وركبتيها، وفقاعات الهواء الدقيقة على كل شعرة من شعر عانتها، وانكسار غريب للضوء على بطنها وساعديها، كما لو أن الجزء الأسفل من جسدها لا يلائمها ويعود إلى شخص آخر. نظرت من حولها، ووجدت أن هذه الضفة أيضاً أشبه بالدائرة التي لا بداية لها ولا نهاية. لعلها لم تشعر بالبرد لأن الشمس، كانت رغم ضعفها، قادرة على تدفئة نصفها العلوي في غياب أي نفحة هواء، ولأنها واصلت الاعتقاد بأن المياه لزجة وبطيئة وثقيلة. ظلّت واقفة في مكانها وفهمت تماماً لماذا كان عمّها متردّداً إلى هذا الحد في بركة ذلك الفندق: فقد سلبه المكان نفسه سلبه القدرة على اتّخاذ القرار. لم تقفل عائدةً إلى الضفّة إلاّ عندما تجعّدت حلمتي ثدييها بفعل القشعريرة. شاهدت الوقت وهو ينقضي، في دوران ظلال الأشجار الطويلة وفي وصول سرب من الأسماك الصغيرة إلى أصابع قدميها ورحيله وفي ظهور خمسة خراف بجانب الصخرة المنتصبة. هل كان ذلك ما فعلته إيميلي ديكنسون في معظم حياتها البالغة؟ هل حاولت إيقاف الوقت وجعله مُحتمَلاً وربما أيضاً أقل توحّداً من خلال احتجازه في مئات القصائد؟ ليس الوقت وحده بل ومعه أيضاً الحب والحياة بل وحتى الطبيعة. وفكّرت في أن ذلك لا يهم. لم يعد يهم، وعلى أي حال لم تكن هذه المقاطع حتى من بنات أفكار ديكنسون. جفّفت نفسها وعاودت ارتداء ثيابها وسارت مبتعدةً عن المياه قبل وقت طويل على تلاشي آخر التموّجات.

realpagex0071x

كانت الأبقار السود قد رحلت، أو أقلّه لم تعد مرئيّة من الدرب المحاذية للضفّة الحرجيّة. خطر لها، وهي عند السدّ، أن لا بدّ أنّ هذه الدرب كانت تُستخدم كثيراً في مرحلة من المراحل وإلا

لما وضعوا الشارات التي تحمل رمز الرحّالة ولما أضافوا البوّابات والسلالم. ولا بدّ من أن بعض المارّة يعبرون هذا الدرب من وقت إلى آخر، بالرغم من أنه يبدو لها مهجوراً، ومن أنّها تجده، هكذا طبيعياً للغاية. ربما يكون أحدهم قد مرّ على الدرب بالفعل، عندما كانت تصفّف شعرها أو تتسوّق في «تيسكو»، أو وهي ممدّدة على الأريكة. دخّنت سيجارة على أكبر صخور الحلقة الحجرية وجلست تنتظر إلى أن ظهر الغرير تحت الوزّال. افترضت دوماً أن أي غرير هو نفسه، «الذكر» الذي عضّها في قدمها. نظر إليها، كما في السابق، من دون أن يعطي أي إشارة إلى رغبته في مغادرة مخبئه. ربما تذكّر الغصن الذي تكسّر على ظهره.

26

كانت قد قصدت، بعد رسوها في «هول»، أربعة صرّافات نقود آلية مستخدمة بطاقة اعتمادها وبطاقتها المصرفية العادية وسحبت مبلغاً كبيراً من المال. كانت لا تزال تشعر بالغثيان، فقد كان المركب الليلي يتأرجح وتمايل، وشعرت ببؤس شديد قرّرت معه عدم السفر من جديد على مثل هذه السفينة الضخمة. ولكنها احتفظت بما يكفي من صفاء الذهن لتدرك أن بالإمكان تفقّي أثرها عبر عملياتها المصرفية، وهذا ما لم تكن تريده. شرعت في القيادة والتزمت الطرق الرئيسية: برادفورد، مانشستر، شستر. كانت تفكّر في إيرلندا. واضطرّت لدى توقّفها في أحد مراكز «ليتل شيف» إلى شدّ القماش المشمّع فوق الأمتعة التي في المقطورة. «الأمتعة»، هكذا اعتبرت الفرشة المفردة وطاولة القهوة اللتين حزمتهما معاً. حتّى قبل أن تبلغ ويلز، ظهرت «هوليهيد» على اللافتات: إلى الأمام مباشرةً على الطريق أ 55. ملأت السيّارة realpagex0072xبالوقود ودفعت بواسطة بطاقتها الائتمانية قبل أن تدرك فعلتها. توقّف المطر أخيراً في بانغور وتذكّرت، وهي تقود السيارة على جسر بريتانيا متوجهةً إلى أنغليسي، تقاطع الطرق. لا، فهي لا تريد أن تعيش مرّة أخرى مثل ذلك الكابوس. بدا المضيق بين البرّ الرئيسي وأنغليسي رائعاً تحت الشمس الرطبة: الشواطئ الحرجية الشديدة الانحدار، الجسران القديمان، طيور بيضاء كبيرة في الطين المالح، جزيرة صغيرة فيها كوخ صغير أبيض. استدارت عائدةً وراحت تبحث عن فندق يوفّر المنامة والفطور، وانتهى بها المطاف في اليوم التالي في وكالة العقارات التي يديرها «صديق» ريس جونز، الذي أبلغها أن لديه المنزل المثالي الذي يكاد يكون مجهّزاً بكامل أثاثه، وأنه متوفّر للإيجار الفصلي. بيت ريفي ويلزي من الحجر الرمادي. توجّها بسيّارته لإلقاء نظرة عليه. جال بها في المكان مشيراً إلى الحظيرة بحركة لا مبالية قائلاً: «زريبة الخنازير». أمضت ليلة ثانية في الفندق انتقلت بعدها إلى المنزل. لم يأتِ على ذكر الإوزات، ولم تكن قد لاحظتها. وجاءت خراف ريس جونز لاحقاً. دفعت الإيجار حتى ٣١ كانون الأول وبقي معها من النقود ما يفوق حاجتها.

شرعت في نقل نصف حمولة العربة اليدوية من الإردواز من الكومة إلى الممر في سكون شديد. كانت كلّ مرّة تلتف فيها بالعجلة الفارغة حول زاوية المنزل تأخذ الإوزات الخمس في القوقأة

بهدوء. بالكاد تحمّلت صوتها، فأخذت تغرف أسرع فأسرع لتغطّي على القوقأة، ولم تعد بعد عدّة حمولات تعبّئ سوى ربع العجلة. كانت قد أزالت الحبل وعيدان الخيزران وقلبت الحصى بين أغصان شجرة جار الماء الغليظة ووزّعته بالمعزقة. ولمّا انتهت، جرّت أحد كراسي المطبخ صوب الفرن وشربت كوباً من الحليب، وأكلت شطيرة، ودخّنت سيجارة، وفكّرت في أن عليها أن تبدأ بلفّ سجائرها بنفسها إذا أرادت أن تشعر أنها بستانية بالفعل. في فترة بعد الظهر، جثت على ممسحة الأرجل واستخدمت سكّيناً لاستخراج العشب من الإردواز. انزلقت على مهل من الزاوية القريبة من زريبة الخنازير إلى زاوية الخيزران وخزان الوقود وتابعت حتى الجدول حيث بسطت ممسحة الأرجل التي كُتب عليها «أهلاً» كوسادة. لم realpagex0073xيكن تفكيرها واعياً، بل ساورها شتى أنواع الأمور. وكانت تجلس الآن وساقاها تتدلّيان من الضفة الشديدة الانحدار وتحدّق في الجدول السريع الجريان. كانت هناك على الضفة المقابلة الشديدة الانحدار، على بعد يتجاوز المتر بقليل، أنواع مختلفة من الخنشار ونباتات أخرى كثيرة لا تعرف اسمها. وكانت شجرة قد هوت في مكان ما واستقرّت فوق الجدول في ما يشبه جسراً مغطّى بالطحالب. وجدت صعوبة في سلخ نفسها عن المياه، فجريانها السريع وفورانها كانا أشبه بالتنويم المغنطيسي، لا نهاية لهما. هل ينبع هذا الجدول من الجبل؟

حدّقت تلك الليلة في النار تماماً كما سبق لها أن حدّقت بالماء، وكانت قد أضاءت شموعاً وضعتها على حافة النافذة. شعرت بألم مزعج في ظهرها. كانت قد تناولت بعض الخبز والجبن وبصلة حلوة قبل أن تنزل في مغطس الحمام، فإعداد الأطباق الساخنة يتطلّب منها الكثير، والفواكه والخضر صحّية، لكنّ أموراً كهذه لا تنطبق إلاّ على الأشخاص الذين يتمتّعون بصحة جيدة أساساً. لطالما وجدت صعوبة في تناول اللحوم. ماذا، بحق السماء، ستفعل بالحَمَل الذي هدّدها به ريس جونز؟ فكّرت في ذلك وهي في الحديقة، وكذلك عندما كانت مستلقية في الماء الساخن. كانت، بالرغم من فشلها في وضع الرسم التخطيطي، قد رسمت بالفعل تصاميم الممرّات في مخيّلتها: كانت أزهار الأحواض قد أخذت في التفتّح، بل إنها قامت حتّى بتشييد قنطرة من الورد. وها هي الآن تحدّق في النار من دون أن تراها فعلاً. كانت تتمتّع بالدفء، وبالنور. والأريكة، بوساداتها، كانت مكاناً جيّد للاستلقاء. لم تعاود ارتداء ملابسها بعد الحمّام ولفّت نفسها ببطّانية ناعمة. وضعت كأساً من النبيذ على طاولة القهوة بالقرب من «الريح في الصفصاف»، ومن الكتب التي لم تقرأها بعد.

كانت لرائحة الحطب المشتعل سمة حلوة ولاذعة جعلتها تفكر في أطباق الحلوى الهولندية والبسكويت التي اعتادت جدّتها صنعها في المنزل وإحضارها مع جدّها إلى شقّتهم في شارع «روستنبرغ»؛ وفي الطَرْق على الباب عندما كان القديس نقولا يترك كيس الهدايا؛ وفي النظر إلى الشارع عبر النافذة المغشّاة، لاسيما عندما realpagex0074xيكون الطقس سيّئاً وفي الدهشة التي كانت تعتريها دوماً لرؤية الناس يسيرون فيه، وفي أنّها لو أسعفها الحظّ فستتمكّن من إلقاء نظرة على «بيتر الأسود» [6] وهو يمتطي الدراجة الهوائية؛ وفي معرفة أن الجو بارد ورطب في الخارج ودافئ في الداخل؛ وفي الشوكولاتة بالحليب؛ وفي الهدايا؛ وفي حفيف ورق الهدايا ورائحته المميّزة؛

وفي ضحك الكبار في قاعة الجلوس ذات الضوء الخافت؛ وفي مراجعة قائمة أمنياتها الخاصة باستخدام قلم رصاص أحياناً لتشطب منها ما قد حصلت عليه من هدايا؛ وفي معرفة أن كل شيء سينتهي متى ارتجف ضوء الفلورسنت في المطبخ ويشتعل؛ وفي الخبط المكتوم على الدرج عندما تصبح في السرير؛ وفي الشعور بالفراغ الذي ساورها في ٦ كانون الأول. عاودها الشوق إلى موطنها. ربّما كانت هناك كلمة أخرى تعبّر عن ذلك، وربما أن كلمة الحنين هي الأفضل، لارتباطها الأوثق بالزمان منه بالمكان.

شرعت الإوزات في الصياح بصوتٍ مرتفع. فكّرت وهي تكافح للنهوض في أنّها تحتاج إلى جهاز ستيريو. نزلت مسرعةً إلى الطابق السفلي؛ أشعلت الضوء الخارجي وركضت عبر الممر المجاور للمنزل. صاحت، «هاي! اغربي عن وجهي!» وأمسكت بكمشة من الإردواز المكسور ورمت بها باتجاه حقل الإوز الذي كان يعمّه الظلام.

«ارحلي! ارحلي!» ورمت بكمشة أخرى من الإردواز. «هاي!» وسقط حجر وحيد من يدها لكن الجدول غطى على صوت وقوعه. هدأت الإوزات. هوت على ركبتيها وأخذت تنظر إلى السماء. لم يسبق لها قط أن شاهدت هذا العدد الكبير من النجوم، ولم يسبق لها قط أن رفعت نظرها إليها وهي عارية تجثو على ركبتيها في أواخر شهر تشرين الثاني.

كانون الأول

realpagex0076x

realpagex0077x

27

أوقع الزوج، وهو يرتّب المرأب، صندوقاً من الورق المقوّى على قدمه. كان الصندوق يحتوي على كتب وأوراق تخصّ زوجته، وكُتب على أحد جوانبه «السنة الأكاديمية ٢٠٠٣-٢٠٠٤». كان يحاول رفع الصندوق إلى أحد الرفوف العالية عندما ارتخى الشريط اللاصق فأفلت منه وصدمه في صدره وهوت زاويته على قدمه اليسرى. كان ينتعل خفّين. أمكنه تخطّي اليوم، الأحد السادس من كانون الأول، من خلال ترفّقه بقدمه والكفّ عن الترتيب وقضاء طيلة بعد الظهر قبالة التلفاز مع كأس من النبيذ الأحمر: رياضة ومزيد من الرياضة اللعينة. تورّمت قدمه في اليوم التالي واصطبغت بالأزرق والأصفر؛ تورّمت إلى حد أن أصغر أصابع قدمه لم تعد تبدو كأصابع منفصلة. فتّش في الدليل عن رقم طبيب الصحة العامة واتصل به، وتمكّن من تحديد موعد له على الفور، لكن توجّب عليه أوّلاً أن يبحث عن العنوان في الإنترنت. انتعل حذاء الرياضة من دون عقد الرباط وحاول ما أمكن تفادي تبديل السرعة في السيّارة؛ فالضغط على دوّاسة القابض كان عذاباً له. لن يمارس الرياضة إذن في أي وقت قريب. لم يواجه مشكلة في إبقاء السيّارة على السرعة الثالثة لأن الطريق من المنزل إلى العيادة كانت تمرّ كلّها في حيّه. اتصل وهو في الطريق بمقر عمله، وأبلغهم لمزيد من الأمان أنه يخشى أن يستغرق الأمر النهار بطوله. صعب عليه تصديق أن قدمه ليست مكسورة.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle *

realpagex0078x

عندما دخلت الطبيبة، لم يدرك أنها من ينتظره، إذ كان شبه متيقّن من أن طبيبه رجل. صافحته بعزم وأخبرته باسمها وجلست شبه مختبئة خلف شاشة الحاسوب.

«اختبار للخصوبة»، قالت. «طُلب في تشرين الثاني من السنة الماضية».

أجاب: «هممم، نعم».

«أُجري في المستشفى الجامعي».

سألها: «أهو امتحان؟».

«عفواً؟».

«ما الذي تفعلينه؟».

«أراجع تاريخك المَرضي».

«سقط صندوق على رجلي. صندوق ثقيل جدّاً».

«نعم، طبعاً».

«عفوكِ؟».

«أعني..».

«من أنتِ على أي حال؟».

«قلت لك اسمي للتو».

«نعم، سمعتك، لكن لطبيبي اسم مختلف».

«أصبح المكان منذ الأول من كانون الثاني عيادة جماعية. يعني ذلك أن أطباء كثيرين..».

«أعرف ما هي العيادة الجماعية».

«قلتَ، قدمك».

«نعم»، وخلع حذاءه وجوربه.

realpagex0079x

«هل يمكنك، لو سمحت، أن تأتي إلى هنا وتجلس على السرير؟».

حاول، فيما كانت الطبيبة تفحص قدمه من دون كثير من اللطف، أن يقرأ ما كُتب على شاشة الحاسوب من فوق رأسها، لكن السرير كان بعيداً جداً عن طاولة المكتب. قال في نفسه: «يجب عليّ أن أكون أقل انفعالاً». عاود بعد دقائق الجلوس قبالتها، وكتبت له ورقة إحالة.

سألته: «هل سترجع إلى المستشفى الجامعي؟».

«نعم»، قال. «ذلك أسهل».

«أعتقد أنها رضّة قاسية، لكن ليست هناك أشعة سينية في عينيّ».

أجابها: «كلاّ».

ناولته الرسالة. «في وسعك الذهاب مباشرةً إلى هناك».

قال: «تلك المعلومات».

«نعم؟».

«أهي تتعلّق بي فقط أم هي لنا... معاً؟».

أمعنت الطبيبة النظر في الشاشة. «كل من يقيم في عنوانك. ورد هنا، على سبيل المثال، أن زوجتك، أو صديقتك، خضعت أيضاً لاختبار الخصوبة».

قال: «نعم، بالتأكيد».

حدّقت في الشاشة، ولم يستطع رؤية ما إذا كانت قد طبعت شيئاً أم أنها اكتفت بتحريك مفاتيح الأسهم. قرأت شيئاً وقالت «تموز» ثم حدّقت مباشرةً في عينيه. «كيف هي الآن؟ أهي في منتصف العلاج؟».

«الأمور على ما يرام»، أجاب.

«ليس شائعاً أن يظهر شيء آخر خلال اختبار الخصوبة، فهم عادةً ما يكتفون بإجراء الاختبار دون البحث عن أمراض أخرى».

realpagex0080x

أجاب: «كلاّ»، وفكّر: تابعي الكلام. أرجوكِ تابعي الكلام.

واصلت التحديق فيه مباشرة. «ليست لديك أدنى فكرة عمّا أتحدّث، أليس كذلك؟».

«كلا. نعم».

«آسفة، لا يسعني قول المزيد. أخشى أنني قد تفوّهت بأكثر مما يجب».

«إنها زوجتي!» قال.

«نعم. وكونك لا تعرف يضفي مزيداً من الغرابة على الأمر».

28

ضباب. كان العالم جامداً. كاد يغيب أي ضجيج، إلى حدّ بدا معه كأن مياه الجدول تُصفّى عبر ضمادة شاشٍ رقيقة. كانت مع ذلك لا تزال تعمل في الحديقة. أنجزت تشذيب شجرة جار الماء

الأولى، وتمكّنت بالفعل من تقليم زوجين من الأغصان الكثيفة في الثانية الواحدة. كانت تعمل بهدوء شديد. كانت كلما شعرت أنّها أخذت تتعب تنزل بحرص عن كرسي المطبخ وتمضي إلى الداخل للجلوس قليلاً قبالة الفرن؛ ولا تعاود الخروج إلا بعد شرب كوب من الشاي وتناول وجبة خفيفة وتدخين سيجارة. عرّت الأفنان الجانبية عن الأغصان وكوّمتها عند حائط الحديقة على الجانب القصير من العشب. فكّرت في أن ديكنسون كانت في طقس كهذا ستقبع في الداخل تسعل وتتنهّد وتكتب عن الربيع المشرق وأوّل نحلة. صارت عمليّة النشر أكثر سهولةً الآن، وقد تعلّمت ترك المنشار يقوم بالعمل. كان المصباح مضاءً في زريبة الخنازير والباب مفتوحاً؛ بدا مكاناً دافئاً.

حملها التوهّج المنتشر في الضباب على التفكير في الحمير والثيران الواقفة حول المزود. حدّثت نفسها قائلةً: تابعي النشر على هذا المنوال، بهدوء شديد، في عالم realpagex0081xصغير كُتِم فيه كل صوت. تخيّلتْ، وهي تعمل في الخارج، طاولة المطبخ وعليها الخريطة ومحاولة جديدة لتصميم الحديقة، ما جعلها تفكّر في يوم الاثنين وفي التوجّه بالسيّارة إلى كيرنارفون حيث يمكنها شراء أقلام التلوين؛ وفي متجر خطّطت لشراء تلفاز منه: أمست الليالي طويلة جدّاً بالفعل، وأرادت أن تتمكّن من إفراغ ذهنها بمشاهدة برنامج يتعلّق بالحدائق أو بالسلع الأثرية، أو تلك السلسلة التي تبثها «بي. بي. سي». عن أناس يريدون الانتقال من المدينة إلى الريف ويطلبون المساعدة من مقدّم البرنامج.

فيما هي تنقل الغصن الأخير إلى حائط الحديقة، قفز أحدهم عالياً محدثاً زوبعةً من الهواء الرطب. بدا كما لو أن القفزة كانت بالحركة البطيئة، ربّما بسبب حقيبة الظهر الكبيرة التي كان يحملها الرجل. هبط على كومة الأغصان، ففقد توازنه وانزلق بالعرض. بدا ذلك أيضاً أبطأ من المعتاد وذكّرها بلاعب جمباز يقوم بتمارين أرضية.

كافح ليستقيم وهو يقبض على معصمه الأيسر. ظلّت واقفة في مكانها.

قال: «أوه». كان فتىً أكثر منه رجلاً.

سألته: «هل آذيت نفسك؟».

قال: «لا ليس فعلاً، على الأقلّ..».

أفلتت الغصن وسارت نحوه.

قال: «برادوين».

«ماذا؟».

«هذا اسمي»، ومدّ يده.

صافحته وقالت «إيميلي»، لفظتها على الطريقة الهولندية.

«أهذه حديقتِك؟».

«نعم».

realpagex0082x

«هل أنت ألمانية؟».

«ما بكم أيها الناس؟ ألا يمكن لأي منكم التمييز بين الهولنديين والألمان؟».

«عذراً»، قالها وهو يلدغ بحرف الراء.

«لا يهم. لكنه أمر غريب». كانت لا تزال ممسكة بيده. كان يرتدي قبعة صوفية وفي عينيه قليل من الحول لكنه كافٍ ليصيب المرء بالإرباك. «هل آذيت معصمك؟».

«نعم».

سحبت يدها. «أتود الجلوس لبعض الوقت؟».

«نعم، من فضلك».

«تعال إلى الداخل إذاً. سأعدّ بعض القهوة».

صاح الفتى: «سام!».

قفز كلب من فوق الحائط المنخفض. وهبط كسيّده على الأغصان، وكسيّده أيضاً انزلقت قوائمه من تحته، وأخذ يكافح للوقوف.

«كلب»، قالت.

«سام»، قال الفتى. «إنه رفيقي».

قالت: «مرحباً سام».

اشتمّ الكلب يدها الممدودة ولعقها.

«إنه يحبّك»، قال الصبي.

أمسكت بالحيوان من تحت ذقنه ونظرت في عينيه وقالت: «وأنا أحبّه أيضاً». سحب الكلب رأسه وحرّره.

«هذا لطيف»، قال الفتى.

قالت: «القهوة».

realpagex0083xوضع الفتى حقيبة ظهره تحت الساعة ونزع قبّعته كاشفاً عن شعر أسود كثيف. لم يمرّر أصابعه عبره. استلقى الكلب على الأرض قرب الفرن وأطلق الهمهمة الدالّة على الرضا. أعدّت بعض القهوة وأضاءت شمعتين على حافة النافذة فوق المجلى، إذ كانت الشمس قد أوشكت على المغيب، وقطعت بعض الخبز وحضّرت شطيرة من الجبن للفتى.

«شكراً يا إيميلي»، قال عندما وضعت الصحن أمامه على الطاولة، وقد لفظها على الطريقة الإنكليزية. فكّرت: وما الفارق؟ فسيعاود المغادرة قريباً. وها قد أنهى الشطيرة وشرب كوباً ثانياً من القهوة. لم يتحدّث فيما كان يأكل ويشرب. كان قد خلع حذاء التجوال عند باب المدخل؛ وعمّت رائحة حلوة المطبخ.

قال الفتى: «يستحسن أن أذهب، فقد بدأ الظلام يخيّم».

«إلى أين تذهب؟».

«ثمة نُزُل على مسافة من هنا يقدّم المنامة والفطور».

«كم يبعد؟».

مدّ يده إلى حقيبة ظهره وسحب منها خريطة، كانت نسخة طبق الأصل عن الخريطة نفسها التي كانت قد رفعتها في وقت سابق عن الطاولة وطوتها ووضعتها على منضدة المطبخ، إلا أن خريطته كانت قد استُهلكت أكثر وأضحى ورقها القاسي ليّناً. فتحها وأخذ يمرّر سبابته فوقها. كانت يداهُ، بإبهاميهما العريضتين، قويتين، وقد اتّسختا بعض الشيء.

«يبعد ميلين أو ثلاثة».

قالت: «سيكون الظلام عندها قد بات حالكاً».

أجاب: «نعم».

«وهل يعرفون بمجيئك؟».

realpagex0084x«كلا، لم أتصل بهم بعد»، وأخذ يفكّر في الأمر. «إنني أتصل بهم في العادة حوالى الساعة الثانية عشرة أي بعد انقضاء نحو ساعتين على مسيرتي، لكني لم أتّصل اليوم، ولا أعرف السبب».

قالت: «يمكنك، إذا اقتضى الأمر، المبيت هنا. هذا إذا أردت ذلك. ثمة أريكة في المكتب».

تثاءب الكلب.

قال: «يعتقد سام أنها فكرة جيّدة، فهو مرتاح في مكانه ويشعر بالدفء».

«اتفقنا إذاً».

«أتقيمين هنا لوحدك؟».

«نعم».

*

مضى الفتى ليستحمّ، فيما هي تحضّر الطعام، وانسحب الكلب بعيداً من موقعه الدافئ قبالة الفرن ورأته، حين تسلّقت بهدوء النصف الأول من الدرج، ممدّداً أمام باب الحمام المقفل، فرفع رأسه وراح يراقبها بانتباه. هزّت برأسها ونزلت من جديد فلحقها الكلب. غريب كيف أن الفتى والكلب قد تكيّفا بسهولة مع هذا المنزل. وضعت بضع حطبات أخرى في موقد غرفة الجلوس. حرّكت الحساء. تمدّد الكلب وظهره إلى الفرن. فتحت زجاجة نبيذ أحمر. تكّت الساعة بحدّة، وقوقأت الإوزات بلطف.

realpagex0085x

29

قال الفتى: «إنني أقوم بمسح درب طويلة جديدة. أخطّط لها في الواقع. فلديهم في الجنوب درب 'بمبروكشاير كوست'، ويريدون الآن درباً هنا أيضاً»، وأخرج دفتر ملاحظات من حقيبة ظهره. «أدون عليه كلّ شيء، كلّ الأمور التي أراها والمعالم. أبلغ أحياناً طريقاً مسدودة فيذهب يوم كامل هدراً». كان قد غسل شعره وبدا مختلفاً جدّاً عن السابق، كما لو كانت هناك هالة حول رأسه.

«كم سيستغرقك الأمر؟».

«لا أدري. لديّ كل ما في العالم من وقت».

«ولماذا؟».

«انقطعتُ عن الجامعة. لم يعد لي جلَد».

«وكم من الوقت استغرق عملك على الدرب حتى الآن؟».

«أسبوع ونصف الأسبوع».

أفرغ لسام طعاماً جافاً من كيس بلاستيكي في إناء، فأتى عليه في وقت قياسي. وكانت على الطاولة قدرٌ من الحساء، وخبز، وسلطة شمندر، وجبن، وزبدة.

«عليّ أيضاً أن أتحدث إلى المزارعين، وأن أطلب الإذن منهم ومن مالكي المنازل. وهكذا فأنا في الواقع أعمل الآن ونحن نتحدّث».

«تتّبعُ الطريق الدرب التي أجتازها نحوَ نصف ميل».

«تماماً».

صبّت له كأساً أخرى من النبيذ. كان قد تجرّع الاثنتين الأوليين دفعةً واحدة وكان يهمّ بابتلاع هذه أيضاً.

realpagex0086xسألته: «هل تخشى أن يشربها أحد غيرك؟».

«أنتِ تصبّينها وأنا أشربها».

«كم عمرك؟».

«عشرون».

«ماذا كنت تدرس؟».

«نسيت. كان مملّاً».

«لا تريد أن تقول».

كان يتناول حساءه في عجالة، وكان، بدلاً من أن يجلب الملعقة إلى فمه، ينحني برأسه فوق الوعاء. «لذيذ».

«كيف معصمك؟».

«لا مشكلة».

«أتريد المزيد؟».

«لا، لقد اكتفيت، شكراً». اتّكأ على الكرسي، رفع كلتا ذراعيه وتمطّط بسحب أحد معصميه باليد الأخرى، فارتفع قميصه القطني الباهت وظهر فيه ثقب عند الإبط الأيسر. قال: «لا يمكنك أن تمانعي على أي حال».

«ماذا؟».

«لا يمكنك في الواقع الرفض. حق المرور، هذا ما يُدعى. فالدرب التي سلكتها اليوم موجودة أصلاً، وهي على الخريطة. لا يمكنك منع الناس من استخدامها».

«لم أرَ هنا أي متجوّل على الإطلاق. أنا الوحيدة التي تستخدم تلك الدرب».

«نعم، كان الأمر غريباً اليوم، فقد كانت الدرب تظهر فجأةً في نقاط معيّنة وسهل اتباعها، لكنّني كنت قبل ذلك أضلّ طريقي».

realpagex0087x

«أسلكها لأبلغ الحلقة الحجرية».

«الحلقة الحجرية؟».

«نعم، وأنت قد مررت عبرها تماماً».

«لم ألحظ شيئاً».

«كان الجوّ ضبابياً».

«لا أمانع في الحصول على كأس أخرى من النبيذ».

اضطرّت إلى الوقوف لجلب زجاجة أخرى، فتنبّه الكلب على الفور. كان الجو دافئاً في المطبخ، وكانت الغشاوة تغطّي النافذة. اشتمّت من جديد رائحة المرأة العجوز فهزّت رأسها للتخلص منها. كان للفتى وكلبه رائحتهما الخاصة، وبخاصة الكلب، ولم تكن قد عاودت وضع الغطاء على وعاء الحساء، الذي كان بالمناسبة يخصّ السيدة إيفانز. فتحت الزجاجة. «من أين أنت؟».

«وُلدتُ في لانبيريس. وأنتِ؟».

«روتردام».

«لم يسبق لي أن زرتها».

«وأنا لم أزر لانبيريس أيضاً»، وحاولت أن تلفظ اللام كما لفظها تماماً.

كانت قد اكتفت بعدما أتيا على الزجاجة الثانية، فقد أصيبت بالإعياء واحتاجت إلى بعض الباراسيتامول وأرادت أن تستحم. وفيما كان قد جلس إلى الطاولة وقد استحمّ حديثاً وارتدى ثياباً نظيفة، كانت هي لا تزال في ثياب الحديقة. تعمّدت أن تدعوه بضع مرات برادوين لتعتاد على الاسم، واستمر هو، وكأنه يردّ عليها، في مناداتها إيميلي. أم أن ما جرى هو العكس؟ أم أنها شرعت تدعوه باسمه لأنه واصل إنهاء جمله بترداد اسمها؟ راودها شعور دائم بأنه على وشك أن يقول أمراً

مهمّاً حتى بعدما شرع في عبارته الختامية «إيميلي»، ربما لأنه واصل النظر إليها بذلك الحوَل الذي ارتابت في أنّ وراءه ما هو أكثر مما لو تطلّع إليها بشكل طبيعي.

realpagex0088x

«سأشعل النار في غرفتك، وسآخذ من ثمّ حماماً وآوي إلى الفراش».

«حسناً»، قال.

«توجد كتب هناك، معظمها بالإنكليزية».

«جلبت كتبي معي. أيمكن لسام المبيت هنا أيضاً؟».

«لا مانع عندي. سأفرش له بساطاً على الأرض».

كان الكلب قد أخذ بالفعل بالتوجّه إلى غرفة الجلوس.

«سآخذه إلى الخارج أولاً ليقضي حاجته».

«أراك في الصباح».

«ليلة سعيدة»، قال لها وارتدى معطفه ولحق بالكلب مقفلاً باب المدخل وراءه. نبح سام بغضب مرّتين.

صعدت إلى الطابق العلوي، أشعلت النار في الموقد، ونظرت من حولها لترى إذا كان هناك ما يجب وضعه جانباً، ثم جلبت لحافاً من غرفة نومها. «نعم»، قالت لصورة ديكنسون بعدما صنعت من الأريكة سريراً. «نعم، هذه فوضى من نوع آخر. أراكِ لاحقاً»، ثم توجهت إلى الحمام وسحبت قرصي باراسيتامول من غلافيهما. كانت في غضون أسبوعين أو ما شابه قد أتت على العلب الخمس كلّها. كان تناول مسكّن للألم أوّل شيء تقوم به في الصباح. تحاشت النظر إلى نفسها في المرآة، ولم يكن ذلك صعباً نظراً إلى أن ملء مغطس الحمام بالماء قد غبّش المرآة. بعد ذلك بقليل كانت مستلقية في المياه الساخنة وقد فرغ ذهنها. سمعت الفتى والكلب يصعدان إلى الطابق العلوي، وأقفل باب المكتب وراءه. نبح الكلب ثم توقف عن ذلك بشكل شبه فوري بعدما حذّره الفتى بالتزام الهدوء. «ليس مرّة أخرى»، قالت بهدوء لأصابع قدميها. «وقطعاً ليس الآن، يا إيميلي ابنة روتردام». فركت بطنها بكلتا يديها وواصلت ذلك بضع دقائق، ثم مرّرت أصابعها، وهي شبه متفاجئة، في شعرها الذي كان قصيراً جدّاً.

realpagex0089x

نهضت في الصباح التالي في وقت مبكر بعض الشيء. كان باب المكتب مقفلاً والمنزل ساكناً. أعدّت بعض القهوة وجهّزت طاولة الطعام واضعةً للمرّة الأولى مفرشاً فوقها. كان الضباب قد انقشع ليلاً وأشرقت شمس كسولة. استنزفها على الفور منظر شجرة جار الماء ونصف الشجرة اللتين لم تقلّمهما بعد. سيغادر؛ وسيتوجب عليها القيام بذلك وحدها. جلست ويداها قرب صحنها الفارغ. أمّا هو فبدلاً من النزول من الطابق العلوي جاء من الخارج جالباً معه إلى المنزل رائحة الأوراق المتساقطة اللاذعة. استبدّ السرور بالكلب لرؤيتها. أمكنها أن ترى في الفتى شخصاً رياضياً: ليس ذلك المفتول العضلات على الحلبة، بل النوع الرشيق الذي يبرع في التمارين الأرضية.

نزع معطفه وعلّقه على ظهر الكرسي الذي همّ بالجلوس عليه، قبالتها.

قال: «صباح الخير».

قالت: «صباح الخير».

«كنت عند الحلقة الحجرية. إنّها حلقة حقيقية. ستمرّ الطريق حتماً في هذا الجزء».

«أيعني هذا أن بعضها غير حقيقي؟».

«طبعاً. فحتى المزارعون يحظون أحياناً بشيء من وقت الفراغ».

«هل رأيت أيّ غرائر؟».

«كلا، فأنتِ لا ترينها إلا في الليل. وسام أيضاً لم يشتمّ شيئاً».

نزعت جوربها ومدّت قدمها صوبه من تحت الطاولة.

realpagex0090x«ما هذه؟».

«ندبة».

«نعم، يمكنني رؤية ذلك. لكن ما سببها؟» ومدّ يده صوب قدمها، فشعرت للمرة الأولى منذ العضّة بالأنياب تخترق لحمها. كاد يلمس بشرتها لكنه سحب يده على الفور.

«غرير، وفي وضح النهار».

«مستحيل».

«أتنعتني بالكاذبة؟».

حدّق إليها بعينيه الغريبتين والمراوغتين بعض الشيء. حَوَله كان أكثر سوءاً في الليلة الماضية، ربما بسبب النبيذ. أجاب: «كلا».

أخذ عضلها المشدود في الارتجاف فوضعت قدمها على الأرض وأعادت رفع جوربها، ثم صبّت القهوة. «هل نمتَ جيّداً؟».

«نعم، على خرير الجدول»، وشرع في تناول الطعام. جلس الكلب بجانب كرسيه مبقياً عينيه عليه وقد أمال رأسه قليلاً. «ستحصل على طعامك يا سام».

دهنت شريحة من الخبز بالزبدة ووضعت عليها بعض الجبن وأخذت تنظر إليها، ثم ابتلعتها. «هل ستنطلق قريباً؟».

«نعم».

بعض من القهوة إذاً؛ يمكنها دوماً أن تتدبّر ذلك. تناول الفتى طعامه بصمت والكلب يتابع كل لقمة تدخل فمه. أخذ برادوين ينظر بالتتابع إلى صحنه وعبر النافذة فإلى الكلب. ألقى نظرة سريعة على الساعة وقال: «أريد المضي إلى سنودن اليوم. هل من اقتراح؟».

«اقتراح؟».

realpagex0091x«الطريق الأجمل للوصول إلى هناك».

«هل يمكنك اجتيازها في يوم واحد؟».

«هذا سهل، فأنا لن أصعد الجبل بل سأبلغ سفحه وحسب».

«لم أذهب في ذلك الاتجاه بعد».

«كم مضى على إقامتك هنا؟».

«شهر أو شهران».

«أهي إقامة مؤقتة؟».

«لا، بل دائمة».

«واو!» أنهى طعامه وفرك يديه اللتين كانتا، بالرغم من حمام ليلة أمس، لا تزالان متسختين بعض الشيء. «دورك يا سام»، ووضع قليلاً من طعام الكلاب في الوعاء أمام الفرن. «سأجلب أغراضي من فوق ثم أنطلق».

«حسناً»، قالت.

كانا بعد عشر دقائق يقفان عند زاوية المنزل. كان العشب رطباً، وباب زريبة الخنازير مفتوحاً، وأغصان جار الماء تلمع عند الحائط. صافحها الفتى قائلاً: «أشكرك جزيل الشكر». تبع الكلب سياج الأسلاك الشائكة وهو يتشمّم وينبح، وكانت الإوزات في الزاوية البعيدة من الحقل.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle
«على الرحب والسعة»، وانتظرت قبل أن تفلت يده. لن يكون من المستغرب قول شيء آخر الآن، لكنها لم تعرف ما هو. كان قد اعتمر قبعته الصوفية بالرغم من انتفاء البرد.
«الأفضل أن أبعد سام عن تلك الإوزات».

«توجّهْ إلى الأمام مباشرةً عند ذلك المنعطف. لقد قمتُ بتزييت البوابة منذ بعض الوقت».

سحب يده بحرص وقال: «أراكِ»، وسار مبتعداً وهو يصفّر للكلب الذي كان realpagex0092xعندها يركض جيئةً وذهاباً على امتداد السياج. أمكنها فقط رؤية ساقيه وأحد كوعيه من حين إلى آخر. رجل وكلبه: رجل بساقين متململتين يركل، وهو يسير، حجراً أمامه. ركض سام إليه قبل أن يعبر البوابة التي لم يصدر عنها أي صرير، فقد زيّتت المفاصل جيّداً. لقد رحل. نبح الكلب مرّة أخيرة.

سارت إلى حقل الإوز، وجاءت الطيور لملاقاتها. أربعة. لا بدّ أنّ ذلك حدث في الليلة التي ركعت فيها في المكان عاريةً تتطلع إلى النجوم. لقد مرّ أسبوع كامل من دون أن تولي الإوزات بالاً. هرعت إلى المنزل، وأخذت قطعة خبز عن منضدة المطبخ وركضت عائدة. قسّمتها إلى كسرٍ صغيرة رمت بها من فوق سياج الأسلاك الشائكة. نظرت إلى المأوى الذي كانت قد صنعته، ورأت أن الشريط المشبّك الذي يُفترض أن يغطي مدخله لا يزال مطويّاً إلى أعلى. ربما زحفت الإوزات إليه ليلاً ولم تكن حتى حينها بأمان. لقد تذكّرت الآن، وهي تقف والخبز في يدها وقد استرعت انتباه الإوزات، اليوم الذي حاولت فيه سوق الطيور إلى المأوى. كانت، وهي مستلقية على جنبها على العشب مبتلّةً ومنهكة، قد فكّرت في استدراجها عن طريق الخبز. حضر ريس جونز في اليوم التالي وهو الذي يتحمّل مسؤوليّة نسيانها أمر الإوزات. تساءلت: كيف أمكنني ترك ذلك يحدث؟ إهمال حيوانات أنا مسؤولة عنها لمجرّد أنني أعتبر شخصاً ما نذلاً؟ وما الذي يسعى إليه في أي حال؟ أصبحنا في شهر كانون الأول، وتشرين الثاني هو شهر ذبح الحيوانات. ما الذي يعوقه؟ سارت إلى البوابة ودخلت حقل الإوز، فتبعتها الطيور. نثرت بعض الخبز أمام المأوى، لكن الإوزات لم تتناوله وبقيت على مسافة منها كما لو أنها عرفت أنّها تحاول خداعها، فتنهّدت وعادت إلى البوّابة. وما إن عاودت ربطها بالحبل حتى هرعت الإوزات إلى المأوى تلتهم الخبز. «اللعنة»، قالت بهدوء

بالهولندية. «كائنات عنيدة، غبية». نظرت إلى البوابة وإلى الفجوة في صف السنديان، ثم عادت على مهل إلى المنزل. كانت أواني الفطور لا تزال على طاولة المطبخ. التقطت طبقه وشمّته ثم وضعت كوبه على شفتيها. لم يسبق للمنزل أن كان على هذا القدر من الفراغ. لم تفكّر مرتين، بل تناولت حقيبتها وهرعت إلى السيارة.

realpagex0093x

31

ملأت الموسيقى المنزل؛ كانت تصدح من مذياع كبير مع مشغّل أسطوانات مدمجة موضوع على طاولة جانبية. كان التلفاز لا يزال في صندوقه في الجهة الداخلية من باب المدخل، ستهتمّ به لاحقاً. كان على الطاولة أقلام ماركر وأقلام تلوين. غسلت الصحون وهي تدندن مع الأغاني التي تعرفها وتفكّر، «إلى اللقاء» وليس «وداعاً». إلى اللقاء وليس وداعاً. كان بإمكان ذلك أن يشكّل بيتاً في قصيدة لديكنسون مع أن مقاطع أبياتها تتعاقب في معظمها بين ستة مقاطع صوتية وثمانية. بدت المسافة القصيرة التي ركضتها في وقت سابق من الصباح أشبه بالماراثون. غطّست وعاء الحليب في رغوة الصابون وأخذت تحدّق عبر النافذة. المكتب! إنها لم تدخل المكتب بعد. جفّفت يديها بسرعة وصعدت إلى الطابق العلوي. استطاعت التكهّن بكيفيّة نهوضه من الطريقة التي استقرّ بها اللحاف على الأريكة: رماه عنه دفعةً واحدة ولم يعمد بعد ذلك إلى طيّه. قالت لنفسها: أحتاج إلى الراحة، فأنا متعبة. خلعت ملابسها وتمدّدت على الأريكة. كان المكتب بارداً، والنار قد انطفأت منذ وقت طويل. أثار غطاء اللحاف حلمتيها، وشعرت بعذوبة القماش ورائحة أوراق الفيرونيا التي كانت قد لاحظتها سابقاً. سحبت اللحاف إلى فوق رأسها ومرّرت يديها على بطنها.

عاودت لاحقاً ارتداء ثيابها وأشعلت النار، لتقوم بعد ذلك بتفتيش الغرفة. هل تم العبث بكومة الكتب على طاولة القهوة؟ هل كتب على الأوراق البيض الموضوعة على الطاولة قرب ديوان شعر ديكنسون؟ لم تستطع أن تتذكّر إذا كانت قد تركته مفتوحاً على هذه الصفحة. مراسم دفن بلد. فكّرت لو أنه توقّف عن تقليب الصفحات والقراءة عند هذه القصيدة، فعندها...

جلست وحدّقت من النافذة لأنها لم تعرف بما تُكمل جملتها، «فعندها» realpagex0094xماذا؟. كان البحر مرئياً من جديد من فوق رؤوس الأشجار التي باتت شبه عارية من الأوراق. لكنّه بعيد، بعيد جدّاً. تذكّرت أمراً، هو الآخر مبهم وبعيد جداً، ونهضت لتنقّب في صندوق كتب كرتوني لم تكن قد أفرغته بعد. كانت شبه متيقّنة بأن سيرة حياة دينكسون التي وضعها هابغر موجودة في مكتبها في أمستردام، لكن تبيّن في النهاية أنها في الصندوق. جلست إلى طاولة المكتب وشرعت تقلّب الصفحات. في الصفحة ٢٤٩ - التي فُتح عليها الكتاب - كان هناك خط أحمر عريض تحت «لأن ليس هناك ما هو حقيقي كالـ 'الفكر والشغف'، فإن خيالنا وتخيّلاتنا هي التي تعبّر عن حقيقتنا الإنسانية الأساسية وليس أفعالنا». كانت هذه العبارة مقتبسةً من كتاب

كانت ديكنسون قد قرأته وهي في الحادية والعشرين وافتُرض أنه بلورها، إلى جانب نوبة سعال عمّها الأكبر وغير ذلك من الأحداث التافهة. هابغر ثرثار فارغ، لكنّها قامت مع ذلك، ببعض من الخوف وبشعور من الفراغ في معدتها، بنسخ المقطع على الصفحة المفتوحة من ديوان الشعر، قبل أن تقفل سيرة الحياة. ليس مجرّد فراغ بل ألم أيضاً، كان أقوى اليوم من العادة، وقد سكن حلقها ومؤخرة رأسها. توجّهت إلى الحمام وتناولت قرصي «باراسيتامول». يكاد يحين موعد مراجعتها الطبيب. لا يمكنها الاستمرار على هذا المنوال فترة أطول. تساءلت إن كانت قادرة على ذلك، هي التي كانت حتّى الأمس شبه متيقّنة من قدرتها.

32

غرزت بعد ظهر ذلك اليوم أوتاد الخيزران في العشب. كانت قد عثرت في زريبة الخنازير على قدّة خشبية متينة طولها أقل أو أكثر قليلاً من مترين، فاستخدمتها عصا للقياس: حيث قاست إلى داخل العشب طولاً مقدارُهُ ثلاث قدد وعرضاً مقداره قدّة واحدة. ربطت الحبل بين الأوتاد محوّلةً المكان إلى مستطيل، وشرعت تحفر ببطء realpagex0095xخطّاً في العشب. لم تفكّر بعد في إزالة الأعشاب، لكنها توصلت إلى أن المساحة تبلغ اثني عشر متراً مربعاً.

كانت بين الحين والآخر تستقيم رافعةً رأسها صوب الشمس. فجأةً حشر كلب رأسه بين ساقيها.

«لقد اشتاقَ إليكِ كثيراً».

استدارت. كان الفتى يقف بجانب زريبة الخنازير ويستند بأحد كتفيه إلى الجدار. بدا الكلب غير متفاجئ من عودتهما، وأخذ يتشمّم محيط خزان الوقود ثم اختفى خلف المنزل.

«ها هو، وقد رآكِ الآن، يبتعد من جديد»، قال من دون أن يتحرّك من مكانه. «على عكسي».

«ماذا حدث؟».

«لا شيء. لم أتمكّن من تدبّر مكان للنوم، فكل شيء مقفل في الجوار في هذا الوقت من السنة».

«هل سرت على طول الطريق إلى الجبل؟».

«كلاّ، لأنّني لو فعلت لما كنت قد عدت الآن». ثم رفع كيساً من الورق وقال: «جلبت شيئاً للأكل».

«من عند الخبّاز في وانفاور؟».

«نعم. كان محلّهما مقفلاً في المرة الثانية التي عبرت فيها، لكن المرأة كانت تقوم بالتنظيف. طلبت منّي أن أبلغك سلامها».

«كيف عرفتْ أنّك ستأتي إلى هنا؟».

«سألاني. سألاني من أين جئت وإلى أين أذهب».

«وأخبرتهما؟».

realpagex0096x

«طبعاً. لمَ لا؟ قدّمتْ أيضاً وجبةً لسام. قالت: «من الجيّد حصول السيّدة الهولندية على كلب».

شرع الكلب في النباح، ربما على الإوزات.

«ركض سام أمامي طوال الطريق، كما لو أنه يعرف مقصدنا تمام المعرفة».

«هل تجيد الرسم؟».

«نعم، لكن الأمر يتوقّف على ماذا أرسم».

«حديقة؟».

«آه، مخطط، نعم بالتأكيد. ولمَ لا؟ هذا في حال توفّر ما يكفي من الورق».

«أيمكنك وصل التلفاز؟».

«سأقول إنني أستطيع». نظر إلى سطح المنزل وقال: «هناك هوائي. يجب أن تتمكني من وصله إلى مكان ما في الداخل».

«أيمكنك الحفر وجرّ عجلة اليد؟».

«بالتأكيد».

«وماذا عن طبخ لحم الحمل؟».

«بلا ريب، مع الثوم وسمك الأنشوفة».

«يمكنك البقاء يوماً آخر».

هزّ برأسه وابتعد في النهاية عن جدار زريبة الخنازير.

«الأنشوفة؟».

«لن تحتاجي عندها إلى إضافة الملح».

«أفترض أنّك لم تتناول قهوة منذ الصباح؟».

«كلاّ. إذا قرّروا تحويل هذه إلى درب طويلة فعليهم أن يذكروا في الدليل إنها realpagex0097xدرب لا تلائم كثيراً أشهر الشتاء، بل حتى لا تتلاءم معها بتاتاً»، ثم أشار إلى زريبة الخنازير وقال: «يمكنك تحويلها إلى نُزُل».

قالت: «هيا ادخل».

نادى: «سام»!

كانت البقرات البنية الفاتحة قد اقتربت من حائط الحديقة من دون أن تلحظها، لكنها هربت في كل الاتجاهات عندما جاء الكلب راكضاً من حول زاوية المنزل. كادت الشمس أن تغيب؛ وكان يوم عملها قد انتهى.

33

حرّك الزوج قدمه. كان الجبس ثقيلاً ومربكاً؛ والكرسي مخلخلاً. كان نصف الحانة ممتلئاً بالزبائن. أزواج كثر متقاربو الرؤوس؛ الرجال وأمامهم الجعة، والنساء أمام معظمهن أكواب الكوكا. في الزاوية شجرة ميلاد بلاستيكية، وأغصان صنوبر وأضواء زينة فوق المشرب.

سأله رجل الشرطة، «كيف أصبت؟».

«صندوق كتب».

شربا جعتيهما.

«وجدتُ ما جعلني أرغب في النهاية في تقفّي أثرها».

«ما هو؟».

«آه»، ورفع الزوج كأسه إلى شفتيه.

قال الشرطي: «لا يمكن للشرطة أن تساعدك، فقد غادرت بمحض إرادتها. ليس هناك ما يدلّ على الإكراه».

realpagex0098x«وماذا عليّ أن أفعل إذاً؟».

«استخدمْ محقّقاً خاصاً».

«محقق خاص؟ ألهؤلاء وجود فعلي؟».

«ألديك فكرة عن المرّات التي يستخدم الناس فيها خدمات كهذه؟».

«لا، على ما يبدو».

«الجأ إلى الإنترنت».

«أيمكنك أن توصي بأحدهم؟».

«كلا. وحتى لو استطعت فمن غير المسموح لي القيام بذلك».

«هل العملية مكلفة؟».

«إلى حدّ بعيد. لكنّهم غالباً ما يتوصلون إلى نتائج سريعة».

أشار الزوج إلى كأس الشرطي الفارغة.

قال الشرطي: «سآتي بالجعة، فأنت لا تكاد تقدر على المشي»، ووقف وتوجه صوب المشرب لجلب كأسين أخريين. قال شيئاً للساقي، وضحكا، ثم عاد إلى الطاولة بشكل متعرّج.

سأله الزوج: «هل أنت متزوج؟».

«كلا، لكنني في علاقة. مع شرطية».

«هل... هل تقيم علاقة مع غيرها؟».

«طبعاً، فهذا طبيعي للغاية بالنسبة إلينا»، وحدّق الشرطي مباشرةً إلى عينيه، «لماذا تسأل؟».

«مجرّد فضول. حديث رجال، كما تعلم».

«هذا مخيّب للأمل. هل كانت لك صديقات إذاً؟».

realpagex0099x

«صديقة. واحدة فقط. لكنّها خانت أيضاً».

«وما المشكلة في ذلك؟ إنك دائماً تصعّب الأمور كثيراً».

«نعم، ربّما. النساء يختلفن عن الرجال».

«كلا لا يختلفن. ماذا تقصد؟».

«غذا ما خُنَّ، فهذا يعني أن هناك مشكلة كامنة».

«ألدى زوجتك إذاً مشكلة؟».

«نعم».

«أتريد أن تأكل شيئاً مع هذه؟».

«طبعاً».

«سأطلب بعض أقراص الكباب».

«ما الذي نفعله هنا؟».

«ماذا تعني؟».

«لماذا تزاملني؟».

صاح الشرطي: «آرت! صحن من أقراص الكباب!».

هزّ الساقي برأسه. امتلأت الحانة بالمزيد والمزيد من الناس الذين فتغبّشت النوافذ.

أفرغ الزوج كأسه.

قال الشرطي: «لماذا تزاملني أنت؟ يمكنني طرح السؤال نفسه عليك».

«اعتقاداً مني أنّك شخص لطيف».

«وأنا كذلك. هل حاولت الوصول إلى ذلك الطالب؟».

realpagex0100x

«كلا. ليس لدي أي معارف في الجامعة. وما الفائدة؟ أظن أنه لم يعد يداوم على حضور المحاضرات».

«ربما انتقل من هناك».

«لعله سافر، إلى مكان ما في آسيا، ربما الهند، بحثاً عن ذاته وطلباً للتنوّر».

«آه، إنه واحد من أولئك. ينتهي بهم الأمر على فراش على أرضية كوخ قذر وقد أصيبوا بالإسهال، مع طفل يصرخ ليل نهار في الغرفة المجاورة».

«نعم. ربّما. شكراً».

«على الرحب والسعة».

«ترى حماتي أن من الغريب أن أخرج معك لتناول الجعة. تعتقد أنّ عليك أن تزجّ بي في السجن. هل يعتقد الساقي ذلك أيضاً؟».

«نعم».

«همم».

«آرت! كأسان أخريان من الجعة!».

«هناك جانب لديها لم أفهمه قط. جزء كان دوماً بعيد المنال. كأنّني لم أفاجأ حقّاً برحيلها».

«ما الذي اكتشفته، حتّى جعلك فجأةً ترغب في التبليغ عن فقدانها؟»

«إنّها مريضة».

«مريضة؟».

«وقد تكون مريضة جدّاً، جدّاً».

«وها قد رحلتْ بعيداً مثل هرّة تزحف متراجعة؟».

«نعم، ربّما. فهي على أي حال قد رحلت بعيداً، بعيداً عني وعن أهلها».

realpagex0101x

وضع الساقي كأسين من الجعة على الطاولة، وقال وهو يضع يده لبرهة على كتف الشرطي: «أقراص الكباب على وشك الوصول».

«هذا مريع».

«شرعت في نهاية السنة الأكاديمية الأخيرة في أمر ما مع هذا الطالب»، وأخذ يتلفّت حوله. «ربّما لأنها كانت مريضة».

«ذاك الذي كنت تريد بتر عضوه؟».

«آه نعم، عفواً. أنت تعرف ذلك بالفعل. كنا نتحدث عنه وحسب».

«قلتُ إنّ ذلك غير مسموح».

نظر الزوج إلى الشرطي. «لم أدرك إلاّ الآن كم بدا لك الأمر مسلّياً».

«لم يكن مسلّياً على الإطلاق».

«لا، طبعاً لا. لكني كنت غاضباً».

«غضبت رغم أنك لم تكن أفضل بكثير؟».

«لم أعد غاضباً. أريد أن أفهم سبب قيامها بذلك».

وضعت امرأة طبقاً من أقراص الكباب بينهما وقالت: «انتبها، إنها ساخنة».

«شكراً»، قال الشرطي.

قال الزوج: «الأمر حتّى لا يتعلّق بما فعلَتْه، بل بكونها قامت به. أن يقوم المرء بأمور، بأشياء سرّية، أمور تُحجب عن الآخر كلياً، أي عنّي في هذه الحالة».

تناول كلّ منهما قرصاً من الكباب.

قال الشرطي: «ابحثْ في الإنترنت عندما تعود إلى المنزل. جِدْ محققاً واتّصل به».

«نعم».

realpagex0102x

«أليست لديك حقّاً فكرة عن المكان الذي ذهبتْ إليه؟».

«كلاّ. إنها خارج البلاد، على ما أعتقد».

«ولماذا تعتقد ذلك؟».

«إلى متى يمكنك أن تبقى مختبئاً هنا؟».

«حسب خبرتنا، قد تكون خلف الزاوية. فكلّما اقترب المرء صار أبعد».

«ذلك صحيح».

«إذاً أرادتك حماتك في السجن؟».

«نعم. تعتقد أنّ ذلك كلّه خطأي».

«وماذا عن حميك؟».

«يكتفي بقول: 'لا'، و'نعم' و'صه يا امرأة'. يأخذ كل شيء بصدر رحب».

تناولا بصمت ما تبقى من أقراص الكباب وهما يبرّدان حرارة لسانيهما بالجعة.

سأله الشرطي: «هل نقصد أحد المراقص؟».

«يا إلهي، يا رجل».

«كم سيستغرق ذلك من الوقت؟».

نظر الزوج إلى الجبيرة في قدمه. «ثلاثة أسابيع أو أكثر. كُتُبها هي السبب».

ضحك الشرطي.

أضحت الحانة أكثر اكتظاظاً وضجيجاً. لوّح الساقي للشرطي بطريقة لم يفهمها الزوج الذي نهض وأمسك بعكّازيه. «سأرحل قبل أن يمنعني الاكتظاظ المتزايد من المرور».

«أبقني على اطّلاع».

«سأفعل».

realpagex0103x

تصافحا. دفع الزوج الفاتورة وهو خارج، وعندما بلغ الباب والتفت إلى الوراء رأى الشرطي جالساً إلى المشرب. شيّعه الساقي بنظره وهو ذاهب. كانت تمطر. مضى وهو يعرج إلى موقف الترام وحاول أن يتخيّل شكل المحقّق الخاص في الحياة الحقيقية. كان هناك في لوحة الإعلانات الزجاجية ملصق لمتزحلق يرتدي سترة ويسوّق لنوع من الخبز. مرّت سيارة تاكسي مسرعة على خط الترام فبلّلت جبيرة الجبس.

34

سأل برادوين: «هل روتردام مدينة جميلة؟».

أجابت: «في الحقيقة، ليس فعلاً. بل إنها في الواقع بشعة».

«ألهذا أنتِ هنا الآن؟».

كان شعره مشعّثاً، فقد أتى نهض للتو عن الأريكة، ولم يسبق لها قط أن تاقتْ بهذا القدر إلى تمرير أصابعها عبره. كانت قد لاحظت بالفعل طريقته الخاصة في التنهّد، التي تجعل من شبه المستحيل مقاومة الرغبة في ملامسة رأسه. بدا كأن الكلب التقط تنهيدته. كان يطرح الأسئلة بشكلٍ طبيعي؛ فهكذا يتبادل الناس أطراف الحديث برأيه. فكّرت في أنها ربما تحتاج إلى الاستحواذ على الحديث، فقالت «صه» وهي تصب القهوة.

علّق: «أعتقد أنها كلمة جميلة».

«صه؟».

«نعم. ليست لدينا كلمة كهذه. كلمة تعني: ‘اخرس يا أنت’».

«كُلْ»، قالت.

realpagex0104x

قطع الخبز ورمى بشريحة عوجاء إلى سام الذي عثر على موقع ثابت له أمام الفرن. دهن شريحته بطبقة سميكة من الزبدة، وكان الراديو يبثّ أخبار حركة السير. رسم، وهو يأكل، دوائر على ورقة وتناوب على استخدام قلمي الماركر الأصفر.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

سأل: «ما الذي سنفعله اليوم؟».

«الحديقة».

«والتلفاز؟».

«آه، نعم. قُم بذلك أولاً».

«جيّد»، ومرّر لها شريحة من الخبز. «إنكِ لا تأكلين».

قالت: «أنا لا آكل كثيراً في الصباح».

وقف وقال: «حسناً. سأذهب لأنظّف أسناني»، ورافقه الكلب إلى الطابق العلوي.

نهضت وسارت إلى نافذة المطبخ. كان الضباب قد حلّ من جديد وحلّ معه السكون. الطقس جيّد للعمل، لكنّها كانت تتّكئ على المجلى كي يسندها. أضاءت شمعتين على حافة النافذة وأخذت تدندن مع الراديو. أدفأها الفرن. انسابت المياه في الأنابيب. أغلق الفتى صنبور الطابق

العلوي فأرسل ذلك قرقعةَ قوية عبر منظومة الأنابيب كلها. عاد الفتى والكلب إلى الطابق السفلي. سمعته يفتح باب المدخل ويقول: «اذهب وأمسك ببعض السناجب الرمادية». مسحت خدّيها بظهر يدها قبل عودته إلى المطبخ.

سألته: «سناجب رمادية؟».

«مهاجرون. إنهم يحتلّون المكان».

«مثلي تماماً».

«نعم، أنت مهاجرة أيضاً».

realpagex0105x

«لكنّك لا تفلت عليّ الكلب».

«طبعاً لا». فاحت منه رائحة معجون الأسنان الحادة. «أفي غرفة الجلوس؟»

«أعتقد ذلك».

مضى إلى خارج المطبخ. كان ريس جونز بجوربيه مثيراً للضحك، لكن برادوين لم يبدُ كذلك، فقد كان يرتدي جوربي تجوال، باللونين الأزرق والرمادي، من النوع الذي يحمل حرفي «ش» (شمال) و«ي» (يمين). سمعته يسير عبر غرفة الجلوس التي تبقي فيها المصباح العادي مضاءً طوال اليوم. تناهى إليها نباح بعيد من الخارج، بدا من الصوت أنه قادم من الجانب البعيد للجدول. صاح الفتى: «وجدته!».

مضت إلى غرفة الجلوس ورأته يقف في إحدى زواياها ممسكاً بالكابل المتدلّي من السقف.

قال: «إنها لحظة مشوّقة الآن في انتظار ما إذا كنّا سنتمكّن من وصله في مكان ما في التلفاز».

كانت بحاجة إلى الجلوس. ها هو الفتى غارق في ضوء اللمبة الأصفر وفرِح بعثوره على كابل الهوائي، وموقد الحطب مشتعل، بعد أن قلبت جمره في وقت مبكر من الصباح، مثل سندريلا، ونفخت عليه ليعاود الاشتعال من دون استخدام أعواد ثقاب. راقبته يرفع التلفاز من صندوقه الكرتوني ويضعه على الأرض في الزاوية. ركع على ركبة واحدة وراح يعبث بخلفية الجهاز وقد ارتفع قميصه القطني ليكشف عن عري أسفل ظهره من فوق حزام بنطاله الجينز. قال: «لقد انتهيت. أحتاج الآن إلى مأخذ كهربائي».

«هناك»، وأشارت إلى المقبس المزدوج الذي كان المصباح موصولاً به.

أوصل التلفاز إليه أيضاً وأشعله. ظهرت الصورة على الفور: بحر هائج، أناس في مراكب ذات مجاذيف يتمايلون حول ما بدا أنّه جناح طائرة صغيرة. قال برادوين: «إنه برنامج ‘عمليات إنقاذ حقيقية’، يُبثّ كلّ صباح من التاسعة والربع حتى العاشرة».

realpagex0106x

«رائع»، قالت. «أطفئه».

أطفأه ونهض. «هل أتابع العمل على الشجر؟».

«إذا كنت لا تمانع، فأنا أجده عملاً شاقاً جدّاً».

«طبعاً لا أمانع»، ونظر إليها.

سألته: «ألن تنهي العمل في تلك الدرب أيضاً؟».

«بالتأكيد، فهذا عملي. هذا ما أتقاضى أجري لقاءه».

«لكنك لن تقوم بذلك غداً؟».

«إذا كان الأمر يناسبك. أنا حر في وقتي».

قالت: «وأنا أيضاً».

«ربما يمكننا القيام بقسم منه معاً؟».

«أودّ كثيراً صعود ذاك الجبل في وقت من الأوقات».

مضى إلى الطابق العلوي وعاد بعد قليل وقد ارتدى معطفه وقبعته. «هل يمكنني استخدام أحد كراسي المطبخ؟».

«نعم. لا يزال الكرسي في الخارج فقد نسيت إعادته». لم تتحرّك عن الأريكة بالرغم من أنها تمنّت لو تقف قربه عند باب المدخل.

انتعل جزمته وخرج منادياً الكلب. دخلت نسمة هواء باردة إلى الغرفة. أشعلت سيجارة.

نهضت بعد قليل لوضع حطبة في الموقد، ثم مسحت أرضية المطبخ، وكان البخار يتصاعد بهدوء من غلاّية قديمة على الفرن. كانت تنظر إلى الخارج بين الفينة والأخرى، فترى برادوين يقف أحياناً على الكرسي ينشر، وأحياناً أخرى ينقل غصناً إلى الكومة الموجودة عند حائط الحديقة المنخفض وهو يكاد يختفي كلّياً في الضباب. لم يكن الكلب على مرأى منها. تساءلت إن كان قد لاحظ أنها تستلقي على أريكته.

realpagex0107x

35

جلست على أريكة غرفة الجلوس تشاهد برنامج «الهروب إلى الريف». كان برادوين قد أخذ السيّارة للتسوّق، وكان سام متمدداً عند قدميها. بكت بصمت عندما ظهر زوجان مضطربان على الشاشة والمرأة تصيح: «أفضّل الموت على التخلي عن هرري». الموقد الذي يحرق الحطب، الفرن الكبير، التلفاز والراديو الجديدان، الفتى والكلب، الحديقة. «كلب»، قالت فرفع سام رأسه وراح يلعق ظهر يدها. كيف فعلت ديكنسون ذلك يا ترى، فأخذت تزداد انطواءً، وتكتب الشعر كما لو أن حياتها تتوقف عليه، وتموت؟ حياة الروح، والحقيقة الإنسانية، أو الأصالة الإنسانية، تظهر عبر المخيّلة وليس عبر الأفعال. ارتشفت نبيذها الأحمر. دوماً النبيذ الأحمر، كأنّما هو نوع من المنشّط. اعتاد عمّها أن يحتسي كل ليلة كأساً من النبيذ الهولندي «بليغزوستر» ذي الفوائد الطبية. أما زالوا يصنعونه؟ النبيذ الأحمر المعزّز بالمعادن الواهبة الصحّة؟ «حاذِر الهر»، قالت المرأة على التلفاز، وتسلّقت درجاً ذا بساط قبيح من دون أن تداعب الهر القابع على إحدى الدرجات أو تعيره أي شكل آخر من الانتباه. افترضت، على الأقل، أن عمّها يشرب كل ليلة كأساً؛ لم تعرف ما الذي يفعله عندما لا تكون عنده. تساءلت عمّا سيجلبه الفتى إلى المنزل. أرادت أن تعطيه لائحة بالمشتريات، لكنّه لم يقبل. كما أنّه رفض أخذ ما حاولت إعطاءه من مال. فكّرت لبرهة وجيزة في زوجها، وشاهدته أمامها: يشدّ رباط حذاء الجري، ليستقيم من ثم ويفتح الباب، ويختفي. هل هو يجلس الآن في المنزل يعاقر الجعة بهدوء مفكّراً: «هل ستعود؟» ارتشفت جرعة كبيرة أخرى من النبيذ وأشعلت سيجارة. هنا، فكّرتْ؛ أنا هنا. الآن. كانت «المرأة الإنكليزية» تقف في حديقة تطلّ على مرج. «أستطيع أن أتخيّل نفسي مقيمة هنا، مع كلاب في الحديقة وخيول في الزريبة هناك». يا للبقرة اللّعينة، قالت لنفسها.

رفع سام رأسه عن مخالبه ونظر إلى الباب. تناهى إليها بعد ذلك صوت السيارة realpagex0108xثم صَفْق الباب ووقع أقدام على الحصى. فكّرت: لست أفهم. كيف أمكنني تحمّل الأمر هنا وحدي على مدى أسابيع متتالية؟

«هل أنت في الداخل تدخّنين من جديد؟» ودفع برادوين الكلب عن طريقه بركبته.

«نعم»، أجابت. جعلها منظر الباب المفتوح ترتعش.

«هذا سيّئ لك».

«أعرف».

«سمك»، قال. «اشتريت السمك وسأعدّ وليمة».

سمك، فكّرت. سيكون عليّ أن أتحوّل إلى اللحم الأبيض.

كان برادوين يحرّك شيئاً في القدر الموضوعة على الفرن. كان سام قد تناول طعامه، فأنهى يومه وأخذ في الشخير على البساط أمام موقد غرفة الجلوس. تطلّعت إلى ظهر الفتى ورسمت، وهي شاردة الذهن، دوائر على الورقة التي رسم عليها الدوائر سابقاً، بقلم ماركر أزرق. كان قد سبق لها أن جهّزت الطاولة. سألته: «ما كنيتك؟».

«جونز».

«هل يُدعى الجميع جونز هنا؟».

«نعم. وما كنيتكِ أنتِ؟».

أجابت: «لن أخبرك».

استدار مبتسماً.

سألها: «وما الفارق؟».

«لا شيء». عاود برادوين تحريكه الهادئ. نهضت ودارت من حول الطاولة وجلست قربه. رفع نظره، ودسّ سبابته في الصلصة وقدّمها لها، فلحستها من دون تفكير وهزّت رأسها موافقة. هزّ رأسه أيضاً وتابع التحريك. بدا كما لو أنّه أمضى realpagex0109xأسابيع في المكان يطبخ. أخذت علبة عيدان الثقاب عن حافة النافذة وأضاءت الشمعتين، وجلبت شمعداناً من خزانة المطبخ ووضعته على الطاولة وأضاءته أيضاً. لمّا جلست سمعت ثانيةً تكّة الساعة الحادة.

قالت: «جاء إلى هنا ذات يوم رجل يدعى ريس جونز».

«آها».

«الخراف التي في الحقل المجاور للطريق تخصّه».

«هل استأجرتِ هذا المنزل؟».

«نعم. كان لديه كل أنواع الترتيبات مع المقيمة السابقة، وكاد يلتهم نصف قالب الكعك، وجورباه مثقوبان».

نظر إليها الفتى بانشداه.

«أكرهه. سيعود ومعه حَمَل».

قال: «أنا هنا الآن».

نعم، فكّرت. أنت هنا الآن.

وضع برادوين القدر على الطاولة وسحب طبقاً من الفرن. «سمك الحدّوق».

لم تكن لديها أدنى فكرة عن هذا النوع من السمك ولم تبالِ. رائحته طيّبة وستبذل قصارى جهدها لتأكل منه ما أمكنها. جاء سام وقد اجتذبته الرائحة وجلس بالقرب منها، وليس بالقرب من سيده. سألته: «لماذا تفعل الكلاب ذلك؟».

«يعرف أنني لن أعطيه شيئاً. أنت الآن أشبه بأنثى من أعلى مرتبة».

«أنثى من أعلى مرتبة؟».

«تعتقد الكلاب أننا كلاب أيضاً».

«أنا شخص»، قالت للكلب، «شخص أنثى».

.مال سام برأسه جانباً وهو يبذل جهده ليبدو حزيناً realpagex0110x

وضع برادوين الأطباق على المائدة: بطاطس، قنّبيط، سمك وصلصة، وصبّ النبيذ أيضاً؛ نبيذ أبيض. رفع كأسه وقال: «نخب ريس جونز».

«لماذا؟».

«سيأتينا بحمل. نحن في شهر كانون الأول».

تشنّج بطنها والتوى، ولم تتمكن من النظر في عينيه. قطعت السمك وتناولت قضمة، فإذا بها طرية كالزبدة. مضغت وابتلعت، وتناولت قضمة أخرى.

سألها: «أهي جيدة؟».

«شهية»، قالت وهي تحني رأسها.

«ما الأمر؟».

«صه».

سمعته يقف. رأته من طرف عينها يدفع بإحدى ركبتيه الكلب جانباً. شعرت بيد، بساعد كامل على ظهرها وشمّت رائحة تنفّسه. ضغطت برأسها على بطنه وقالت: «أنا سعيدة لوجودك

هنا»، ورنتْ إلى ما تحت رجلي سرواله، إلى أرضية المطبخ الممسوحة جيّداً. جورب يحمل حرف «ش» وآخر حرف «ي». قدماه كبيرتان.

قال: «أنا هنا».

سألته: «لماذا أنت هنا؟».

قال: «صه» أو حاول أن يقولها، فطريقته الويلزية في لفظ الهاء تختلف عن طريقتها الهولندية في لفظها.

رفعت عنقها ومدّت ذراعها من فوق كتفها لتمسك بيده. «كُلْ. سيَبْرد».

دار برادوين بتثاقل من حولها عائداً إلى كرسيه، واضعاً في طريقه يدها بجانب صحنها. أخذ سام ينقل بصره بينهما ببعض الجموح. جلس الفتى، والتقط كأس نبيذه ورفعها وقال: «كانون الأول».

ابتسمت وقالت: «كانون الأول». تناولت كلّ ما في صحنها وشربت realpagex0111x معه كأساً أخرى من النبيذ. كان يشرب الآن بشراهة أقلّ ولاسيّما أنه تولّى صبّ النبيذ.

«سأشرع الليلة في قراءة إيميلي ديكنسون»، قال وهو يمطّ لفظ اسمها الأول.

لا يهم. لا بأس إذا أمكنه النظر إلى أعماقها. لعل كنيته ليست جونز أيضاً. وربما يأتي وقت تسأله فيه عن نفسه، أو قد تريد أن تسأله. فكّرت: لا أعتقد أنني أريد أن أعرف أي شيء عنه على الإطلاق. عليه أن يكون هنا فحسب.

36

كانت الشمس بعد ذلك بيومين مشرقة. وقفتْ وأسندت ظهرها إلى زريبة الخنازير فشعرت بحرارة الطوب الذي امتصّ الدفء وبهت لونه. قالت: «تعال». كان دخان سيجارتها يرتفع مستقيماً في الهواء، وكان الضباب يتدلّى بين جذوع الأشجار على امتداد الجدول. أنزل الفتى عجلة اليد الممتلئة بالحصى. كان قد سبق له أن أزال العشب من شكل المستطيل الذي رُسِم في الحديقة وأحاطه بصفّ من أغصان شجرة «جار الماء».

سألها: «أترغبين في بعض القهوة؟» وكان قد رفع قبعته بحيث باتت تجثم الآن على خلفية رأسه والعرق يتلألأ على جبهته.

«لا، بل سنذهب في نزهة».

تلفّت حوله. «سام!».

«لا يمكنه المجيء. يجب أن نبقيه في المنزل ونقفل الباب».

«سأضعه في الحظيرة، لأنّه سيمزّق المكان كونه لا يطيق البقاء وحده». جاء الكلب راكضاً متجاوزاً خزّان الوقود. أمسكه برادوين من طوقه وجرّه إلى الزريبة. «فلنذهب، بسرعة».

realpagex0112xسارا بموازاة حائط الحديقة إلى البوابة.

«لماذا لا نتسلق الحائط؟».

«لا أستطيع».

«لستِ مسنّة إلى هذا الحد».

«لا، لست مسنّة إلى هذا الحد. أتعرف كم عمري؟».

«لا أبالي».

عبرا البوّابة وتبعا حائط الحديقة إلى العارضات الخشبية الموضوعة فوق الجدول. كانت الأبقار ذات اللون البنّي الفاتح ترعى في الطرف الآخر من الحقل، على مسافة أبعد بعض الشيء. أمكنهما سماع النباح المتصاعد من زريبة الخنازير. بقي برادوين وراءها حتى حين كانت الدرب تتّسع بما يكفي ليسيرا جنباً إلى جنب. سمعت هدير محرّك سيّارة تسير في مكان ما ولم تتمكن من تمييز وجهة الصوت. ذكّرها ذلك بالقطار البخاري، وجعلها تتخيّل الفتى يجلس قربها على مقعد خشبي داخل القطار. تسلّقت السلّم متوقّعةً أن تشعر في أي لحظة بيد على يدها أو بركبة على بطة ساقها. لمّا بلغا الحلقة الحجريّة التقطت من جديد رائحة جوز الهند وتساءلت عمّا إذا كانت أزهار الوزّال تصدر رائحة مشابهة لجوز الهند. جلست على الصخرة الأكبر وأومأت إلى الفتى كي يأتي ويجلس قربها. جلس، فقالت: «كنت متمدّدة هنا عندما عضّني الغرير».

أخذ نفساً وأزاح جسمه إلى الوراء وإلى الأمام.

«أنت لا تصدّقني، أليس كذلك؟».

«لا».

«اجلسْ ولا تتحرك».

سحبت علبة السجائر من جيب معطفها وأشعلت واحدة.

realpagex0113xسألها: «ما الذي تفعلينه؟».

«لا تتكلم».

*

استسلمت بعدما دخّنت سيجارة ثانية وقالت: «لنذهب».

سألها: «ما الذي لم يحدث؟».

«كل مرّة أجلس فيها هنا يطلّ غرير برأسه من تحت تلك الأكمات».

«في النهار؟».

«طبعاً، أم تعتقد أنني أجلس هنا في منتصف الليل؟».

«لم يسبق لي قط أن شاهدت أي غرير. ليس واحداً حيّاً».

«أنا رأيته. رأيته ثلاث مرات».

«آها»، قال الفتى.

«تعال».

عند السلّم، تشوّش نظرها ثم استحال كل شيء إلى الأرجواني الداكن، ووجدت نفسها بعدما استعادت وعيها تستند إلى عارضة، والفتى ملتصق بظهرها ويحيطها بذراعيه. رأت عشباً كثيفاً، وسياجاً من الشريط الشائك الصدئ، وجذوع أشجار ودعامات مهترئة ووحلاً. سمعت سام ينبح بما يشبه الأنين وأدركت دون تأكّد أن الصوت الذي يصلها قد يكون نباحاً شديداً جداً لكنه يصلها خفيفاً بسبب المسافة البعيدة. ثم سمعت زقزقة مضطربة، فكّرت: أيّ نوع من الطيور هذا؟ أريد أن أعرف. لكن لا وقت، لا وقت. اشتمّت رائحة لاذعة، رائحة كانت تَعتبر حتى وقت قريب أنها رائحة الأوراق المتساقطة، أو الحطب، لكنها فهمت أنها رائحة العارضة التي تستند إليها بيديها. شعرت بجسد الفتى، الذي بدا كأنه ملتصق بجسدها على امتداد realpagex0114xجذعها كلّه. كان يتنفّس عند مؤخرة عنقها وذراعاه معقودتان حول بطنها كما لو أنه يخشى أن يسقط منها شيء. «هيّا، هيّا»، قال وهو يشجّعها على الاحتفاظ بهدوئها، مستخدماً كلاماً إنكليزياً لا مرادف له بالهولنديّة. لم تعلم إن كان قد أدرك أنها استعادت وعيها. قالت لنفسها: «يجب أن آكل. يجب أن آكل أكثر». تحرّك شيء في إحدى الأشجار وانزلق نزولاً على الجذع. ركض سنجاب رمادي عبر الطريق. توقّف وجلس مستقيماً وقدماه الأماميتان الصغيرتان مكتوفتان باحتشام عند صدره. بدا كأنّه ينظر إليها، ثم عدا مبتعداً. هل يعتقد كائن صغير كهذا أنني سنجاب بدين بعض الشيء مع سنجاب آخر على ظهري؟ هل يرى السنجاب الناس بالطريقة التي يراهم فيها الكلب؟ لم تسو جسمها لأنها أرادت للفتى أن يمسك بها وقتاً أطول بعض الشيء. راقبت السنجاب إلى أن صعد إلى شجرة عند أسفل

الدرب تماماً. حدث ذلك كله من دون أي صوت. وكان الطير قد صمت أيضاً. أدركت على الفور أن: «يجب أن أُبعده. عليه أن يرحل. لا يمكنني القبول بهذا». قالت له: «لن أقع».

أفلتها الفتى. «لكنك سقطتِ أرضاً قبل دقيقة».

«لن أسقط بعد الآن».

«أيمكنك تسلّقه؟».

«أعتقد ذلك». رفعت إحدى قدميها ووضعتها على الحاجز السفلي للسياج. فكّرت: إنها القدم التي عضّها الغرير. ووضعت قدمها الأخرى بجانبها. رأت أنها ستتمكّن من تدبير أمرها وحرّكت إحدى يديها من العارضة إلى القائمة. وقفت في الجانب الآخر وهي تلهث قليلاً واستدارت لتواجه الفتى ورأت الأبقار السود التي كانت قد رأتها في اليوم الذي توجّهت فيه إلى البركة. أبقار سود سواد شعره، وخفضت بصرها من شعره إلى عينيه. لونهما رمادي داكن. لم تتمكّن من النظر مباشرةً في عينيه، لم تستطع في الحقيقة قط النظر مباشرةً في كلتا عينيه، بل كان عليها دوماً أن تختار بين اليمنى أو اليسرى.

37

كان برادوين يطبخ من جديد. لم يسأل قبل أن يشرع في الطبخ وبدا أنه يستمتع به. وقد أعدّ الليلة معكرونة مع صلصة احتوت، إضافةً إلى أمور أخرى، على كمية كبيرة من الثوم. قال: «الثوم صحي. يجب أن تأكلي منه قدر ما تستطيعين». كانت الريح قد بدأت بالهبوب بعد الظهر وأخذت تشتد، وكان الراديو قد حذّر من عاصفة. قال وهو يضرب نافذة المطبخ بأحد أغصان المعترشة: «لقد سقط هذا الغصن من نبتة الحُلوة [7] الصينية». حاولتْ أخذ الأمور بإيجابية. ثمة من يتخذ القرارات ويبلغها بما يتوجّب القيام به، ومن يمسك بها بقوة، عند الضرورة. وقبل أن يأكل حتى، سأل عن مكان مقص الشجر وتوجّه إلى الخارج حاملاً أحد كراسي المطبخ. لم تستطع أن ترى إلا ساقيه وقد أضاءتهما الشمعتان الموضوعتان على حافة النافذة. كان الكلب قد بقي في الداخل، لكنه كان يقف أمام الفرن وأذناه منتصبتان وقد اشرأبّ رأسه. فكّرت: نبتة الحُلوة الصينية، ما اسمها بالهولندية؟ أمكنها سماع الريح تصفّر في مدخنة غرفة الجلوس، وزئير الموقد الذي يحرق الحطب. كانت هناك زجاجة نبيذ أحمر مفتوحة على طاولة المطبخ.

قالت له، لمّا عاد إلى الداخل، «يجب أن ترحل».

كان شعره مائلاً كلّه في اتجاه واحد، وكان يمسك بيده غصن النبتة.

أضافت: «إلى النُزُل التالي الذي يقدّم المنامة والفطور، ومن ثمّ إلى واحد آخر على مسافة مسيرة يوم من هناك».

قال: «محال». «سأسكب لك الآن عشاءك وأصبّ لك من بعدها كأساً من النبيذ».

قالت: «غداً».

realpagex0116x«لا».

«اسكب إذا، وصبّ».

وضع برادوين الغصن على الأرض وصبّ كأسين من النبيذ. أخذ يبتسم أثناء العشاء. لم يقل شيئاً لكنّه واصل الابتسام وشرْب النبيذ وإعادة ملء كأسيهما، ومرّر في النهاية أصابعه في شعره. صفّر بهدوء للكلب، وفرك عينه بإحدى أصابعه ولحس سكّينه.

قالت: «أنت لا تأخذني على محمل الجد، أليس كذلك؟».

«صحيح».

تنهّدت وحاولت من جديد أخذ الأمور بإيجابية، وهو أمر يسهل إلى حد كبير بعد كأس ونصف الكأس من النبيذ.

قال: «أنا باقٍ».

«سنرى».

«لم يشارف العمل في الحديقة على نهايته وأفترض أنك تريدين إنجازه في تاريخ محدد؟».

«ما الذي يجعلك تفترض ذلك؟».

«مجرّد شعور».

«أنا أيضاً تكون لديّ مشاعر أحياناً».

«أحقّاً؟».

«وأجدها بالأحرى متعبة. أكتفي بدلاً من ذلك بتجرّع المزيد من النبيذ».

كانت الريح قد أخذت تولول حول المنزل، وكان الخيزران، بالرغم من تشذيبه، يحتكّ بجدار المطبخ. كان ثمة ما يطرق على النافذة بين الحين والآخر. كان الكلب نائماً لكن بتململ، ينشج وسيقانه تنتفض.

«صبّ لها برادوين المزيد وقال: «إنّه يحلم realpagex0117x.

سألته: «إذاً، ما رأيك بديكنسون؟».

«لا شيء».

«لا شيء؟».

«لم أقرأ لها، فأنا لا أفهم الشعر».

«هذا سبب آخر يدعوك إلى الرحيل».

ابتسم من جديد، أو بالأحرى واصل الابتسام. «قهوة؟».

سألته: «ألديك هاتف جوّال؟».

«نعم».

«هل تستخدمه أصلاً؟ فأنا لم أره حتى».

«كلا، فأنا لا أعرف أحداً».

«هذا هراء بالطبع».

أفاق الكلب ونبح مرّة واحدة كما لو أنّه فهم، ثم نهض ومضى ليقف لاهثاً حيث يلتقي المطبخ بغرفة الجلوس.

قالت الفتى: «لو كنت مكانكِ لأخذت حذري، فهو يعضّ».

«ألك أبٌ وأمّ؟».

تردّد. «طبعاً».

«إنك تعرف من هما أبواك إذاً». ألا تشعر بالحاجة إلى الاتصال بالمنزل أحياناً لإطلاعهما على ما تفعل؟».

«أنا هنا الآن».

راودتها رغبة قوية في الإمساك بثدييها في محاولة لإيضاح أمر ما، وكادت تفعل realpagex0118xذلك لكنّها - وقد سيطرت على يديها في منتصف الطريق- دفعت بدلاً من ذلك بكأسها وشرعت في البكاء. لم يأتِ الفتى بأي حركة، بل ظل قابعاً في مكانه. وقفت وسارت إلى الدرج، متجاوزةً الكلب الذي لعق ظهر يدها. ملأت حوض الحمام بالماء، ووضعت فيه دفقة من الصابون الرغوي بالأعشاب المحلّية. لم تقفل الباب، علماً أنه الباب الوحيد في البيت الذي يمكنها إقفاله. نزعت عنها ثيابها ونزلت في الماء. في النهاية، هذا هو المكان الذي تشعر فيه بأن حالها أفضل: مستلقية على ظهرها في المياه الساخنة، واعية بجسدها الذي بدا لها خالياً من العيوب والأمراض، لاسيّما مع استفحال العاصفة في الخارج. تراءت لها أروقة «مركز ديكنسون للوازم الحدائق» وصفوف أكمات الورد، وفكّرت في النحل في أواخر الربيع. قالت في نفسها: هيّا إذاً.

38

ارتجّ زجاج النافذة. وما إن ظنّت أن الهبّة الأخيرة كانت الأقوى، حتى زمجرت الريح بقوّة أكبر. غاصت أكثر تحت اللحاف، تأرجح باب غرفة نومها وفتح قليلاً؛ ودخلت القعقعة من بيت الدرج. تكوّرت على نفسها بشدة، وضمّت ثدييها عبر قماش ثوب نومها الرقيق، واضعةً يدها بين ساقيها، ورافعةً ركبتيها كما لو أنها تحمي نفسها، وهي تفوح برائحة الأعشاب العطرية. كانت الريح الآتية من البحر الإيرلندي تزمجر. هزّت رأسها لتنزع منه صورة الباخرة الكبيرة، وكؤوس الجعة،

والوجبات المقليّة الخفيفة وهي تنزلق على منضدة الحانة، واللوحات المتدلّية بعيداً عن الجدار، وكرات الروليت وهي تقفز عبر السجادة الحمراء، والمهرّج على المسرح الصغير وقد تنحّى جانباً، ليتقيّأ لناحية الأجنحة. ابتلعت ريقها وتخيّلت برادوين على مربّع أزرق الحواف، ويتحرّك حصراً بطريقة مائلة، مرتدياً سروالاً قصيراً، وجوربيه اللذين يحملان حرفي «ش» و«ي» وقد انزلقا قليلاً إلى الأسفل. رأته يدور في دوائر على يديه، وقد ثنى realpagex0119xمرفقيه وانتفخت العروق في عنقه. تخيّلت سام جالساً على كرسي عند طرف المربع الأزرق ينبح فيما سيّده يتقلّب في الهواء، ويكاد يطير، ثمّ يهبط وساقاه منتصبتان في وسط إحدى الزوايا تماماً، قبل أن يرفع ذراعاً واحدة ممدودة كاشفاً عن إبطه. فضلاً عن هدير العاصفة صرّ شيءٌ ما. بدا انشطاراً أكثر منه صريراً: خشب قديم، حيّ، يتحرّر من الأرض. أدركت أنها لم تعد تفكّر في الماضي، وقد صفا ذهنها من كل ذكريات الزوج والطالب وعمّها وعيد الميلاد بشموعه ذات الرائحة اللطيفة التي على شاكلة «بابا نويل». تأوّهت، لأن الشمعة كانت قد باتت في رأسها الآن، وقد وصل احتراقها حدّ خاصرة «بابا نويل» وخلّفت لطخة من الشمع الأحمر على مفرش الطاولة الورقي الخاص بعيد الميلاد، إلى جانب طبق من القرنبيط بالجبن ولحم البقر المحمّر والمقطّع إلى شرائح رقيقة. تذكّرت أمّها أيضاً، التي لم تكن قادرة قط على التمتع بعشاء الميلاد لأنها كانت تخاف جدّاً من إزاحة نظرها عن شموع زينة الميلاد الموضوعة فوق التلفاز. فكّرت في النهوض. هل تنزل وتجلس قرب الفرن وتشعل سيجارة؟ وربّما تعدّ بعض الشاي؟

انتصبت كما لو أن شرارة مسّتها، رمت باللحاف جانباً ونهضت. أسندت يدها إلى النافذة وشعرت بثقلها. اسودّت الدنيا للحظة في عينيها؛ فقد نهضت بسرعة كبيرة جدّاً. ومضت الأنوار في البعيد، لا، بل هي الأغصان تهتزّ إلى الأمام والخلف فتحجب النور مع اشتداد العاصفة وانحسارها. وسّعت فتحة الباب، وتلمّست طريقها إلى الدرج وقد ألقت بثقل إحدى يديها على درابزين بيت الدرج. كان الموقد لا يزال مشتعلاً في غرفة الجلوس في الطابق السفلي، وكان ضوء أحمر خافت يضيء ممسحة الأرجل التي كُتب عليها «أهلاً وسهلاً» عند باب المدخل وبقربها جزمة الفتى.

أشعلت الشمعتين اللتين على حافة النافذة ووضعت إبريق الشاي على الصفيحة الأكثر سخونة. احتكّ الخيزران بالجدار الجانبي وصفق باب في مكان ما، إنّه باب زريبة الخنازير فقد أمكنها سماع الصليل المعدني للمقبض القديم الطراز. لم تكن realpagex0120xتمطر وكانت النافذة جافة. بدأ الماء بالغليان، فملأت كوباً وضعت فيه كيساً من الشاي. انتظرت اختمار الشاي، وعمدت إلى تدليك جبهتها وصدغيها وبطنها. لا شيء. لم يكن هناك شيء في الخارج. التقطت علبة السجائر عن الطاولة وأشعلت واحدة. أحرق الشاي الساخن لسانها فلعنت بصوت خافت. أشعلت على الفور سيجارة أخرى بعدما أطفأت الأولى بسحق عقبها. جلست على كرسي بين الطاولة والفرن وأدارت رأسها صوب الساعة. لم تتمكّن من سماع تكّاتها الحادة بسبب الجلبة القوية التي كانت تثيرها الريح. كانت الساعة الثانية وعشر دقائق. تناهى إليها نوع آخر من التكّات مصدرها غرفة الجلوس، وأدركت مع ظهور الكلب في المطبخ أنها أصوات مخالبه على الدرج الخشبي.

قالت: «هاي». دلّى الكلب رأسه وأخذ يقترب منها ببطء، وكأنه يشعر بالندم من شيءٍ ما، ولو أنها لم تتمكن من تصوّر ما هو هذا الشيء الذي يُشعره بالندم. سألته: «هل جافاك النوم أنت الآخر؟» نظر إليها سام بانتباه متتبّعاً الدخان المتصاعد من فمها ثم أسند رأسه على ركبتيها. أدّت تنهيدته إلى ارتعاش القسم السفلي من حاشية ثوب نومها. سحقت عقب سيجارتها ووضعت يدها على رأسه، وهمست: «أين سيدك؟» فشرع الكلب «يئنّ بهدوء.

39

كانت الريح قد انحسرت تماماً صبيحة اليوم التالي. كان برادوين يقف قرب شجرة سنديان هوت في الجدول فبدت مستلقيةً فوق مائه. كان يشدّ أحد أغصانها ومنشاره جاهز باليد الأخرى، وكان قد سبق له أن أعاد تعليق باب زريبة الخنازير الذي انتُزع عن مفاصله. كانت تراقبه مستندةً ببطنها إلى الفرن. وضعت الكوب التي شربت منه الشاي قبل ساعات تحت صنبور الماء وروت النبتات المزهرة الثلاث على حافة النافذة. كان سام يركض عبر الحديقة وفي فمه غصن، وكانت الأبقار واقفة عند سور الحديقة وهي تراقب بفضول ووجل. أزالت بيدها المبسوطة بعض الفتات عن منضدة المطبخ وراحت تشتمّ: أهو المطبخ الذي كانت تفوح منه رائحة المرأة العجوز أم أنها رائحتها هي؟ شرع إبريق القهوة يفور بهدوء.realpagex0121x

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

«أعتقدُ أنها ستثلج»، قال الفتى وهو يدخل. «حلّ البرد».

قالت: «آها» من دون أن تستدير.

«سنذهب إذن إلى الجبل».

«أليس عليك المضي في عملك على الدرب؟».

ساد الهدوء من ورائها لبرهة، قبل أن يجيب الفتى: «بالتأكيد».

«لكن ليس الآن؟».

«ليس الآن».

تنهّدت.

«لديّ أمور أخرى تشغلني الآن».

«مثلاً؟».

«أحواض الورد. شجرة الميلاد».

استدارت من دون أن تبتعد عن الفرن. «شجرة الميلاد؟».

«صحيح. يكاد الميلاد يحلّ». وقف إلى جانب الطاولة وقبّعته بيده. كان شعره الأسود ملتصقاً بجبهته وكانت هناك نثارة سنديان على ياقة معطفه. كان يرتدي اليوم جوربين، عليهما حرفا «ش» و«ي» أيضاً، ولونهما أحمر وأزرق.

«هل من ثياب تريدني أن أغسلها لك؟».

قال: «لا ضرورة لذلك، لكن لديّ ملابس متّسخة».

«حسناً، أنت تقوم بالحفر وأنا بالغسيل».

نظر إليها لكن لم يتفوّه ببنت شفة.

«وأفترضُ الآن أنّك تودّ بعض القهوة» realpagex0122x.

«نعم، من فضلك»، وجلس أخيراً.

«أين الكلب؟».

«يركض صعوداً ونزولاً على طول سياج حقل الإوز. إنه يقوم بذلك منذ مدّة».

«لماذا؟».

«ليست لديّ أدنى فكرة».

«ألديك أي معرفة بالإوز؟».

«ليس حقّاً».

صبّت القهوة ووضعتها أمامه على الطاولة. «أتريد بسكويتاً؟».

«نعم، من فضلك. تأكلي منه أنتِ أيضاً؟».

«لا».

«ولمَ لا؟».

«برادوين»، قالت. «توقّف».

«حسناً»، قال. «لكنّك لم تقولي «صه» بعد».

ابتسمت ووضعت البسكويت بجانب كوب القهوة، ثم سارت وتجاوزته إلى الطاولة الجانبية وأدارت الراديو.

«نعم»، قال الفتى بصوت مرتفع كفاية. «تلك طريقة أخرى».

كانت تقف عند باب المدخل لتسأله عما يريد غسله، لكنّ منظر ظهره المنحني حال دون ذلك. كان يحفر، فذهبت لتغسل وهي تجرّ نفسها صعوداً على الدرج ويدها اليسرى متمسّكة بالدرابزين. توجهّت بدايةً إلى الحمّام لتناول «باراسيتامول» ثم عبرت بيت الدرج. كانت قد مرّت بضعة أيّام على دخولها المكتب. كان الجو بارداً، realpagex0123xولاسيما أن زجاج النافذة التي تعلو طاولة السنديان مرفوعاً بعض الشيء. كان ديوان «قصائد مختارة» قابعاً في المكان نفسه حيث تركته، وتنبّهت إلى أن الملاحظة التي كتبتها على الصفحة مهتزّةٌ بعض الشيء. وضعت ثلاثاً من أصابعها على الصفحة ونظرت إلى الحديقة في الأسفل. كان الفتى يعمل بطريقة منهجية: كان قد نقب بالفعل جزءاً كبيراً من المستطيل المحدّد، ثلماً بثلم، وكان الآن قد غرز المعزقة في الأرض ويقف عند باب زريبة الخنازير المفتوح موجّهاً نظره نحو القبو في الأسفل. كان البخار يتصاعد من كتفيه، وكان معطفه ملقى على سور الحديقة. ما الذي رآه هناك؟ كن فراشاً سويّاً منذ مجيء برادوين، لم تستحضر ديكنسون إلاّ لماماً. توجّهت صوب رفّ الموقد حيث أُسنِد إلى الجدار مستطيلٌ بني بأربعة أبازيم معدنيّة. يبدو أن في الصورة شيء لم يعجب الفتى، فقلبتها.

توجّهت من رفّ الموقد إلى الأريكة لتسوية اللحاف. كانت هناك خلف الأريكة كومة من الملابس: جينزات، جوارب «ش» و«ي»، قميص قطني، وسروالان تحتيان. كانت حقيبة ظهره في الزاوية. تردّدت، ثم قامت سريعاً بجمع الثياب، ونظرت، قبل أن تغادر الغرفة، عبر النافذة الخلفية الصغيرة. كان الكلب لا يزال يركض جيئةً وذهاباً على مقربة من الإوزات، وأنفه إلى الأرض، فيما كانت الطيور نفسها متكوّمة معاً على مقربة من المأوى. كانت السماء رمادية ضاربة إلى الصفار.

لمّا صارت في المطبخ جلست القرفصاء قرب الغسّالة وأدخلت فيها ثيابه، كل حلّة بحلّتها. لم تكن رائحة المرأة العجوز، سواء بقيت عالقة في المطبخ أم رشحت من الغسّالة أم من أي مكان آخر، لتحظى بأي فرصة أمام رائحة جواربه الزرقاء والرمادية النتنة. قالت في نفسها: عليه أن يرحل. اليوم وليس غداً. ثم عمدت، لتعبئة الغسّالة، إلى تعرية سرير غرفتها وأضافت إلى الحِمل غطاء اللحاف والشرشف وغطاء الوسادة. كن وسادةً مستديرة. في المذياع كانت فرقة «وام!» تغنّي «لاست كريسمِس» (في عيد الميلاد الماضي).

40

كان لوجه الفتى الأحمر الشعر في «مركز ديكنسون للوازم الحدائق» مظهر مختلف جدّاً هذه المرّة. كان يجول في مرأب السيّارات معتمراً قبعة «سانتا» الحمراء مقدّماً يد العون حيثما تدعو الحاجة إلى المساعدة. توقّف في مكانه عندما رأى برادوين الذي كان قد غادر المخرج وراءها تماماً حاملاً شجرة الميلاد. رأته يتردّد: إذ لم يكن في استطاعته التظاهر بأنه يحدّق إلى شخصٍ آخر. كان الثلج يتساقط خفيفاً، وكان جميع موظفي مركز ديكنسون للوازم الحدائق يرتدون طاقية «سانتا»، وكان المكان كله يعجّ بأشجار الميلاد المزيّنة حتى بين طاولات ركن القهوة، وكانت ترنيمة الميلاد تتردّد في مختلف أنحاء المكان. كانت الورود قد أُزيحت جانباً لتفسح المكان لرفوف ملأى بالشموع وغير ذلك من زينة الميلاد، فلم تتمكن من العثور عليها بسهولة. انتقت اثنتي عشرة شتلة ورد ثم طلبت من برادوين اختيار شجرة ميلاد، معتقدةً أن في الإمكان رميها في الزاوية وتزيينها والانتهاء من الأمر. اختار واحدة لها جذور قائلاً إنها مفيدة، لأن في الإمكان غرسها في كانون الثاني في الحديقة. عندما رأته يجرّ الشجرة عبر الأجنحة، أدركت أنها تحتاج إلى أدوات زخرفة وخيوط برّاقة وأضواء زينة.

أخذت أصص شتلات الورد تقعقع في العربة الكبيرة؛ بالكاد أمكنها النظر إليها، فقد كانت تشعر بألم في رأسها.

«أكلّ شيء على ما يرام؟» سألها صاحب الشعر الأحمر لدى مرورها به. قالت: «نعم، لديّ مساعد اليوم»، ورمقته بنظرة جانبية. سمعت برادوين يقول: «مرحباً يا صاح»، بنبرة مرحة نوعاً ما عنت، بلا شكّ، شيئاً ما. أشاح الفتى بنظره متفحصاً مرأب السيارات. شرع سام، الذي كان جالساً في السيارة، ينبح بانفعال.

أخذ برادوين يقود السيّارة صاعداً الدرب بحذر شديد؛ وكان ارتفاع الثلج قد بلغ إنشاً واحداً. كانت جالسة ويداها في حضنها وتحصي الإوزات. كانت أربعتها كلّها realpagex0125xلا تزال موجودة ورأت الآن، بفعل ما يحيط بها من بياض، مدى قذارتها وسطوع لون مناقيدها البرتقالي. وكانت الخراف أكثر سواداً من المعتاد. لم ترَ آثار الإطارات إلا عندما نظرت إلى الأمام في اتجاه المنزل.

قالت: «لقد جاء أحدهم إلى هنا».

لم تكن هناك ملاحظة على الباب هذه المرة.

فكّرت: منذ متى لم أقدّم إلى تلك الحيوانات ما تأكله؟ ورأت لاحقاً، وهي تأخذ بعض فتات الخبز للإوزات، أنّ آثار الإطارات تمرّ عبر الحقل، وأن الخراف متجمهرة على مقربة من السياج.

41

كان ارتفاع الثلج قد بلغ الإنشين في الصباح، وكانت أوراق شتلات الورد، التي غرسها الفتى على مقربة من الأرض المحروثة حديثاً، قد صارت بيضاء.

قالت بعد الفطور: «يجب أن أذهب إلى كيرنارفون».

كان برادوين قد أكل الكثير كالعادة، وكانت القهوة قد جهزت للتو.

«ما الذي سنفعله هناك؟».

«أنا».

«ما الذي ستفعلينه هناك؟».

«هذا ليس شأنك».

«هل عليّ أن أقود السيارة؟».

«لا».

لم يقل أي شيء آخر realpagex0126x.

قالت: «شكراً».

«وماذا عليّ أن أفعل؟».

«متّع نفسك. ربما عليك أن تتصل بوالديك لمرّة».

أخذ نفساً وأشار بإبهامه من فوق كتفه إلى الدرج على الجانب الآخر من الجدار. «أشكرك على غسلك ثيابي».

أشعلت سيجارة ثم قالت: «أشعل النار في موقد غرفة الجلوس وفي غرفة نومك أيضاً إن شئت».

«لم يعد هناك الكثير من الحطب».

«استعمل ما تبقّى».

«هل أزيّن شجرة الميلاد؟».

«إذا أحببت».

«أين أضعها؟».

نظرت في أرجاء المطبخ. كانت هناك مساحة خالية قرب الطاولة الجانبية، أشارت إليها بالسيجارة قائلةً: «هناك؟».

«إنها بقعة جيدة، وسنستطيع أيضاً رؤيتها من غرفة الجلوس. فيمَ أضعها؟».

لم تنظر إليه. لم تستطع النظر إليه. فيمَ يضع المرء شجرة ميلاد لها جذور؟ سحقت عقب السيجارة وأطفأتها. «لا بدّ من وجود شيء في زريبة الخنازير أو في الخارج في الخلف. لا أدري».

قال الفتى: «سأجد شيئاً».

سارع الكلب إلى الوقوف على قوائمه وتوجّه صوبها وأخذ يلعق يدها. شرعت في البكاء.

لم ينهض الفتى. قال: «لا داعي للبكاء. لا أدري سبب بكائك، وإذا realpagex0127x سألتُ فستكتفين بقول «صه»، ولن يوصلنا ذلك إلى أي مكان. لكن ما من داعٍ للبكاء».

«نعم»، قالت وهي تشهق.

«مهما كان ما ستفعلينه في كيرنارفون، فستجدين لدى عودتك شجرة الميلاد جاهزة، والموقد في غرفة الجلوس مشتعلاً. سأذهب بعد قليل إلى وانفاور لشراء خبز طازج. أعلم أنك لا تأبهين للطعام، لكنني سأوفّره. ولن اتّصل بأهلي. لن اتّصل بأحد لأنني هنا الآن. ستجلسين في الخامسة والربع بعد ظهر هذا اليوم على الأريكة وتشغّلين التلفاز وتشاهدين «الهروب إلى الريف»، وسأتولّى في غضون ذلك الطبخ. السمك. ستأكلينه وتتناولين معه كأسين أو ثلاثاً من النبيذ، ثم سنشرب الشاي وقد نقوم بعدها بتخطيط الحديقة معاً أو بمشاهدة فيلم. تعرض «بي. بي. سي» دوماً أفلاماً رائعة في فترة الميلاد. ستأوين بعد ذلك إلى السرير، وإذا أردتِ سأشعل نار الموقد في غرفة نومك قبل ذلك بساعة. كما أنني سآخذ السيّارة والمقطورة في أيّ وقت لأحضر المزيد من الحطب. يمكنني حتى دفع ثمنه. وسننام سام وأنا على بُعد غرفتين منك. سنكون هنا. سننتظر معك الحَمَل الذي وعدك به ذلك المزارع ريس جونز».

جلست وقالت: «نعم. الحمل. لقد جاء إلى هنا أمس».

«رأيت ذلك».

«جلب تبناً للخراف».

«رأيت ذلك أيضاً».

«لا أنفكّ عن تشبيهك بلاعب جمباز».

«ماذا؟».

«النوع الذي يقوم بتمارين أرضيّة».

«إنها المرة الأولى التي تقولين لي ذلك».

عندما تسير، عندما تجلس، عندما تنشر أو تحفر»، مَضَتْ لإشعال» realpagex0128x سيجارة أخرى لكنها لم تفعل، لأنها ستضطرّ عندها إلى تدخينها وجلّ ما كانت تريد القيام به هو الاستحمام. أن تستحمّ ثم تغادر. نهضت، ثم قالت: «إنك تقول ‘نحن’ كثيراً».

«ذلك لأننا هنا معاً».

«أعتقد أن ذلك ما جعلني أبكي».

«كاذبة».

«نعم»، وغادرت المطبخ. أخرجت، وهي في الحمّام، آخر ثلاثة أقراص «باراسيتامول» من أغلفتها وتناولتها بجرعتين كبيرتين من الماء البارد.

قادت السيارة ببطء شديد؛ لم تكن الطرق الضيّقة قد رُشّت بالملح منعاً للتزحلق، وتمسّكت بالمقود بشدّة وهي تنزل التلّة. كانت الطريق ذات المسربين المؤدّية إلى كيرنارفون قد هُيّئت بشكلٍ أفضل، ولكن، هنا أيضاً، كانت السيارات القليلة التي صادفتها تزحف ببطء على طول الطريق، كما لو أن الجميع كانوا يتوقّعون تساقط الثلج في أي لحظة. قالت في نفسها: «يجب ألا أستطيب الأمان؛ أن أتكوّم عند الموقد، وأتركه يتولّى الأمور وأدع الكلب يلعق يدي». توقّفت في فسحة على جانب الطريق وخرجت من السيارة من دون أن ترتدي معطفها. جرّت نفسها من فوق أحد السياجات وسارت مسافة لا بأس بها عبر الثلج ثم استدارت. تطلّعت إلى آثار قدميها، ثم نظرت إلى السيارة، وشعرت بالقشعريرة. قالت في نفسها: «ها أنا ذا. هذه هي الحال». حذاؤها مبلولٌ، والبرد ينغل في أصابع قدمها. سيّارة فارغة على جانب الطريق، أشجار عارية، تلال، برد. غُرير لم يعد يظهر؛ أقف في بركة والمياه تغمرني حتى خصري، وما من أغراض ثقيلة في جيوبي. رائحة امرأة عجوز في جسدي. ها أنا ذا. هذه هي الحال.

realpagex0129x

42

مرّة أخرى لم يكن هناك أحد في غرفة الانتظار، التي تقع مباشرةً بعد باب المدخل. ما من عاملة استقبال؛ بل جرس يعلن عن دخول أحدهم. جلستْ على واحدة من الكراسي الأربعة وراحت تنتظر. بعد خمس دقائق، حين لم ينادها أحد، أشعلت سيجارة. لم تتمكن من سماع أيّ صوت في الجانب الآخر من باب العيادة. كان يمرّ أناس بين الحين والآخر من أمام النافذة ويتطلّعون إلى الداخل بفضول. وكانت هناك منفضة نظيفة وكومة من المجلات على طاولة قهوة من خشب الفورميكا.

«آه، سيّدة الغُرَير».

رفعت بصرها وتنهّدت.

«لا تكوني على هذا القدر من السلبيّة»، قال الطبيب. «فأنا أمزح وحسب. ادخلي».

كانت طاولة مكتبه خالية، لم يكن يعمل على أيّ مستندات حين دخلت. كانت قد لاحظت أن الناس هنا يدخّنون في كلّ مكان تقريباً وتعوّدت الأمر فلم تطفئ سيجارتها في غرفة الانتظار، بل في منفضته نصف الممتلئة. تطلّعت إلى الصليب الذي كان أحدهم قد قام بتسويته.

«شعركِ جميل على هذا الشكل. قصير بعض الشيء».

«شكراً».

«شيرلي مصفّفة شعر خبيرة جدّاً، والأهم أنها آخر مصفّفة شعر».

نظرت إليه.

«تعتقدين إذاً أنّه كان من الضروري الآن؟».

«ماذا؟».

realpagex0130x

«مجيئك لرؤيتي».

«نعم».

«بمَ يمكنني أن أخدمك؟».

«حبوب مسكّنة».

«يمكنك الحصول عليها من الصيدلي. لا تحتاجين إليّ لذلك».

«أنا لا أتحدث عن الأسبرين أو الباراسيتامول». بدت الكلمة الأخيرة غريبة، ولم تكن متأكدة من أنها كلمة إنكليزية.

«وما الذي تتحدّثين عنه؟».

«هذا أمر يعود إليك، فليست لديّ أيّ فكرة».

«اجلسي هنا أولاً. أحتاج إلى معاينة قدمك».

«لا مشكلة في قدمي. لم تعد هناك مشكلة».

«رجاءً».

فكّرت في أن الأمر لن يكون صعباً، كما أن لا ضرر منه. جلست على السرير وخلعت حذاءها وجوربها. كان جلد قدمها مجعّداً. قالت في نفسها: في وسعي التمدّد وحسب. التمدّد والاستسلام ورؤية ما يحصل.

أمسك الطبيب بقدمها. «لقد شفيتْ بطريقة رائعة. هل تسبّبت لك بمزيد من المشاكل؟».

«لا. فكربونات الصودا تفعل العجائب. كنتَ محقّاً تماماً». أخذت تحدّق في الجدار من فوق كتف الطبيب، ولم تدرك إلا الآن - ربّما لأنه مضاء من زاوية مختلفة أو لأنها تنظر إليه الآن من دون أن تركّز فعلاً - أنّ ملصق الإيدز يظهر جذع رجل داكن البشرة. ليس من الأمام، بل من الجانب، صورةٌ مغبّشةٌ قليلاً، تُظهر مؤخرة صغيرة. الآن فقط فهمت معنى عبارة «مخرج فقط» المكتوبة في أسفل realpagex0131xالملصق. لا بدّ أنّه ملصقٌ قديم. تساءلت لماذا يعلّق رجل كهذا شيئاً كذاك في عيادته. لم تستطع أن تتخيّل أن ملصقاً كهذا يعزف على وتر كثير من المرضى في هذه البلدة الصغيرة.

أمسك الطبيب بيدها وقاس نبضها باثتنين من أصابعه، وقال: «هممم»، ثم أمسك رأسها بيديه ورفع بإبهاميه الجلد من فوق عينيها ونظر فيهما بانتباه، ثم مرّر إحدى يديه نزولاً على ذراعها فيما وضع الأخرى على ركبتها. قالت في نفسها: لولا أنني أدخّن لاعتبرت أن نفسه كريه بشكل لا يُصدَّق. سألها: «هل تشعرين بألم في الرأس؟».

«نعم».

«أهذا كل شيء؟».

«لا».

«وما المشكلة غير ذلك؟» رنّ الجرس في غرفة الانتظار. ألقى نظرة سريعة على الباب واستغل المقاطعة ليسعل، من دون أن يرفع يده إلى فمه.

انزلقت عن السرير ووقفت لصقه برهة وجيزة قبل أن يتراجع خطوة إلى الوراء. كان هناك بعض الشعر المنسي على جوزة عنقه الهزيل. أسرع في الابتعاد عنها حين اقتربت منه، وكان ذلك غريباً نظراً إلى أن يده كانت على ركبتها للتوّ، مرتاحة هناك كما يرتاح رأس سام حين يلقيه عليها. جلست على الكرسي وأشعلت سيجارة. شعرت، للمرة الأولى، أنها استطاعت فهم هذا الرجل.

جلس الطبيب هو الآخر ولم يسمح لها بالتفوّق عليه. جلسا معاً في المكان يدخّنان. «أتدركين أنني لا أستطيع وصف مسكّنات قوية بهذه البساطة؟».

«لا أرى المانع من ذلك».

«هناك ما يُدعى قواعد السلوك الطبي».

«لم يبدُ أن ذلك أزعجك كثيراً ذلك اليوم في صالون تصفيف الشعر».

realpagex0132x

«آها. أتعتقدين أن من غير الجدير بي التحدث إلى شيرلي عن مرضاي؟ لكنّ ذلك يختلف عن وصف دواء من دون سبب».

«من دون سبب؟ من قال ذلك؟» ونفثت غمامة من الدخان في وجهه.

ردّ الطبيب بنفثة من عنده. «سأسأل إذاً من جديد، ما المشكلة؟».

«أنا عليلة».

«وإلى أي مدى أنت عليلة؟».

«لا أعرف».

«ألا تخضعين للعلاج؟ في هولندا؟».

«بالطبع أخضع».

«لماذا لا تخبرينني إذاً عن علّتك؟».

«هذا ليس شأنك».

«أنا طبيب صحّة عامة. يجب أن التزم بالقوانين، ولديّ ضمير».

«أنا مريضة عَرَضيّة، وقد أغادر من جديد إلى هولندا في الصباح. وتلك المسألة مع الغرير كانت حادثة. إنني سائحة».

«أين موضع الألم؟».

«في كل مكان. إنه أحياناً يشمل جسمي كله مثل وجع الأسنان».

«وجع الأسنان؟».

«كما لو أنّك تذهب إلى طبيب الأسنان بسبب الوجع وتعتقد أنّك تعرف موضعه فيعمل الطبيب على سنّ مختلفة تماماً، الأمر الذي يصيبك بالدهشة، لكن الألم يكون قد زال في اليوم التالي».

«هممم».

realpagex0133x

«وأشمّ أشياء أيضاً».

«ذلك ليس إلا دليلاً إلى الصحّة».

«كلا. أشمّ روائح غير موجودة. أتخيّل أموراً وأشمّ رائحتها فعلاً».

تغاضى الطبيب عن ذلك. «إذا وصفتُ لك هذا الدواء..».

نظرت إليه وحاولت أن تتكهّن ما الذي يوحي به، وقالت من جديد: «أنا سائحة. إنني هنا بمحض الصدفة لا غير. كان بإمكاني بسهولة أن أذهب إلى طبيب في بانغور».

«لا يمكنني السماح بهذا».

أشارت إلى المنفضة التي امتلأ نصفها بأعقاب السجائر «ما الذي تفعله؟».

«عفواً؟».

«تجلس هنا تدخّن وتقود نفسك إلى الموت تحت صليب وملصقٍ يُظهر مؤخّرة عارية سوداء. حتى إنك تأخذ الأمور بخفّة. أليس هناك من يوقفك؟».

نظر إلى الجدار وقال: «لا أفهم تماماً..».

«ألا يُعتبر تدخينك مشكلة؟ أليس في غير محلّه؟».

اهتزّت جوزته صعوداً ونزولاً. «زوجتي تشتكي من الأمر»، وتنحنح ثم شرع في السعال.

«لكنّك لا تسمح لها بإيقافك؟».

«لا. أيوجد من يوقفكِ؟».

«لا. أنا وحيدة. وحيدة تماماً. هل فتحت سجلّاً بزيارتي الأخيرة؟».

«بالتأكيد».

«مزّقه. إنسَ أنني هنا الآن». لم ترفع عينيها عنه. «هل عليه اسمي؟».

realpagex0134x

«كلاّ».

لم يشح الطبيب بنظره. مجّ سيجارته التي احترقت حتى كادت تلامس الفِلتر وحدّق في المنفضة. تناهى بوضوح من غرفة الانتظار صوت شخص يحرّك كرسيّاً. أسقط الطبيب العقب في المنفضة من دون سحقه، ثم فتح دُرجاً وراح يقلّب الأوراق ويفتّش ثم سحب استمارة طواها مرتين قبل أن يمزقها إرباً، فاختفت القصاصات في سلّة مهملات الورق، ثمّ أخذ قلم حبر وشرع في كتابة الوصفة. «تعرفين أين الصيدلية. سأعطيك هذه الوصفة، لكنّني لا أريد بعد ذلك أن أراك هنا، مطلقاً».

«أريد أقوى نوع متوفر».

سحب الورقة من دون أن ينظر إليها وكتب وصفة جديدة ناولها إياها، ثم قال: «أنا لا أعرفك».

كانت هناك امرأة في غرفة الانتظار. امرأة شعرها المصبوغ مثبّت أعلى رأسها. بدا شعرها خفيفاً جدّاً في ضوء مصباح الفلورسّنت. كانت تقلّب صفحات مجلة قديمة. قالت: «مرحبا يا حبّي».

فكّرت: إنها شيرلي. ولو اضطررت إلى اختراع اسم لها لاخترت هذا الاسم بالذات. «صباح الخير».

«لا تكوني رسميّة إلى هذا الحد! كيف وجدت تسريحة شعرك الجديدة؟».

«عفوك؟».

«شعرك؟ كيف وجدته؟».

«ما به شعري؟».

«قصصته لك في ذلك اليوم».

«لطالما قصصت شعري بهذه الطريقة».

فغرت مصفّفة الشعر فمها. سألتها: «أمعاينة مجانية؟».

realpagex0135x

«ماذا؟».

«أعتذر. اعتقدتك شخصاً آخر».

فتحت الباب وخرجت إلى الرصيف المثلج. مشت بتثاقل وحذر صوب الصيدليّة. لم يكن هناك أي ضوء تقريباً في صالون تصفيف الشعر، ما عدا المصابيح المحيطة بواحدة من المرايا الأربع. ولم يكن الباب منفرجاً. وكانت على نافذة محلّ العطور لافتة كبيرة تعلن عن تخفيض بنسبة خمسين بالمئة على كل الأنواع. لن يبقى في يوم من الأيام سوى الغرائر تجول في أنحاء هذه المدينة. شرع الناس فعلاً في الرحيل. سمعت الرجل الذي لم تعد تعرفه يقول ذلك. أو إنهم سيموتون وحسب، وهذا طبعاً خيار هو الآخر. كانت الصيدليّة مفتوحة، بل وكان هناك زبائن ينتظرون أمام المنضدة، ولم تكن هناك أي تخفيضات.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

حملق الشاب الذي خدمها في الوصفة طويلاً ثم رفع نظره إلى أعلى ليسألها ربّما لماذا تخلو الوصفة من الاسم. بادلته الحملقة بالطريقة نفسها التي كانت قد حملقت بها للتو في مصفّفة الشعر، فتوجّه إلى الغرفة الخلفية. ما إن حصلت على كيسها البلاستيكي من حبوب الدواء حتى سارت عائدةً إلى موقف السيّارات

في الجانب الآخر من الطريق. خطر لها أن شعرها كان دوماً على هذا الشكل بالنسبة إلى الفتى، إذ لم يسبق أن رآها بأي شكل آخر. كذلك الأمر بالنسبة إلى الكلب الذي اعتبرها زميلةً له من فصيلته. في واجهة المتجر الخارجي، الذي سبق أن اشترت منه الخريطة، كانت هناك مجسّماتٌ لرؤوس رجالٍ تعلوها قبّعات صوفية. كانت إحدى هذه القبّعات، وتحمل اسم العلامة التجارية «باتاغونيا»، باللون الأزرق الباهت مع حافة بأطياف الأزرق المختلفة الأخرى، من الفاتح جدّاً إلى الداكن جدّاً. جعلتها القبعة تفكّر في الجبل وفي ما قاله الفتى صبيحة يوم أمس. سمعته حين حكى، لكنها لم تجب. دخلت المتجر واشترت القبعة، وطلبت من العامل لفّها بورقة هديّة، وراقبته وهو يتعامل بشكل أخرق مع لفّة الشريط اللاصق. شعرت برفّةٍ في عضلة ساقها اليمنى، وبحرارةٍ في جسمها. كانت القبعة غالية الثمن. قالت في نفسها: «هذا لا يهم، ليس عليّ أن أقلق في هذا الشأن». ودّعت عامل المتجر

الذي نظر إليها متفاجئاَ
realpagex0136xوغادرت. لم تنتبه، إلاّ عندما أصبحت في الخارج، إلى ما قد حصل. لا بدّ أنها قالت «وداعاً» بالهولندية "Tot ziens " بالرغم من يقينها أنّها كانت تتحدّث بالإنكليزية. كانت الساعة على قنطرة سور المدينة تشير إلى الحادية عشرة والربع.

43

لم يكن الفتى في المنزل، فوضعت القبّعة تحت شجرة الميلاد التي كانت منتصبة في الزاوية بالقرب من الطاولة الجانبية، وقد عُلّقت عليها بالفعل بهارج وحليّ رخيصة وأضيئت بأنوار الزينة. كان الفتى قد أدخلها في وعاء من التنك مع كمية من الحصى لإضفاء وزن يثبّتها في مكانها. تسلّقت الدرج ببطء وفتحت باب الحمام ووضعت الأقراص على الرفّ فوق المغسلة، وتناولت واحداً من دون قراءة ورقة الإرشادات. لم يكن الطبيب قد حدّد لها الكمّية. وكانت على الرفّ أيضاً عبوات دواء السعال وهي غير مفتوحة. جلست على كرسيّ المرحاض. عاودها التشنّج الذي شعرت به في السيارة، واضطرّت كلّ مرّة حاولت فيها تمزيق بعض ورق التواليت إلى إعادة سحب يدها. وضعت مرفقاها على ركبتيها وتركت رأسها يتدلّى فوق الأرضية المبلّطة وقالت بصوتٍ خافت: «يا للهول». بعد تنظيف مؤخّرتها جهّزت الحمّام للمرة الثانية في ذلك اليوم مضيفةً مرة أخرى كمّية كبيرة من شامبو الأعشاب المحلية، ففاحت من رغوة الحمّام رائحة لاذعة؛ رائحة حقيقية. خلعت ثيابها وجلست في المياه الساخنة وهي تفكّر بمونولوج الفتى وبكل الأمور التي تفوّه بها بسرعة وسهولة كما لو أنه كان قد فكّر فيها من قبل، كما لو أنه يخطّط لشيءٍ ما. حاولت أن تتحسّس ما يفعله القرص داخل جسمها بتخيّلها الرحلة التي تقوم بها المكوّنات الفاعلة من نقطة انطلاقها في معدتها، وأملت أن تبلغ رأسها في وقت قريب. عندما بدأ خمول لذيذ يتسرّب إليها أدركت أن رأس السنة سيحل قريباً.

realpagex0137x«مرحباً!». لم يكن القادم برادوين، لا لسبب إلا لأنّه كان ليلقي عليها التحية بصيغة سؤال. إنّه ريس جونز وقد ولج باب المدخل وهي في المغطس. باب المدخل كان يفضي مباشرةً إلى الدرج. وكان الأمر الطبيعي تماماً الذي يجب القيام به في هذا المنزل هو صعود الدرج. كان عليها الخروج من المغطس؛ لاسيما أن باب الحمام لم يكن موصداً حتى. تطاير الماء

بصخب. كان القرص قد فعل فعله: أخرجت جسدها من المغطس، ولكن حركته كانت بطيئة. لم تكن قد سمعت صوت سيّارة. تناولت المنشفة عن مشجب الباب وشدّتها إلى ثدييها. قَرع جونز الباب بشيء من القوّة، فقالت: «ارحل». أسندت رأسها، في فترة الصمت التي تبعت ذلك، على لوح الباب الخشبي. شعرت أن بإمكانها سماعه يتنفس وسمعت في الوقت نفسه زوجة الخبّاز تقول شيئاً. ولو أنها كانت لا تزال على قيد الحياة لما سمحت له بتناول هذا القدر من الكعك. لو أنها كانت عند الخبّاز الآن، بكامل ثيابها، منتعلةً جزمتها. لم تكن مياه المغطس قد سكنت كلّياً بعد، وكانت صافية جدّاً.

«سأنتظر في المطبخ».

أجفلها صوته الذي تردّد صداه في الغابة. سمعته وهو ينزل الدرج. جفّفت نفسها ببطء، ولم تُفرغ المغطس لأن خرير الماء سيحدث كثيراً من الضجّة. ارتدت ثيابها ببطء. لم تعد التشنّجات في بطنها تؤلمها، وزال الضغط من وراء أذنيها، وشعرت بخدر في رأسها. نظرت، قبل أن تفتح الباب، من النافذة الصغيرة إلى الدرب المغطّاة بالثلج. ما الذي يؤخّر برادوين؟ كانت الإوزات متجمّعة أمام المأوى. أمامه لا في داخله. يا للحيوانات الغبيّة.

كان ريس جونز جالساً على كرسي المطبخ الأقرب إلى شجرة الميلاد وفي يديه القبّعة الملفوفة بورق الهدايا. كان يبدو مختلفاً. ثمة أمرٌ مختلف فيه هذه المرة.

سألته: «ما الذي تفعله؟».

«أفترض أنك لا تضعين هديّة تحت الشجرة لنفسك».

«وماذا بعد؟».

realpagex0138x«ظننت أنّك جلبتها لي».

«ماذا؟».

«ومن غيري يأتي لزيارتك؟» واعتصر الرزمة. «تبدو كأنها جوارب».

«أعدها إلى مكانها».

«أليست لي؟».

فكّرت: لو أمكنني الإمساك بسكّين، أو بالمقلاة الثقيلة إذا لزم الأمر. «لا».

«أولستِ، في النهاية، تقيمين هنا وحدك؟ أليس هذا ما قلته للوكيل عندما وقّعت عقد الإيجار المؤقّت؟». وشدّد بصفة خاصة على كلمة «مؤقّت».

«سيد جونز».

«ناديني ريس».

«سيد جونز، هلّا تفضّلت وأعدت الهدية إلى مكانها؟».

«حسناً، حسناً، كوني مغرورة قدر ما تشائين». نهض وأعاد القبّعة إلى مكانها تحت الشجرة، ثم استقام واستدار ومضى إلى غرفة الجلوس. سمعت باب المدخل يفتح.

تلفّتت حولها. كان المطبخ آمناً لبرهة. النبتات المزهرة الثلاث على حافة النافذة، غلاّية القهوة على الفرن، وشجرة الميلاد. ألقت كذلك نظرة سريعة داخل دُرج لوازم المائدة، تحديداً على الحيّز الأكبر فيه. أُغلق باب المدخل. عاد ريس جونز إلى المطبخ حاملاً صندوقاً بلاستيكياً. نظرت إلى قدميه، وأدركت وهي تخفض نظرها ما الذي تغيّر فيه: كان شعره المدهن الكثيف أقصر إلى حد كبير، وكانت ترى أذنيه للمرة الأولى.

قال وهو يضع الصندوق على الطاولة: «الحَمَل».

تطلّعت إلى داخل الصندوق فوجدت بضع قطع من اللحم الداكن اللون. رفعت يدها إلى عنقها. «أهذا حَمل كامل؟».

realpagex0139x

«لا، بل نصف حَمل».

«نصف؟».

«كنت سأعطيك ربع حمل، لكن ذلك يعني أنّني كنت بالكاد سأعطيك شيئاً. فأنا صاحب لمسة رقيقة». ووضع، وهو يقول ذلك، يده على عجيزتها كما لو أنه أراد إثبات ذلك.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

لم تقبض على يده؛ وكانت تلك التي فيها الظفر المشوّه، بل ابتعدت عنها بأهدأ ما يمكن واستمرّت في الابتعاد، فانتهى بها الأمر قبالته تماماً في الجانب الآخر من الطاولة. «يمكنك أن تستعيده».

«أليس جيّداً كفاية لكِ؟».

«ماذا تريد؟».

«جلبت لك قائمتَي حَمل مجاناً تماماً».

«لا أريده. الحَمل يقزّزني».

«هذا مؤسف جدّاً. إلا أنّني سأتركه. لقد وفيت بالتزاماتي».

قال: «تبدين مختلفة جدّاً عن المرّة الماضية».

«في وسعك المغادرة إذاً».

«هل قصدتِ مصفّفة الشعر؟ صالون شيرلي؟».

كانت قد وضعت يديها على ظهر الكرسي. شيرلي، الطبيب، الرجل الواقف قبالتها، الخبّاز وزوجته؛ جميعهم يعرفون بعضهم بعضاً. الجميع باستثناء برادوين، فهو الوحيد الذي لا يتلاءم معهم. ما الذي يؤخّره؟ قد يتأخّر أكثر بما أنّه قد أنجز العمل على تزيين شجرة الميلاد. نظرت إلى الساعة، كانت قد شارفت على الثانية عشرة والنصف. قالت في نفسها: يجب أن أفعل شيئاً، لا يهم ماذا. مضت إلى غرفة الجلوس، فتحت باب الموقد ودفعت بحطبتين في النار المشتعلة ببطء، وزحزحتما realpagex0140xبعض الشيء إلى الأمام وإلى الوراء بالمسعر. أدركت أنّها تقف وظهرها إلى ريس جونز، وقد انحنت إلى الأمام. شعرت أنها قويّة.

تبعها صاحب مزرعة الخراف، وكان الآن يجلس مستلقياً على الأريكة وإحدى ذراعيه على مسند الظهر. سألها: «ألن أحظى ببعض القهوة يا سيّدة الغرير؟».

«ماذا قلت؟».

«قلت: سيّدة الغرير».

«لن تحصل على أي قهوة. في وسعك أن تغادر الآن». بقيت حيث هي، على مقربة من الموقد، من دون أن تعيد المسعر إلى السلّة الخشبية.

«اتصل بي صديقي الوكيل العقاري».

نظرت إلى جوربيه.

«تمّ العثور على وريثٍ بعيد، يقيم في إنكلترا، ولن يتمّ تجديد إيجارك».

نقلت المسعر إلى اليد الأخرى.

«بما أنّ صديقي فتى لطيف، وقد أدرك أن مدّة الإشعار قصيرة جدّاً، فسيمهلك حتى الخامس من كانون الثاني لتوضيب أغراضك. إلا أننا سنأتي يوم رأس السنة للتحقّق من حالة المنزل».

«ما من مشكلة».

«لا؟».

«لا، فأنا لا أملك أياً من هذه الخردة القديمة، كما أنني لا أحتاج إلى شاحنة نقل». تطلّعت عبر النافذة، كما لو أنّها شعرت أنّها اللحظة التي سيظهر فيها برادوين من فوق سور الحديقة. لكّنه لم يقفز هذه المرة من فوق السور بل تسلّقه. قفز سام هابطاً بجانب أغصان السنديان وشجرة جار الماء بما يوحي بأنه تذكّر أين كانت بالضبط. فكّرت أنّ من الغريب مجيئه من ذلك الاتجاه. سار الفتى عبر المرج المغطّى realpagex0141xبالثلج وتوقّف عند طرف الجزء المجوّف. تساءلت إذا كان في إمكانه رؤيتها، فغرفة الجلوس كانت معتمة بعض الشيء وتحتوي على نافذة وحيدة لكن المصباح العادي كان مضاءً شأنه دائماً. أصدر برادوين أمراً للكلب، فاستدار سام وجلس قرب ساقيه وقد خبّأته شتلات الورود بعض الشيء. فكّرت: لماذا توقّف هناك؟ أيمكنه من هناك رؤية سيارة ريس جونز؟ ما رأيه في ذلك؟

«سيكون لديكِ متّسع من الوقت لأكل قائمتَي الحَمل».

«لا آكل لحم الحَمل».

«كما تريدين. كانت السيدة إيفانز تحب لحم الحَمل. بلغت الثالثة والتسعين وهي تتناوله»، ورفع نظره إليها. «ما الذي تفعلينه هناك؟ تعالي واجلسي على الأريكة».

قالت: «حان وقت رحيلك. لقد وفيت بالتزاماتك وبلّغتني رسالتك».

«لم أخبرك بعد كيف بلغت السيدة إيفانز نهايتها».

«لست مهتمّة، فأنا لم أعرف المرأة».

«أعتقد أنك ستجدين الأمر مثيراً جدّاً للاهتمام».

رأت بطرف عينها برادوين وهو لا يزال واقفاً في الموقع نفسه. هزّت برأسها متسائلةً إذا كانت الغريزة البدائية قد سيطرت على الرجل الجالس على الأريكة. فهو أرمل، وهي تبدو غير مرتبطة. فما الذي يكبحنا؟ حرّك الفتى إحدى ذراعيه. هل يردّ على هزّة رأسها؟ رفعت المسعر من دون أن تعرف علامَ أرادت بالضبط أن تدلّ.

قالت: «السجائر».

«ماذا؟».

«سجائري، في المطبخ». أزعجها أنها لم تتوجّه مباشرةً إلى المطبخ من دون أن تقول شيئاً. إلى مطبخ المنزل الذي سيبقى لها حتى الخامس من كانون الثاني. توجّهت إلى النافذة وأومأت لبرادوين بأنها ستخرج ووضعت المسعر على الطاولة وأشعلت سيجارة، ثم توجهت مباشرةً إلى الباب الأمامي وفتحته. كان هذا كثيراً جدّاً على سام الذي قفز ونبح وركض صوبها. ترك الفتى الكلب يذهب؛ ولم يناده ليعود.

realpagex0142x

نهض ريس جونز عن الأريكة بسرعة مدهشة قائلاً: «سام؟».

انحرف الكلب بعض الشيء، وركض إلى صاحب مزرعة الخراف وقفز بين يديه.

بُهت ريس جونز.

نظرت إلى برادوين، ثم إلى مزارع الخراف الذي بدت عيناه أكثر رطوبةً حتّى من المعتاد.

شخر سام ولعق ونبح.

44

قال برادوين: «مرحباً أبي».

أنزل ريس جونز الكلب من دون الردّ على التحيّة وقال «اربض». كان حذاؤه المطاطي عند عتبة المدخل في الاتجاه المعاكس للمنزل؛ كان بإمكانه انتعاله مباشرةً، وقد فعل ذلك وهو يمسك بإحدى يديه بعارضة الباب حفاظاً على توازنه. رفع الكلب نظره إليه وهو يلهث بانفعال. سار، وهو يكاد لا يتطلّع إلى برادوين، على الممر الحصوي إلى سيارته المركونة بجانب المنزل وقد كاد واقي الصدمات فيها يلامس زريبة الخنازير القديمة. فتح باب السيارة ونادى: «سام». كان الكلب قد أمال رأسه محاولاً استراق النظر من خلف الزاوية، فخرج من المنزل مسرعاً وكأنّه يطير وقفز إلى السيارة من دون أن يتردّد لحظة؛ كان من الواضح أنّه أمر قام به مرّات كثيرة من قبل.

كانت هي الأخرى قد خرجت الآن، بجوربيها، فتَشَكّل بذلك نوع من المثلّث: ريس جونز عند السيّارة، برادوين على مقربة من حوض الورود المقبل، وهي عند realpagex0143xالباب. لم يكن الطقس بارداً فعلاً؛ وكانت آخر ندف الثلج تقطر عن أوراق الورود.

قال صاحب الخراف: «هذه الجوارب لك إذاً؟» ولم يكن ذلك سؤالاً بالفعل. كان قد دار من حول السيّارة وفتح الباب من جهة السائق.

سأله الفتى: «جوارب؟».

نقلت نظرها من الفتى إلى الرجل ثم إلى الفتى، وفكّرت: إذا كان برادوين لاعب جمباز، فريس جونز لاعب جيدو اعتزل اللعب قبل عشرين عاماً وترك نفسه يذبل. مجّت سيجارتها ونفثت الدخان الذي خرج كثيفاً في الهواء الرطب. صعد ريس جونز إلى السيّارة وأدار المحرّك. جلس سام قربه يقظاً ومحدّقاً أمامه مباشرةً ولسانه يتدلّى خارج خطمه. كلب راعٍ، سعيد، يجلس قرب سيّده الحقيقي الذَكَر الأول. أدركت فجأةً سبب جلوس الكلب معها في كثيرٍ من الأحيان، ولماذا تخلّى بمحض إرادته عن موقعه أمام باب الحمام في ذلك اليوم الأول بالذات: لقد كانت على المستوى نفسه مع الفتى. انطلقت السيارة السوداء - كانت شاحنة بيك آب - واختفت عن مجال نظرها. رأت أمامها الرفّ تحت المرآة، وأول علبة أقراص. وكما بدا سابقاً أن جسدها خرج من الماء بتثاقلٍ، بدا كذلك أنّ كلّ شيء في الخارج قد تثاقلت حركته وخرج عن زمانه بفارق ربع لحظة. أرادت تناول قرص آخر الآن كي تبقى الأمور على حالها.

شيرلي، الطبيب، الخبّاز وزوجته، ريس جونز وبرادوين. كان الفتى عارياً جدّاً الآن من دون كلب، وراء الأصص التي تحتوي شتلات الورود الهزيلة المتحلّبة، وحزاما حقيبة الظهر الصغيرة على جانبي صدره. لمّا ابتعدت السيّارة عن مجال السمع قالت: «تعال». لو أنّها لم تناده لبقي ربّما في مكانه. رمت بسيجارتها وأمسكت بالفتى. كانت حقيبة الظهر في طريقها؛ فوضعت يديها من تحتها تدفئهما وضمّته إلى صدرها. كانت تفوح منه رائحة زكيّة جدّاً. تركت يديها تنزلقان وشدّت القسم الأسفل من جسمه صوبها.

realpagex0144x

«جوارب؟» سأل من جديد ولهاثه الحار على عنقها. كان قد لفّ يديه برفق حولها.

قالت: «ذلك الرجل لا يعرف ما الذي يتحدّث عنه». شاهدت السنديانة الملقيّة في المكان مثل شمعدان ساقط ذي أذرع غير متساوية. لو تُركت الشجرة ممدّدة بهذا الشكل فستتحوّل إلى جسرٍ طحلبي آخر. طغت رائحة الخبز الطازج على رائحة الفتى.

45

حرّك الزوج ساقه. كان يشعر بالحاجة إلى ذلك. لم يكن عليه في السابق أن يحرّك سوى قدمه، لكن جبيرة الجبس أضحت أكثر وزناً وصارت قدمه ثقيلة. استقل القطار رقم ٤ متوجّهاً إلى «دي بييب» ذلك أنه لم يكن يستطيع القيادة، وقد دبّر لقاءً بالشرطي هناك، في الحانة في «فان

فوسترات». كان مسروراً لأنّه لم يضطر إلى الذهاب إلى منزل حمويه وحده. لم يكن الثلج قد جُرف عن الرصيف والشوارع التي تقع بين الحانة ومنزلهما كما أنّها لم تكن قد رُشّت بالملح؛ واضطرّ الشرطي أكثر من مرة إلى إنقاذه من السقوط. كان التلفاز دائراً يعرض مباراة في التزحلق على الجليد للمسافات الطويلة، وكانت أصوات المعلّقين كناية عن تمتمة في الخلفيّة. كان أحد المتزحلقين هو ذلك الذي شاهده في إعلان الخبز على الملصق في محطة الترام. كان حموه يعدّ الشاي؛ فالشرطي يفضله على القهوة. وكانت هناك، على مقربة من جهاز التلفاز، شجرة ميلاد مزيّنة بالخيوط المعدنية البرّاقة وبالشموع. فوالدا زوجته يحبّان القيام بالأمور على الطريقة القديمة ولا يضيئان الشموع إلاّ يوم الميلاد بالذات. كان المثلّث على حافة النافذة مضاءً وكان اللهب يضفي صبغةً برتقالية على النرجسة البيضاء.

سأل الوالد: «كيف علموا؟».

realpagex0145x«ليست لديّ أيّ فكرة. أكّدت لي السيدة التي هاتفتني أن ‘هذه المعلومات سرّية’».

«امرأة؟».

«نعم».

«ويلز. كيف انتهى بها الأمر هناك؟ ماذا يوجد في ويلز؟».

«يشكّل بلد ناطق بالإنكليزيّة خياراً واضحاً، بالطبع».

«وما علاقتك أنت بالأمر؟».

ألقى الشرطي على الزوج نظرة خاطفة قبل أن يجيب قائلاً وهو يشير إلى الجبيرة: «لا يمكنه القيادة. لديّ بضعة أيام عطلة سأخسرها إذا لم أستخدمها قبل نهاية السنة».

«متى ستذهبان؟».

«الأسبوع المقبل».

«لقضاء الميلاد؟».

«نعم، إنه الميلاد في كل مكان».

«أليست لك زوجة؟ أولاد؟ كيف يشعرون حيال ذلك؟».

«أوه، لا بأس»، قال الشرطي. «تعوّدوا وجودي في الخدمة».

«هممم»، همهم الوالد.

«أمر لا يُصدَّق»، قالت الوالدة.

«ماذا؟».

«'كرامر' هذا رهيب. انظر كيف يضاعف من سرعته».

«هل سمعتِ كلمة مما قلناه؟».

«ماذا تعتقد؟ لم يكن القلق يراودني».

realpagex0146x

«أمّا أنا فبلى»، وصبّ للجميع كوباً ثانياً من الشاي ثم قال للشرطي: «كاد النوم أن يجافيني. صرت بحاجة إلى شرب منقوع نبتة الناردين المهدّئة كي أنام».

قال الشرطي: «إنها عشبةٌ جيّدة. أنا أيضاً أشربها أحياناً».

«حقاً؟».

وسأل الوالد: «هل كنت على اتصال بها؟».

قال الزوج: «لا. لا أعرف سبيلاً لذلك، فقد حاولت مراراً الاتصال بهاتفها الخليوي دون جدوى».

«لكنك حصلت على عنوانها؟».

«نعم. نوعاً ما. فقد حصلت على اسم أحد المنازل».

«يمكنك إذاً أن تبعث لها برسالة».

«يمكنني»، وراح الزوج يشاهد التلفاز بعض الوقت. «أمر لا يُصدَّق فعلاً، أن يتمكّنوا من اقتفاء أثرها».

قال الشرطي: «هذا عملهم».

نهض الزوج قائلاً: «يجب أن أقصد المرحاض»، وتناول أحد العكازين وراح يعرج خارجاً من غرفة الجلوس إلى الممشى الصغير. أنزل غطاء المرحاض وتمكّن بعد بعض الجهد من الجلوس عليه. لم يكن هناك، مع الباب المقفل، متّسع لقدمه. لم يستطع التفكير في زوجته في غرفة الجلوس وعليه أن يقرّر ما الذي سيخبره لحمويه، أو ما إذا كان سيخبرهما أساساً. إنهما شخصان

غريبا الأطوار، لا يمكن سبر أغوارهما: الطريقة التي أخبر حموه بها الشرطي للتو عن تناوله النارذين ليتمكّن من النوم؛ وحماته التي تحتضن دفتر التمارين وتستخدمه لتدوّن عليه توقيت سرعة المتزحلقين. تساءل كم مضى عليه منذ أن كتب آخر رسالة، وأدرك كم بات ذلك كلّه عادة قديمة: القلم، الورقة، المغلف، الطابع، مكتب البريد. شعر بحكّة تحت إبطه حيث أمسك به الشرطي تلك المرّات الثلاث أو الأربع. فتح صنبور الماء ثم أغلقه. realpagex0147xلم يستطع هنا أيضاً التفكير بزوجته. وجد أنّه يستحيل عليه تماماً تخيّلها في منزل في الريف.

تغيّرت أمور كثيرة في الشهرين الأخيرين. لم يعد بقاؤه وحده يبدو غريباً. كان قد اتصل بالعيادة بعد يومين قضاهما في المنزل رافعاً رجله على كرسي بلا ظهر والجعة في متناول يده. رفضوا إخباره بأي شيء، فشتمهم، فأوصلوه بالطبيبة التي التزمت هي الأخرى الصمت وبقيت هادئة كالجليد. سألها عن نتائج اختبار الخصوبة، وكان قد نسي أمره كلّياً خلال زيارته، لكنها أخبرته بأن النتائج سرّية أيضاً. سألته، قبل أن يقفل الخط، عن حالة قدمه. جعله ذلك ينفجر بضحكة عالية، وكان لا يزال يضحك عندما أقفل الخط في وجهها. لم يعرف أيّ شيء، وليس هناك ما يمكنه إطلاع حمويه عليه. جرّ نفسه للوقوف.

قالت الوالدة: «لقد غبت طويلاً».

«نعم»، وأشار إلى الجبيرة.

وقال الوالد: «نحن حقّاً سعداء، سعداء للغاية للعثور عليها».

وسألت الوالدة: «أليس علينا أن نفتح زجاجة ما؟» كان سباق التزحلق قد انتهى، وظهرت الإعلانات على التلفاز الذي خُفض صوته كلّياً، وكانت قد وضعتْ دفتر التمارين على حافة النافذة.

قال الوالد: «فكرة جيّدة. صبّي لنفسك كأساً من النبيذ الأبيض. الزجاجة في البراد وتحتاج إلى من يشربها».

«أيها الرجلان؟ ما رأيكما بقطرة من شراب 'جينيفر'؟».

«بالتأكيد»، قال الشرطي.

رجلان، فكّر الزوج. قطرة. «سأشارككم كأساً أنا أيضاً».

«أيمكنكِ تقطيع السجق المجفف إلى شرائح؟» قال الوالد للوالدة «هل كلّفكَ الأمر الكثير من المال؟».

«نعم، الكثير»، أجاب الزوج.

realpagex0148xنظر إليــه الوالد. ظنّ الزوج أنه سـيعرض دفع قسـم من أتعـاب التحقيق، لكـن الوالد حوّل بدلاً من ذلك نظره إلى الشـرطي وسـأله: «لماذا لم تزجّه في السـجن؟».

«لأنه فتى لطيف للغاية».

«لقد ضللتني»، قال الشرطي وهما يحاولان تجاوز عقبة الرصيف الزلق في طريق عودتهما إلى «فان فوسترات». بدا الأمر أسهل بكثير بعد تناول كأسين.

قال الزوج: «أعرف. إنهما غريبا الأطوار».

«لأمورٍ كهذه عواقبها».

«ماذا تعني؟».

«يمكنني البدء في التشكيك بصحّة الأمور الأخرى التي أخبرتني بها».

«أنت لست تحرّياً، أليس كذلك؟».

«لا، أنا رجل شرطة بسيط. لكنّني إنسان أيضاً».

انزلق عكّازا الزوج من تحته، واضطرّ إلى إسناد جبيرته إلى الأرض. لم يسقط، لأن الشرطي أمسك به بقوة.

قال الشرطي: «أبداً. لا يمكنك أبداً أن تعرف بالضبط ما الذي يفكّر فيه أو يشعر به شخص ما».

سأله الزوج: «أتريد تناول الطعام؟ فليس لدي أي طعام في المنزل».

«حسناً»، قال الشرطي. «ثمة مطعم تركي على طريقنا. في وسعك بلوغ المكان».

«هل يسعك أن تغيب إلى هذا الحد عن المنزل؟ ما الذي ستعتقده زوجتك؟ ألن يفتقدك أولادك؟».

ابتسم الشرطي.

realpagex0149x

فكّر الرجل في أنه يحتاج إلى ضمّادة للكتف، لكن ليضعها تحت إبطه. توصّل إلى إيقاع سير جيّد وهو يدفع بالعكازين عميقاً في الثلج. فكّر في إمكانية إرسال بطاقة بريديّة مع طابع يعطيها الأولية. طريقة قديمة، لكنها الطريقة الوحيدة.

46

اقتطعتْ من الخبز فُتاتاً ورمته للإوزات. أكلت ثلاثة من الطيور الخبز، أما الرابع فكان يراقب كل حركة من حركاتها. كاد الثلج يختفي، والبخار بدأ يتصاعد من الأرض. أخذ المكان بين جذوع أشجار السنديان في الحرج وراء مأوى الإوزات يصير معتماً. كان عددٌ من الخراف تقف حول التبن وانصرف معظم ما تبقى إلى الرعي. «غريب»، قالت. «كانت هذه الخراف تختفي في البداية، وها هي أربعتها صامدة هنا منذ بعض الوقت».

لم يتكلّم الفتى.

«إنّها لا تخص أحداً. ماذا لو غادرتُ وحسب؟».

«سأكون ما زلت هنا».

«نعم»، قالت ببطء. «ستكون ما زلت هنا».

تنحنح الفتى.

التفتت إلى اليسار، وقد تناهى إليها صوت، سبق لها أن سمعته، من حرج السنديان، لكنها لم تتعرّف إليه إلى أن غادر الطائر البني الكبير الغصن.

قال برادوين بالإنكليزية: «كايت!» [8].

قالت: «طائر».

realpagex0150x

هوى على مستوى خفيض فوق الأرض وانساب، كما في المرّة السابقة، ثم ارتفع ليختفي فوق حافة السطح الذي بدا كأنه يستخدمه كنوع من منصّات القفز بالزلاجات. جعل ذلك الإوزات تضطرب.

«إنها Kite حمراء».

عجزتْ عن الفهم. كانت تعرف أن الكلمة التي تلفظ بها الفتى تعني شيئاً آخر، لكنها لم تستطع أن تتصوّر إلا شكلاً ماسيّاً مربوطاً بخيط وذا ذنب محاك من الخرق. يحتاج أمرٌ ما، في مكان ما من رأسها، إلى الحدوث. يجب أن يتحدث بلغتها حتّى تتمكّن من فهمه. قالت بالهولندية: «فليغر!» [9]، أي طائرة ورقية.

«ماذا؟».

«فليغر. لا أفهم ما تقوله».

«وأنا لا أفهم ما تقولينه».

أخذ صدغها الأيسر يطرق. أرادت أن تقول «كايت»، وهي متأكدة من ذلك، وكان لسانها يتحرّك بالتأكيد صوب سقف حلقها متراجعاً قليلاً إلى الوراء، لكنّها نفثت، بدلاً من ذلك، الهواء ما بين شفتها السفلى وأسنانها العليا وارتخى لسانها، ليس في شكل تلقائي تماماً، وانتهى به الأمر مستنداً إلى المنطقة التي يلتقي فيها سقف حلقها بأسنانها. شرع برادوين في قول أشياء غير مفهومة، وكأنّه يبصق الأصوات بصقاً. نظرت إلى عينيه مركّزةً على الحوَل فيهما على أمل أن يتمكّن بطريقة ما من شرح الأمور لها بطريقة أخرى، من دون كلمات، من دون أصوات.

«هيا، هيا». فهمت ما يقول هذه المرة. ذراعاه الملتفّتان حول بطنها كما لو كان يخشى أن يسقط منه شيء باتتا هما أيضاً أمراً مألوفاً، وكذلك لهاثه على مؤخرة عنقها. تصرّفت الإوزات كما لو أنها لا ترى شيئاً. كان بياضها قد أصبح ناصعاً أكثر، وتغيّر لون مناقيدها، من البرتقالي الفاتح الذي كان يميّزها في الثلج ليميل الآن إلى realpagex0151xالبنيّ. فكّرت: ليتها تدخل إلى قفصها، ولو مرّة. كانت الخراف تكاد تختفي عن النظر. وضعت يديها على لوح البوابة العلوي، كما لو أنها تدفع بنفسها إليه والفتى يمنعها. لو عبر أحدهم الدرب الآن لاعتقد أنه يغتصبها. هل يطلق الإنكليز على الطائرة الورقية التي يصنعها الإنسان اسم ذلك الطائر البني الكبير؟ تساءلت، وقد تذكّرت اسمه بالهولندية. الـ «فاوف» [10]، الأحمر أو غيره. قالت في سرّها: «إنه لا يغتصبني. إنه يعتني بي. إنه فتى لطيف. لاعب جمباز جميل. وكان يُفترض به أن يرحل منذ فترة طويلة».

قالت: «أحتاج إلى قرص».

«أي نوع من الأقراص؟».

«قرص وصفه لي الطبيب هذا الصباح».

«في كيرنارفون؟».

استطاعت الوقوف من جديد، وأمكنها من جديد التحدث إليه بطريقة طبيعية.

دلّك الفتى بطنها بذراعيه وهو لا يزال يلهث على عنقها، إلا أنه لم يعد مجرّد فتى الآن، بل بات ابناً.

قالت: «هناك أمر أريد معرفته».

«ما هو؟».

«هذا العصر أو هذا الصباح، نسيت أيّهما..». قالت في نفسها: لقد نسيت حقاً. ربما قد أصبحنا في اليوم التالي؟ تطلّعت إلى الريف الذي يتصاعد منه البخار. أين اختفى الثلج بهذه السرعة؟

«نعم؟».

إنه ليس اليوم التالي إذاً؟

realpagex0152x

«لماذا جئت من جهة الجدول وسور الحديقة؟».

«انعطفت عبر الحلقة الحجرية».

«لماذا؟».

«لإلقاء نظرة. كان هناك ثلج، ولو وُجدت آثار لرأيتها».

«و؟».

«لا شيء».

لا غرائر. لا ثعلب. من المؤسف أنّ سام قد رحل. لو لم يذهب بالسيارة مع صاحب مزرعة الخراف لاستند الآن إلى ساقيها، أو إلى البوابة، ليصل إلى يديها، ويلعقهما.

يدا الأنثى الأولى.

47

لم يكن شراء بطاقة بريديّة والكتابة عليها وإرسالها عمليةً بسيطة. اختيار بطاقةٍ فحسب ليس أمراً سهلاً. ففي الفرع المحلّي من «برونا» سبعة رفوف دوّارة تذخر بها. كان المتجر مكتظاً بالزبائن بشكل لا يُعقل؛ واضطرّ إلى مدّ عكازيه لبلوغها. «حاذر، يا يوسي، ذلك الرجل يريد أن يمر!». كلّ بطاقةٍ عليها صورة قد تعني لها شيئاً مختلفاً. لكلّ شيءٍ معنى. بات عليه في النهاية الاختيار بين فرس النهر والكلب. سحب بطاقة الكلب من الرف لأنها لم تكن تهوى الحيوانات قط، وقد تسيء تفسير فرس النهر. هذه بطاقة محايدة. عندما شرع في الدفع تذكّر الطوابع وملصقات بريد الأولوية.

الطالب. أخبرته عنه بنفسها، ببرودة شديدة. هنا في غرفة الجلوس مساء يوم أحد وكان قد عاد لتوّه من الجري، وعلى وشك الاستحمام. أخبرته أن الأمر انتهى منذ realpagex0153xأمدٍ

بعيد. كان ذلك السبب الحقيقي لطردها. أثناء الجري، كان قد اشتمّ تعاقب الفصول وكان يتطلّع قدماً إلى المنافسة في سباقات الخريف. كان واقفاً هناك في غرفة الجلوس، وكان لا يزال يتعرّق وصدره يعلو ويهبط. جاء اعترافها واقعيّاً؛ وقد استمع بهدوء. بات يعرف الآن أن هناك أمراً آخر أبقته طي الكتمان. كانا قد قضيا أسبوعاً تفاديا فيه أحدهما الآخر، ثم اختفت. لاحظ بعد ذلك بيومين بقعة خالية في غرفة الجلوس. جال في أنحاء المنزل واكتشف فقدان أشياء أخرى أيضاً، وفتّش بعدها في أدراج مكتبها ليعثر على عدد من الملاحظات: أستاذة الترجمة المحاضرة «المحترمة» فاجرة. وهي لا تشبه بأي شكل محبوبتها إيميلي ديكنسون: إنها عاهرة قاسية القلب. مضى يبحث عنها. زار حمويه وتوجّه بالسيارة إلى الجامعة حيث وجد ملاحظة إضافية في إحدى الزوايا وتيقّن من أنّها عُلّقت في كافة أنحاء المبنى. في مكتبها، الذي كان مفتوحاً وخالياً - غريبٌ كم يثق الأكاديميون في الناس -استطاع أن يتخيّل هذا الطالب، فتى لا يعرف حتّى اسمه ويُحتمل أنّه أنزل بنطاله إلى مستوى كاحليه في هذا المكان بالذات. أغضبته هذه الصورة. ليس صورة زوجته بل صورة الفتى. لم يدرِ ماذا يفعل فمزّق كتابين ورمى بهما تحت المكتب، واستخدم علبة كبريت وجدها في حاوية الأقلام ليشرع في حرق الكتب. عندما خرج الأمر عن السيطرة، وقد شعر بحرارة اللهب تلفح وجهه، فتح الباب وصاح: «حريق!» كان، بالتأكيد، مرتبكاً، لكنّه ليس مفتعل حرائق.

حدّق طويلاً في الكلب على البطاقة البريدية. لن يوحي له الكلب بما يجب أن يكتب. مرّت به مجموعة فتياتٍ يقهقهن على درّاجاتهن، ويترنّحن على طول الطريق وعرضها وهواتفهن المحمولة جاهزة للاستخدام. زعقت الببغاوات الخضراء (ذات العنق المطوّق) في المتنزّه الصغير الذي يقع عند طرف الحيّ. وجوده وحده في المنزل لم يكن يزعجه. كان هناك على طاولة القهوة أمامه كأس من النبيذ الأحمر. شعر أنه أكثر هدوءاً وارتياحاً. سار وهو يعرج من «برونا» إلى كشك الأزهار حيث اشترى باقة كبيرة من الخزامى الصفراء، ليس ذلك النوع الخاص بعيد الميلاد، بل الربيعيّة منها. فالأنواع الربيعيّة جميلة هي الأخرى؛ وسيكون عليه أن يركّز انتباهه realpagex0154xعليها الآن. رأى نفسه يخرج من الباب وحده، ويعود وحده، لا تحيّات أو وداعات، ولا تنهّدات. كان قد كتب العنوان على المغلّف وألصق عليه طابعين بريديين؛ لم يفكّر عندما كان في المتجر بالفارق بين البريد المحلّي والبريد الأوروبي. لم يبقَ عليه الآن إلاّ أن يكتب شيئاً. فما الذي يريد قوله لها؟ ليس الكثير، إذا أراد أن يكون صادقاً جدّاً. كتب عبارة «أنا قادم» مع اسمه تحتها وأسرع في وضع البطاقة داخل المغلّف ولحسه وأقفله، ثم جرع الكأس واتصل بالشرطي.

48

السهولة، التي استخدم بها برادوين مرة أخرى الصواني الساخنة والفرن، جعلتها تدرك أنه متآلف مع الفرن منذ زمن طويل. فقد أدخل فيه ساق الحمل، مع الثوم والأنشوفة كما وعد، لكنه سيأكلها وحيداً. فالفكرة بحد ذاتها أشعرتها بالغثيان. أشعلت سيجارة وهي تقول لنفسها: من أين جاء

بعلبة الأنشوفة هذه؟ هل اشتراها من قبل؟ لا بدّ أنه رأى الهديّة تحت شجرة الميلاد. ربما ينتظرها بشوق تماماً كما كانت هي في الأيام الغابرة تحدّق بجشع في هدايا القديس نقولا، لكنها كانت تضطر إلى الانتظار حتى يُسمح لها أحد بأخذها وفتحها. تعوّدت قتل الوقت بالتحديق عبر النافذة بلامبالاة مصطنعة. تلمّظت بشفتيها، وشعرت أن طعم السيجارة غريب بشكلٍ ما. لن يمكنه عمل شيء ما دامت تحافظ على هدوئها.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

سأل: «أننزرع الورود غداً؟».

«نعم، لا بأس».

جلس إلى الطاولة محتاراً بعض الشيء.

قالت: «أو ربما ننتظر قليلاً بعد».

realpagex0155x«لا بدّ أنّ سام السبب»، قال الفتى وشبك يديه برخاوة وشرع يفرك بالتتابع الإبهام بالآخر.

«ماذا؟».

«الثعالب تشمّ رائحة الكلاب».

حاولت استعادة الشريط في ذهنها. عشر إوزات، ثماني إوزات، سبع إوزات. رأت نفسها وهي تركع في الظلمة والصفائح المتشظّية تضغط على لحمها. كانت هناك أربع أو خمس إوزات قرابة ذلك الوقت، لكنّ الفتى والكلب لم يكونا قد وصلا بعد. أم هل كانا قد وصلا؟ «أتعرفُ الخبّاز وزوجته؟».

«نعم».

«ولماذا لم تقل ذلك؟».

«لم تسألي».

«أليس هناك خبّاز في لانبيريس؟».

«بالتأكيد. كان والدي يقول عادةً إنه يساير أذواق السيّاح فيصنع لهم خبزاً لا يطلبه سواهم. خبزٌ فاخر».

«صرتَ إذاً بلا والدة».

أحنى الفتى رأسه ونظر إلى إبهاميه وهو يجرجر ظفره عبر تجعّدات مفصل إصبعه.

قالت في نفسها: «لم أرد أن أعرف أي شيء عنه. كان عليه أن يكون هنا وحسب. لكن كان عليه أن يرحل أيضاً. وها قد صرت أعرف أنّه بلا أم، وأنّه غادر البيت آخذاً معه كلب أبيه». شعرتْ بالإرهاق. لم تشأ أن تعرف أو تسمع أي تفاصيل. قالت بصوت مرتفع: «صبّ الشراب».

التقط الفتى الزجاجة، علماً أنه كان بإمكانها التقاطها بنفسها، وملأ كأسين. رفعت كأسها ورفع الفتى كأسه أيضاً. نظرت إليه وبادلها النظرة. فاحت رائحة اللحم في المطبخ، فقطّبت حاجبيها.

realpagex0156xقال برادوين: «نخب الحَمل».

«لا».

«نخب الورود؟».

«نعم»، وشربت.

لم تكن رائحة الحَمل بالسوء الذي توقّعته؛ فكأس ونصف الكأس من النبيذ كانتا كافيتين للقضاء على الغثيان الخفيف الذي كان قد أصابها. بالكاد تحادثا خلال الوجبة. تناول الفتى الكثير من اللحم. راقبته وهو يلتهمه بنهم، وتخيّلت حملاً بعجيزة ذات عضلات قويّة، حزمة من النشاط والحيويّة، يقفز فرحاً في حقل كثير الآكام. فهمت لماذا كان برادوين مفتول العضلات بهذا القدر، قوياً ومفتول العضلات، شديداً كاللحم الذي أكله للتوّ، والذي ترجّحُ أنه تناول الكثير منه في طفولته.

رأته يسترق النظر بين الفينة والأخرى إلى شجرة الميلاد متطلّعاً إلى الهديّة التي افترض أنها جوارب. لم يعد يحثّها على تناول الطعام. أكل وشرب. نسي للحظة أن الكلب قد ذهب فصفّر له بصوت خافت.

هزّت برأسها وقالت: «لن يسمعك. لقد رحل». كانت متعبة جداً.

*

انتهى برادوين من تناول الطعام ونهض لرفع المائدة.

قالت: «دعها. سأقوم بذلك بعد قليل. انظر أوّلاً تحت شجرة الميلاد».

لم يصطنع الدهشة وسار مباشرةً إلى الهدية والتقطها وعاد إلى الطاولة. قال بصوت خافت: «جوارب». بدا كأنّه يعاتب، كما لو أنّه يفكّر في اللقاء غير المتوقّع بوالده. وضع الهديّة على الطاولة وانتزع الشريط اللاصق قبل أن يفتح ورقة اللف. أخذ القبّعة بيده، رافعاً نظره، والحَوَل في عينه أكثر وضوحاً من المعتاد، ثم أنزلها فوق شعره الأسود.

realpagex0157x

تناولت جرعة من النبيذ وراحت تراقب الفتى وهو يقف ويدور حول الطاولة ليركع بجانبها. عرفت ما الذي سيفعله حتى قبل أن يشرع، على غرار سام، بلعق يدها الحرّة. حدّقت في رقبته وفي القبّعة ذات اللون الأزرق الباهت وقد برزت ضفائر شعره من تحتها، فحوّل نظره من هناك إلى الشموع التي كادت تحترق عن آخرها على حافة النافذة. كانت شريحة كبيرة من الحَمَل لا تزال متبقّية في الصحن الخزفي. ما الذي يُفترض بها قوله؟ «اربض!». ربما؟

49

استيقظت في الليل. كان تدفق الجدول صاخباً بعض الشيء، وكانت قد رفعت النافذة قبل أن تأوي إلى الفراش. أهذا ما أيقظها؟ هل هبّت الريح؟ شعرت بانتفاخ كما لو أنّها أكلت نصف قدر من البطاطا وطبقاً كاملاً من الجزر البري. تناهت إليها أصوات جلبة من الحمّام. كان برادوين في المرحاض. كافحت للانقلاب على جنبها، وراحت تستمع إلى الجدول متخيّلةً المياه وهي تنساب يوماً بعد يوم إلى البحر، ومياه البحر تتبخّر، والمياه العذبة تتحرّر من الملح، والغيوم تطوف فوق الأرض، والمطر يهطل على الجبل، والمياه تغذّي الجدول. أدركت بعد قليل أن الفتى ليس على كرسي الحمّام، بل ربما هو راكع قبالته، ويحاول التقيّؤ. نهضت ملقيةً بالغطاء جانباً. كانت غرفة النوم باردة. لم تشعر أنّها منتفخة وحسب، بل في حالة رهيبة أيضاً. رهيبة إلى درجة أنها تكاد لا تستطيع جرّ نفسها للوقوف على قدميها. كان بيت الدرج مضاءً وباب الحمام مفتوحاً على مصراعيه. سارت إلى هناك متّكئةً على الدرابزين. لم يكن برادوين قد أضاء النور في الحمام نفسه، ولم يكن راكعاً بل يقف منحنياً وممسكاً بطرفي كرسي الحمّام. كان ظهره العاري أشبه بظهر حيوان مريض، محدودب ولكن قوي، منحنٍ ولكن مشدود. لاعب جمباز. لم يسبق لها أن رأته على هذا الشكل. وضعت يدها على أعلى ظهره وحرّكتها من الكتف إلى الأخرى من دون أن تضغط وقالت: «هيّا، هيا». شعرت بموجة تتكوّن تحت يدها، فوضعت يدها اليسرى على معدته، وتخيّلتها أكثر اسمراراً من المعتاد وعضلاتها مشدودة، وشعرت بإصبعها الصغيرة على الشريط المطاطي للباسه الداخلي. بدا كما لو أنّها هي التي دفعت بالقيء خارجه. حبس نفَسه وتقيّأ، فأحسّت بجسمه يسترخي. لم تشعر قط من قبل أنها قريبة منه إلى هذا الحد. كما أن إمساكها به بهذه الطريقة ساعدها في الوقت نفسه على البقاء منتصبة.

قالت: «من كان يظنّ أن اللحم الذي جلبه والدك سيصيبك بهذا السقم!».

سعل من جديد وتقيّأ، ثم قال: «اللحم؟».

«أنا لم أتناوله قط».

«ومن قال إن السبب ليس يدك؟».

نظرت إلى اليد التي على كتفه، وفكّرت: لا، إنها اليد الأخرى، اليد اليسرى التي تلامس معدته الآن. هل يدها مصابة بعدوى؟ وقف الفتى ومسح فمه وتفلّت بذلك منها، ثم خطا جانباً وشرع في فرك أسنانه بالفرشاة. لم يكن الضوء المنبعث من غرفة الدرج كافياً لرؤية وجهه بصورة صحيحة.

قال بعد أن غسل فمه: «إنني أمزح وحسب».

قالت: «نعم، طبعاً».

كانا يقفان أحدهما قبالة الآخر، أو بالأحرى جنباً إلى جنب. أخذ يدها ورفعها إلى فمه. «أمزح وحسب»، قال من جديد وطبع قبلة عليها. «أراكِ غداً»، وخرج من الحمام وأغلق باب المكتب وراءه.

لم تستطع كذلك تمييز وجهها بوضوح في المرآة. لحست ظاهر يدها؛ كان الطعم طعمها. تناولت قرصاً. لمّا عادت لاحقاً إلى الفراش بدا خرير الجدول أكثر لزوجةً، وبدت لها الدورة المائية عندما تخيّلتها من جديد أكبر في شكل مطلق، وأكثر زرقةً realpagex0159xوبياضاً ورطوبة. وضعت يديها على بطنها ليبقى الفتى معها بطريقة ما. شعرت بتوتّره ينزلق تحت جلدها. كم كان سهلاً عليها ترك إحدى يديها تنزل قليلاً ووضع الأخرى على صدره، وسحبه صوبها ورأسه على كتفها وعنقه أعزل ورائحته ممزوجة بنكهة حامضة. «خذْ وأعطِ»، قالت في نفسها، وهي تتخيّل مجرى المياه من الجدول وصولاً إلى غيمةٍ تكاد تمطر فوق الجبل. هو يسندني وأنا أسنده. يجب أن يرحل، دون أن يرحل تماماً. «هيّا، هيّا»، و«صه»، هذا كلّ ما يهمّ.

انجرفت بعيداً مع انسياب الجدول اللزج، وتركت أفكارها تذهب بعيداً. كانت على وشك أن تغفو. امتلكت ما يكفي من الوقت لتفكّر في المتعة التي يمنحها النوم. كم تنفصل عن كل شيء آخر حين تنام، وكم تتحرّر من كلّ تلك الأمور التي تشغل بال الناس عندما لا يكونون نياماً، الأمور التي تخيفهم، الأمور التي تلوح أمامهم مثل جبل.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

«لا بدّ أن الأنشوفة هي السبب»، قال برادوين وهو يستند إلى المجرفة المكسورة المقبض التي كان يستخدمها في تسوية ما قلبه من التراب. بدا أكثر شحوباً بقليل من المعتاد، ربما

بسبب القبّعة. فقبّعته القديمة كانت خضراء داكنة، ولم يعمد، وهو يرتشف القهوة في وقت سابق من الصباح، إلى نزع الجديدة عن رأسه. «عثرت على علبة الأنشوفة في خزانة المطبخ. من يدري، قد يكون عمرها ثلاثين عاماً». كانت مستندة إلى حائط زريبة الخنازير القديمة، والشمس مشرقة والريح ساكنة تقريباً، وكانت كل آثار الثلج والشتاء قد اختفت. شعرت، كما في السابق، بالدفء يشعّ من الآجرّ الفاتح اللون، وكما في السابق ارتفع دخان سيجارتها عموديّاً.

«يا للفكرة الغريبة، أن تكون المرأة قد اشترتها قبل زمن طويل على ولادتي».

realpagex0160x

أدارت رأسها. لم تكن البقرات على الجانب الآخر من سور الحديقة. بدا المكان موحشاً. أخذ سرب من الطيور السود الصاخبة يطير من شجرة إلى أخرى؛ لم تحاول حتى تسميتها، فقد كانت هناك احتمالات كثيرة: غربان، غربان زرع، طيور غدّافٍ أو رخّ. بدا كما لو أنها تستغرق وقتاً، دقيقةً ربما، لتدرك أنّ شجرة معيّنة غير ملائمة لها.

«لعلّها لا تفسد أبداً كونها منقوعة في الزيت؟».

كان قد شرع في تسوية المستطيل الثاني، وكان التراب بنياً فاتحاً، ولم يكن يبدو غنيّاً جدّاً. لم تكن هناك أي غيمة تُنذر بالشؤم. كانت الإوزات، البعيدة من حيث كانت تقف، تقوقئ بنعومة، وكانت راضية وغير خائفة. كانت تستمع إليه لكنها لم تستوعب كلّ ما قاله. ربما كان سعيداً لشعوره بأنه في حال أفضل، وقد ارتاح لتمكّنه من تناول قطعة من البسكويت مع قهوته. لم تشعر برغبة في الإجابة. كان يعمل، ويعرق، ويشعر بالصحة وبالحياة. مجّت سيجارتها التي كانت تمسك بها بين أصابع يدها اليسرى، تلك اليد التي أنحى عليها بالملامة في تقيّؤه، قبل أن يخرج بنظريّة الأنشوفة،

بغضّ النظر عمّا إذا كان يمزح أو لا. عاودتها رائحة المرأة العجوز من جديد، بالرغم من أنها تقف في الخارج، في الهواء الطلق، وبالرغم من دخان السيجارة. رمت بعقب السيجارة بعيداً وفتحت باب الزريبة. لم يكن قد تبقّى الكثير من الحطب، فقد تقلّص المخزون من دون أن تلحظ ذلك. منذ مدة والفتى يهتمّ بالفرن وبالمواقد، إضافةً إلى ذهابه إلى متجر «تيسكو» وفرن وانفاور، وهي تلازم المنزل وجواره، باستثناء الزيارة التي قامت بها للطبيب. لقد حاولت منذ قدومها أن تُبقيَ عالمها محدوداً، ثم خرجت، وشعرت بحنينٍ جارفٍ إلى الديار حين وقفت في الجناح المبرّد في متجر «تيسكو»، وحين مشت باتجاه الخبّاز، وحين قصّت شعرها، وحين وقفت في البركة. وها هو العالم يعود محدوداً من جديد. ضعف الحنين إلى الديار، حتى كاد يغيت كلياً. وها إن الحديقة وحقل الإوز والمنزل وسريرها والرفّ تحت مرآة الحمام وعلب الأقراص تصوغ حياتها بأكملها، وفي غضون أشهر قليلة فقط. ستكون هذه حياتها لغاية رأس السنة على الأقل. لأنّ هذا المنزل والحديقة ليسا realpagex0161xلها؛ والرفّ تحت المرآة ليس رفّها. ما هي إلا سائحة، عابرة سبيل، أجنبية، ألمانية بحسب معظم الناس هنا.

صاح برادوين: «سأقوم بزرعها».

حدّقت في البلاطات المخضوضرة على أرضية القبو. تخيّلت لبرهة أن برادوين هو الذي جلس، بدلاً من سام، في البيك-آب الكبير الأسود العائد لصاحب مزرعة الخراف الأحمق، وأن الكلب هو الذي يتشمّم في الجوار الآن.

قالت: «أحتاج إلى قنطرة أخرى». لم تعد شتلات الورد تعني الكثير الآن وقد أضحت في التراب. كانت تبدو أكبر بكثير وهي في أوعيتها. «سنضعها هنا، على امتداد طرف الطريق، كمدخل إلى الدرب الجانبية. عليك أن تشتري شتلتي ورد مميّزتين. وورود تريد التسلّق».

«معترشة»، قال الفتى.

«أهذا اسمها؟ خذ السيارة واذهب إلى مركز ديكنسون للوازم الحدائق».

«الآن؟».

«لمَ لا؟ سأعطيك المال».

«حسناً».

سحبت مئة جنيه من محفظتها وأعطته الأوراق المالية.

لمّا مضى، رفعت الغطاء عن صندوق القمامة وفتّشت في داخله فعثرت على علبة الأنشوفة الفارغة والمدهنة. سارت إلى النافذة التي تعلو المجلى وقرأت في أسفلها، من دون كثير من الصعوبة: «يُفضّل استخدامها قبل حزيران ١٩٨٤». كان الفتى محقّاً.

رفعت نظرها إلى أعلى. كان الدخان يتصاعد من مدخنة غير مرئيّة، مخبّأة بين أشجار السنديان، كما في يوم عادي من شهر حزيران. دخان طبخ وليس دخان realpagex0162xتدفئة. وكان النحل يتراقص أمام نافذة المطبخ، والفراشات ترفرف من وردة حمراء إلى أخرى صفراء. كان سور الحديقة قد ارتفع مدماكين إضافيين، وثمة مزارع على جرّار أحمر باهت يبعثر العشب لتجفيفه، وأشجار جار الماء على طول الجدول مورقة وغضّة. كانت قد رفعت شعرها وارتدت مئزراً. لعلّها أضحت أرملة بالفعل، ولعل الرجل على الجرّار الأحمر الباهت هو السيد إيفانز، وهي على وشك أن تحمل إليه شيئاً، في سلّة. التصقت بالمجلى وفكّرت في إضافة بعض الجعة الباردة إلى محتويات السلّة، زجاجتان، ما يكفي لإشعار إيفانز بالخمول وبأنه على استعداد لترك العشب وشأنه لبرهة، والاستلقاء تحت شجرة سنديان، ليتمدّد معها في الفيء، دافئاً، ومن دون ثياب.

عاودت رمي العلبة في سلة المهملات وغسلت يديها بالماء القارس، ثم انتعلت حذاءها من دون شدّ الرباط وتوجّهت إلى الطابق العلوي.

51

كانت صورة ديكنسون تواجه الجدار من جديد. أدارتها وهي تتنهّد. منذ أسابيع والفتى ينام في أجمل غرفة في المنزل، وهي الوحيدة التي فيها نوافذ على الجانبين. هي «غرفةٌ بإطلالةٍ مزدوجة»، كما سيسمّيها برضا، الباحثون عن منازل في برنامج «الهروب إلى الريف». «المكان مضيء جدّاً ومشرق ومهوّى!». منذ أسابيع وديوان ديكنسون مفتوحٌ وموضوعٌ على الطاولة المصنوعة من خشب السنديان، وبجانبه أوراقٌ صغيرة بيضاء، وقلما الحبر والرصاص في حالة انتظار. كتاب هابغر الضخم للغاية لم يشر حتى إلى القصيدة، ناهيك بمناقشتها. شعرت فجأةً بالحنق، ليس فقط على كاتب السيرة - النمّام القديم - بل على ديكنسون أيضاً؛ المرأة النائحة التي اختبأت في منزلها وحديقتها، وأصرّت على أن يتجاهلها الناس، عبر كل ما فعلته realpagex0163xوما لم تفعله، لكنها في الوقت نفسه سعت، كالطفل المتفجّع، كي يعترف الناس بها، ولاسيما أولئك الذين أظهرت تجاههم عاطفةً جيّاشة، عبر رسائلها بالتحديد. كان الأمر يخيفها حتى الموت، امرأة حرة قزّمت نفسها، وجَبُنت، وصارت توقّع رسائلها بعبارة «قَزَمَتك»، والتزمت غرفتها في هلع أثناء تأبين والدها المتوفّى في بهو المدخل، لكنها أبقت، بشكل يسترعي الانتباه، الباب مشقوقاً لتطلب لنفسها حصّة الأسد من الانتباه. كتب أحد الرجال الذين راسلتهم: «لم يسبق لي أن كنت مع شخص امتصّ هذا القدر من طاقتي العصبيّة. استنزفتني من دون أن ألمسها. أنا سعيد لأنني لا أعيش على مقربة منها». المرأة التي ارتدت ثوب العذرية الأبيض. لم تدرك إلا الآن أن هذا الحنق هو الذي حفّزها على كتابة الأطروحة وإخضاع قصائد ديكنسون للمراجعة النقدية لاسيما أنها اعتبرت أنها لا تستحق التقدير الذي حصدته. أشبه ما يكون بيوم الحساب. قالت بصوت خفيض: «هذا ليس جيّداً، ليس جيّداً».

التقطت «سيرة الحياة» و«المجموعة الشعرية» ونزلت بتثاقل الدرج الخشبي وقد ارتدت جزمتها، وقبل خروجها رمت بـ «سيرة الحياة» في سلّة المهملات فوق علبة الأنشوفة الفارغة. والأسوأ هو أن ديكنسون ظلّت تثير حنقها، حتى في هذا الوقت وهذا المكان. وضعت «المجموعة الشعرية» على الطاولة وجلست على الكرسي وشدّت رباط جزمتها.

عبرت الجدول وهي تفكّر في المسافة التي يتوجّب عليها اجتيازها. سلكت مسارها الخاص خطوة فخطوة. كانت قد سحبت غصناً من أغصان شجرة جار الماء من الكومة لاستخدامه عصىً للسير، اختارت غصناً أعلى بقليل من خصرها، وكانت الآن ترجّحه إلى الأمام وتنزله ثم ترجّحه إلى الأمام من جديد. احتاجت عند السلالم المزدوجة إلى استخدام يديها أكثر من ذي قبل: لم تفلت العمود أو العارضة الفوقيّة إلاّ بعدما لمست قدماها الأرض في الجهة المقابلة. كان الهدوء يعمّ حرج السنديان، وكان ثمة ضباب خفيف يعلو الجذوع والأغصان المغطاة بالطحالب، ولم تكن ثمة حيوانات في المكان. لا أبقار ولا خراف ولا حتى سناجب رمادية. أمكنها تخيّل realpagex0164xالسناجب في حالة سبات؛ أمكنها تخيّل أي حيوان برّي كثّ الفراء وهو في سبات. شعرت بالحر، وفاحت رائحة مألوفة من ياقة معطفها السميك؛ رائحة السيدة العجوز إيفانز.

لدى بلوغها الحلقة الحجريّة شعرت بحاجة إلى الجلوس، لكنّها قرّرت متابعة السير. كانت الصخور قد جفّت؛ وتحوّل لون الطحالب إلى الرمادي الشاحب والأصفر المائل إلى البنّي، وكانت أجمات الوزّال تفوح برائحة جوز الهند الغامضة. سارت بمحاذاة الضفة الطبيعية بين حزم الأعشاب اليابسة. لم يكن هناك أي أثر للأبقار السود ولم تستطع سماع زقزقة أي عصفور. كانت وحدها تماماً كما لو أنّها، هي الأخرى، لم تكن في المكان. عبرت الحقل إلى البركة، متجاوزةً الصخرة المنتصبة التي ضربتها بعصاها بشدّة. لم تكن المياه اليوم تشبه طبقاً من الفضة تمّ صقله للتو؛ فقد كان نسيم يكاد لا يُلحظ يموّجها، وكانت تتدفّق في البعيد عبر مبنى الآجر الصغير. ارتعدت حين تذكّرت أنها وقفت في البركة منذ فترة ليست ببعيدة، وراحت تنظر إلى انثناء جسمها بفعل انكسار الضوء، وإلى فقاعات الهواء في شعر عانتها والأسماك الصغيرة حول أصابع قدميها. سارت إلى الصخرة الكبيرة التي وضعت عليها ثيابها في المرة الماضية وجلست وأشعلت سيجارة. عبرت سيّارة طريقاً غير مرئيّة. أخذت تحرّك المياه بالعصا محدثةً مويجات صغيرة تداخلت مع التموّجات التي يسبّبها النسيم، وتابعت إحداها بنظرها إلى أن تلاشت عند الضفة المقابلة. عندما حاولت مجّ سيجارتها لاحظت أن فمها لم يعد يطبق. ذعرت وأخذت تدفع فكّها السفلي بيدها، لكنها رغم ذلك لم تستطع الشفط؛ كما حين اقتلع جرّاح الأسنان ضرس العقل من فكّها العلوي وترك فجوةً مرتبطة بالجيب الأنفي لاغيةً الفراغ الضروري للتدخين. رمت بالسيجارة في البركة وأخذت نفسين عميقين عبر أنفها، ولم تتمكن من ذلك إلا بضغط لسانها على سقف حلقها. فلسانها كان لا يزال يعمل، وأمكنها بعد ذلك بقليل أن تغلق فمها. وقفت فشعرت بركبتيها تهتزّان، فاتّكأت بقوة على العصا وسارت صوب الصخرة المنتصبة واستراحت عليها، واضعةً يدها على قمّتها الباردة وهي تنظر إلى الأشجار التي تكسو التلال المترامية.

realpagex0165x

تخيّلت، قبل أن تشرع في التسلّق، المزارع إيفانز يجلس على الجرّار وهو يبتسم بخبث، وتخيّلت السلاسل والآثار العميقة في العشب. ربما ساعدته السيدة إيفانز، قبل أن تترمّل، في نصب الحجر تاركةً السلّة التي تحتوي على لفّات الخبز والإجاصتين وزجاجة عصير الليمون عند حافة الماء، وربّما تضاحكا وركضا وتقلّبا على العشب.

لم ترد معرفة أي شيء. قاومت الرغبة في البحث عن الأمر على الإنترنت. لقد غادرت، مثل هر عجوز يريد أن يُترك بسلام. لم تختبر بنفسها كيف يكون القطُّ الذي يريد أن يُترك بسلام، ذلك أنهم لم يربّوا هرّاً في بيتهم الصغير في «دي بييب»، فعمّها هو الذي كان يربّي القطط. قال وقتها: «إذا رحلتْ القطط فيعني ذلك أنها ماتت»، ووافقته العمة بهزّة من رأسها. التفتت مرة أخرى إلى الماء وأخذت تفكّر فيه. لماذا لم يقل له أحد: «هيا، تابع»؟ لماذا بذل كل فرد في المطبخ أقصى جهده لإخراجه من البركة وإلباسه ثياباً جافة ووضع حذائه على الفرن؟ هل لإعطائه فرصة للقيام ببعض أعمال النجارة؟ قالت: «خزانة جدار ربما»، وتابعت سيرها.

كان الضوء قد تغيّر في المرة الثانية التي بلغت فيها الحلقة الحجرية، وكان لون زهر الوزّال قد أضحى أصفر داكناً، وأخضرُ الأعشاب الجافة مختلفاً. جلست على الصخرة الكبيرة وتجرّأت على وضع سيجارة في فمها بالرغم من ارتجاف يديها، وأوقعت الولاّعة بعد إشعالها. كان الصمت المطبق لا يزال مخيّماً. قالت في نفسها: «سيّدة الغرير من دون غرير». شعرت بالثقل يزداد في ساقيها وبالتصلّب في ظهرها وبالإرهاق في ذراعيها. لن يأتي، ربما كان في مرحلة السبات. أليست الغرائر نوعاً من الدببة الصغيرة؟ اجتازت ببطء المرحلة الأخيرة إلى المنزل. وقفت طويلاً على العوارض التي فوق الجدول، تنظر إلى المياه تنساب إلى أسفل التل وهي ترغي وتزبد.

مياه صافية وقارسة كالجليد.

52

كان برادوين قد نصب القنطرة في الأرض. بقيتْ بضع ثوانٍ خلف الحائط في الموقع الذي قفز من فوقه قبل بضعة أسابيع. تمكّنه من ذلك كان مثيراً للإعجاب، فالحائط يبلغ مستوى صدرها. أكان ذلك صوته وهو يصفّر برضى تصفيراً خافتاً؟ بل إنّ قفزة سام كانت أكثر إثارةً للإعجاب. تبعت الدرب إلى البوابة المجاورة لزريبة الخنازير القديمة. لم يبدّد السير، من الحلقة الحجرية إلى المنزل، إلاّ القليل ممّا كانت تشعر به من ثقل وتصلّب في ظهرها وساقيها. كانت معترشتان قد انتصبتا عند الجدار الجانبي؛ وكانت إحداهما تحمل وردة.

استدار برادوين وقال: «انظري».

«رائع. ممتاز. سآتي على الفور». أسندت غصن جار الماء إلى الحائط بجانب باب المدخل وولجت المنزل. أخرجت وهي في الحمّام كل مغلفات الأقراص خارج العلب، وابتلعت قرصاً بجرعتين كاملتين من الماء، ثم عادت من جديد إلى الأسفل. فتحت طاقة الموقد في غرفة الجلوس ورمت بالعلب في النار، ولم تعاود الخروج إلا بعد أن رأتها تلتقط النار وتشتعل. فكّرت في الوصفة ورأت قصاصة الورق تزلق عبر منضدة الصيدلي. لا بدّ أنّ هناك سجلاً بذلك محفوظاً في مكان ما، لكن لا يهم، ففيه اسم الطبيب وعنوانه فقط، وليس اسمها وقطعاً ليس عنوانها. كانت الشمس قد توارت؛ وعمّ وهج أحمر فوق حقل الإوز. ستظلم بعد نصف ساعة، ربما بتأخير حوالى دقيقتين عن الأمس، وهو فارق لا يمكن ملاحظته عملياً. كاد عيد الميلاد يحلّ.

سألها الفتى: «أتودّين غرسهما؟».

«حسناً».

مضى إلى الحظيرة ورفع الوعاءين وسحب شتلتي الورد من جذعيهما. كان قد سبق له أن حفر حفرتين ملأهما ببعض السماد العضوي من كيس يقبع تحت القنطرة على الممر الحصوي. «حاذري الأشواك».realpagex0167x

أنزلت المعترشة الأولى في الحفرة وهمّت بالجثو على ركبتيها.

«دعيني أفعل ذلك»، وكان قد قرفص بالفعل لملء الحفرة بالسماد العضوي، ثم وقف ليضغطه بقوة بقدميه.

قالت: «أنت لست لاعب جمباز فحسب، بل بستانيّ أيضاً».

آه، على الإطلاق. في وسع أي إنسان القيام بهذا. هل خرجتِ في نزهة؟».

«نعم».

«هاكِ»، وأعطاها بضعة شرائط خضراء. «إذا قمت بربط هذه، فسأغرس الأخرى».

ربطت غصنين بالقنطرة وقامت بالأمر نفسه من الجانب الآخر بعد أن زرع برادوين الثانية أيضاً. تمايلت الوردة الوحيدة، الضاربة إلى البياض، والتي كانت برعماً أكثر مما كانت وردة، على غصن كان رفيعاً للغاية لكنه لم ينكسر. مضى الفتى إلى الداخل وعاد حاملاً قدراً كبيرة. لم تدرك ما يفعله إلا عندما أمال القدر قرب إحدى الوردتين وتدفق منها الماء. رمى بالقدر على العشب، ووضع يديه على خاصرتيه وتنهد بارتياح، وقال: «حان وقت برنامجك المفضل».

«هذا هو المطلوب!» هتفت عاهرةٌ مدلّلة. بالرغم من أنها وزوجها الذي لا يقلّ عنها فجوراً كانا يمتلكان رصيداً بقيمة ثمانمئة ألف جنيه، فإن بحثهما عن منزل لم يتكلّل بالنجاح. هو كان يريده «عصرياً»، فيما هي كانت تريده «متميزاً». قالت في سرّها: «احسما أمركما، بحق اللّه، ولا تزعجانا» . قال الزوج: «هذا لا يناسبني، لا يناسبني على الإطلاق». تأوّهت ممتعضة. أتاها برادوين بزجاجة من النبيذ الأبيض من دون أن يصدر عنه أي تعليق إضافي. لم تلحظه إلا عندما أصبح بجانبها تماماً. كان قد سار خفيةً بقدميه اللتين لبس بهما جوربي «ي» و«ش». realpagex0168xقالت في نفسها: «يا له من شخص غريب الأطوار. إنّه يعتني بي جيّداً». انسلّ الفتى من الغرفة خارجاً، ولم يكن قد انتزع قبّعته الجديدة. كان خدّها الأيمن يتوهّج من حرارة الموقد.

استرخت بعض الشيء، وأرجعت رأسها وأسندته إلى الأريكة. أخذ الحديث الآن على التلفاز يتناول الأروقة المصمّمة على النمط الفيكتوري النموذجي. لكن تراءى لها صالون شيرلي لتصفيف الشعر؛ ريس جونز وهو يلوّح بيده الكبيرة لإبعاد دخان السيجارة؛ الطبيب بمعطف الحلاّق الفيروزي اللون وبعيني المدخن الحمراوين كالدم، والتواءة فمه الداعرة الغريبة؛ مصفّفة الشعر وهي تقهقه بصوتٍ عالٍ حيث يتراقص ثدياها وتنتفخ العروق في عنقها بفجور؛ المجلات المختصّة بالبيوت والحدائق والممتلئة باليقطين الأخضر؛ وهناك أيضاً الباب الذي فُتح ليدخل منه الخبّاز دون جميع الناس؛ فقد آن الأوان ليقصّ شعره هو الآخر، وزوجته أوين تدفع به إلى الداخل وتمويجة شعرها هي الأخرى مرتخية ومتهدّلة بعض الشيء؛ فسوف يحلّ عيد الميلاد بعد أيام. فجأةً اكتظ صالون الحلاقة. ثمة كلب رعاة من فصيلة «كولي» يتمدّد تحت طاولة المجلات وهو يلعق إحدى قوائم الطاولة. ولعلّ كلب آخر تمدّد في المكان نفسه منذ وقت قريب. وها هو الهاتف يرنّ. ردّت شيرلي، وقالت في دهشة: «نعم، إنّه هنا. لا بدّ أنّك عرّاف». أخذ ريس جونز السماعة ليجري مكالمة وجيزة مع صديقه وكيل العقارات مؤكّداً له بابتسامة أن المرأة ستخلي المنزل، وأخبره أيضاً أنّه تحسّسها وأنّ لها «مؤخّرة رائعة»، وأنها توّاقة جدّاً إلى التجاوب مع محاولات إغوائها؛ ومن المؤسف أنها ستغادر فعلاً؛ لا يعلم أحد إلى أين. الغريب أن أي عملية قصّ للشعر أو غسل أو تجفيف لا تحدث. وعبارة «غرائر» تتردّد بانتظام، ويضحك عندها الجميع باستثناء زوجة الخبّاز

والكلب، فالكلاب لا تضحك، ويبدو أن هذا الكلب يحاول أن يزحف بعيداً أكثر فأكثر عن الناس. ثمة صناديق قرب الباب تحتوي على قطع كبيرة من اللحم يسيل منها دم خفيف على الأرضية المبلّطة. سألت شيرلي صاحب مزرعة الخراف عن حال ابنه، وعما يفعله في هذه الأيام؛ فامتقع وجه المزارع وصفّر لكلبه كي يخرج من تحت طاولة المجلات. realpagex0169xكاد ينزلق على بركة الدم التي تكوّنت على مقربة من الباب. شرع كلبه في لعق البلاط. «تمتّعي بلحم حَمَلك»، قال ريس جونز قبل أن يصفق الباب وراءه. وها هي الآن تسمع صوتاً ينادي «إيميلي» في صالون تصفيف الشعر. «إيميلي». ليس واضحاً مَن الذي ينادي. يبدو الطبيب مذنباً ويسأل، كممثّلٍ رديء، عمّن يتكلّمون.

كان برادوين يقف إلى جانب الأريكة. قال، ربما للمرة الثانية، «الشاي جاهز».

كان فريق من الأذكياء يتبارى في اختبار على التلفاز. يطلقون عليهم هنا اسم «الألمعيين»، وهو تعبير أكثر سخريةً حتّى من رديفه في هولندا «الحاذقين»، وهم من نوع الأشخاص الذين قدّموا أطروحات دكتوراه تتناول أشخاصاً كإيميلي ديكنسون.

53

كان الفتى قد وضع شموعاً جديدة في الشمعدانات على حافة النافذة. كما أضيئت أيضاً شمعة الطاولة. كانت مجموعة ديكنسون الشعرية موضوعة، وهي مغلقة، على مقربة من طبقها الذي كان يحتوي مرة أخرى على سمك الحدّوق مع البطاطا المهروسة والشمّر. إنه طعام بلا لون.

جلست ونظرت إليه، وهي تفكّر في الطريقة شبه الخانعة التي اتّبعها في خدمتها طوال الساعة ونصف الساعة الماضية، وهو يرصّ التراب، ويصبّ الماء. سألته: «لماذا لا ترحل؟».

«ومن سيطبخ؟».

«يمكنني الطبخ أيضاً».

«ومن سيزرع الورود، ويتسوّق، ويبقي الموقد مشتعلاً؟».

realpagex0170x«لماذا؟».

نظر الفتى إليها. بدت القبّعة جيّدة عليه حقّاً، حتّى وهو يجلس إلى مائدة الطعام.

«هل جلبت المقلاة؟».

قال: «لا».

سألته من جديد: «لماذا؟».

قال: «وهل أطرح عليك أسئلة؟ سمّري نظرك على ما تحت شجرة الميلاد».

ألقت نظرة جانبية. كانت ثمّة هديّة موضوعة هناك. أخذت جرعة كبيرة من النبيذ قبل أن تنهض لتجلبها. وقفت على مقربة من شجرة الميلاد وهديّة برادوين في يدها.

قالت بلطف: «جوارب».

ضحك الفتى ضحكةً خافتة. «تلك المرأة لا تعرف ما الذي تتحدّث عنه».

انتزعت الورقة: كان قد اشترى لها ببساطة قبّعة من الصوف. قبّعة بشعة بشكل لا يُصدّق، وقد خيطت بها أزهار في تشكيلة من الألوان التي يكاد تتناقض كلّها مع لون القبّعة نفسها. قبّعة «هيبي» [11]، بل كانت لها شرّابتان تتدليان من الجانبين. ابتلعت ريقها، وسَرّها أنّها تدير له ظهرها. ابتلعت ريقها من جديد قبل أن ترتديها. لقد ناسبت رأسها تماماً. قالت، وهي تستدير عادةً إلى الطاولة: «هذا ما كنت أحتاج إليه بالضبط».

بدا السرور على برادوين، وأخذ يأكل.

شربت وغرزت شوكتها في السمكة.

«ما قصة ديكنسون هذه؟»، سألها مشيراً إلى «المجموعة الشعرية» بملعقة السكب الممتلئة بالبطاطا المهروسة.

«نعم، أردت أن أسألك ذلك أيضاً» realpagex0171x.

«ماذا تعنين؟».

«لماذا تواصل قلب الصورة؟».

«تلك العينان الخرزيّتان الصغيرتان».

«ما هي إلا صورة».

«وإن يكن؛ فهي تصيبني بالقشعريرة. وأنت؟».

«علاقتي بها ناتجة من عملي».

أخذ الفتى يمضغ طعامه. «هممم».

«هي أيضاً كانت تمتلك كلباً».

«حقاً؟».

«نعم، كارلا»، قالت ذلك وقد زمّت شفتيها بين إبهامها وسبّابتها لتكوّنا دائرة. كان الكلب يدعى في الحقيقة «كارلو»، والاسم ماثل في رأسها، وهذا تفصيل آخر أغضبها في السيرة التي كتبها هابغر، لأن الرجل لم يشرْ إلى الكلب إلا أربع مرات. كان من نوع «نيوفاونلند»، وهو حيوان ضخم كثيف الشعر، وكان اسمه «كارلو». لقد سبق لها أن بحثت عن صورة لهذا الفصيل. امرأة صغيرة القدّ، خجولة وصديقها الوحيد كلب كبير، وهابغر لم يبالِ. زمّت شفتيها لتشكّلا دائرة، وحاولت أن تلفظ اسم الكلب مرة أخرى: «كارلا».

قال الفتى: «كلب صغير مدلّل».

«لا بل كلب كبير جدّاً»، ووضعت ظاهر كفّها على جبهتها الساخنة وأفرغت كأس نبيذها. «صبّ لي المزيد».

التقط برادوين المطيع الزجاجة. «اسم غريب لكلب كبير».

«نعم». اسم غريب لكلب كبير. كانت تعلم أن ذلك يعني شيئاً، لكن أعيتها إلى حدّ ما ترجمته. أرادت الصعود إلى فوق، إلى الرفّ الموجود تحت المرآة، لتتناول realpagex0172xقرصاً واحداً، بل قرصين. نهضت وعبرت غرفة الجلوس والدرج. لم ينادها الفتى. أمسكت بمغلفات الدواء من دون أن تشعل الضوء في الحمام، وتجرّأت على النظر إلى نفسها والنور يضيئها من الخلف. لحسن الحظ أنها كانت ترتدي قبّعة قبيحة، سلعة مزخرفة. ما من شيء يمكن للناس أخذه على مأخذ الجد. قالت: «كارلو، أووو». رأت فمها يفتح ويغلق من جديد: مبهم، عديم اللون. كان الحمام يفوح، بالطبع، برائحة السيّدة إيفانز كما لو أنها خرجت قبل عشر دقائق فقط من حوض الاستحمام وجفّفت نفسها، وهي تستند بين حين وآخر إلى المغسلة بيد واحدة. ابتلعت القرصين بجرعة كبيرة واحدة من الماء. عندما انتصبت من جديد ترجّحت الشرابتان بابتهاج.

قال الفتى: «إنك لا تدخّنين». كان قد نظّف الطاولة ورمى بالطعام من طبقها في سلة المهملات، وبدأ بالجلي.

«ماذا؟».

«لم أركِ تدخّنين منذ الصباح عندما كنت أقوم بتسوية التراب».

تطلّعت من حولها. لم تكن علبة السجائر على الطاولة. نهضت ببطء واستندت إلى ظهر الكرسي قبل أن تبتعد.

«لا أقصد أنه يتوجّب عليك التدخين»، قالها من دون أن يستدير.

التقطت معطفها الذي كان ملقى على الكرسي بجانب الطاولة الجانبية، وتحسّست السجائر في أحد الجيوب. لكن القدّاحة لم تكن في الجيب الآخر. بما أنّها تقف الآن على أي حال بجانب

الطاولة الجانبية، فقد أدارت الراديو، فصدحت الموسيقى. كان هناك أمر أرادت القيام به، أمر كان عليها القيام به. فكّرت فيه. عرفت من الصوت أن برادوين يجلي الآن أدوات السفرة، وتناهى إليها من غرفة الجلوس صوت فرقعة الحطب المشتعل. كان قد خُفض صوت الراديو. ثمة أمر ما. سبق لها أن تخلّصت من علب الأقراص. فكّرت بعمق وشاهدت القدّاحة تنزلق من realpagex0173xيدها، وسمعت تكّتها الجافة وهي تقفز عن الصخرة وتسقط فوق العشب. قالت: «إرمِ لي بعيدان الثقاب تلك».

أخذ الفتى علبة الثقاب عن حافة النافذة، وقذفها بشكل مقوّس في الهواء. مدّت يدها لتلتقطها لكنّها كانت بطيئة جدّاً، أو أن العلبة كانت تتحرك بسرعة كبيرة، فارتطمت بالطاولة الجانبية وسقطت على الأرض قرب شجرة الميلاد. انحنت ووقعت. صار الفتى بجانبها على الفور.

قالت: «لا تقلق، فأنا بخير».

أمسكها من يدها وجذبها حتّى وقفت.

جلست إلى الطاولة، وأشعلت أخيراً السيجارة. وجدتها رهيبة، تكاد تثير الاشمئزاز، كما لو أنها في الرابعة عشرة من جديد، وتدخّن سيجارتها الأولى، التي كانت من نوع "Camel" من دون فلتر أخذتها من عمّها. ربّما كانت تلك واحدة من المرّات الأخيرة التي يسمح لها فيها بالبقاء في منزله. سعلت وحاولت من جديد. أيمكن لأمر كان طيب الطعم لسنين أن يصير فجأةً مثيراً للاشمئزاز؟ أيمكن ذلك؟ كان برادوين لا يزال واقفاً قربها عند مرفقيها. فكرة مرور غمامة من الدخان عبر فمها وقصبتها الهوائية إلى رئتيها كانت في حد ذاتها بغيضة إلى درجة منعتها من الاستنشاق، فأطفأت السيجارة.

سعل الفتى وسأل: «قهوة؟».

«لا»، وأفرغت كأسها ونهضت، ثمّ مضت إلى غرفة الجلوس. أشعلت التلفاز وجلست على الأريكة. سمعته يطفئ الراديو، ويعود إلى الجلي. كانت ترى وتسمع حركة وضجيج، لكن كلّ شيء كان يصلها متأخّراً ثانية واحدة. خندق عريض، بل هو في الحقيقة قناة، ومركب فيه رجلان. سحبا سلالاً من المياه كانت في إحداها سمكة أنقليس. هزّا السلّة ورمياها منها. أوضح الصياد أن نسبة الصيد قد انخفضت ٩٥% منذ استبدال بوابات السدود الخشبية، وكان هناك خروف وحيد في الحقل المجاور للقناة. نهضت على الفور وعادت إلى المطبخ.

realpagex0174x

سألها الفتى: «هل قرّرت تناول القهوة أخيراً؟».

«لا»، توجّهت إلى الثلاجة ففتحتها، وأخرجت قطع اللحم ووضعتها في الصندوق البلاستيكي الذي كان لا يزال على الأرض بجانب الثلاجة.

«ماذا تفعلين؟».

لم تجب، بل حملت الصندوق وسارت به إلى غرفة الجلوس. كان الفتى يتابع، مثل كلب، كل خطوة من خطواتها. كانت أذناه منتصبتين وعيناه يقظتين، وينتظر أن تصدر له أمراً. اضطرّت إلى إنزال الصندوق لكي تفتح الباب الخارجي. لم يكن الجوّ بارداً، بالرغم من انتفاء الغيوم. كانت السماء الفسيحة تجثم فوق المنزل والحديقة. حظيت في خطواتها القليلة الأولى بالضوء الذي كان يشعّ عبر نافذة المطبخ. ما إن اجتازت بقعة الضوء هذه، حتى توقّفت لبرهة كي تألف عيناها الظلمة. كان الجدول يخرخر ويجرف حتات الصخر تحت قدميها الحافيتين. تناولت قطع الحَمَل القاسية المجلّدة الواحدة تلو الأخرى وألقت بها في الماء بكل ما أوتيت من قوة. كانت كلّ قطعة ثقيلة كالصخر؛ وسوف تستقرّ كالحجارة في قاع الجدول. حملت الصندوق الفارغ بيدها برخاوة، وأخذت تحدّق إلى المياه الداكنة، حيث بدأت السماء الشاسعة تصبح مرئية فيها شيئاً فشيئاً. فكّرت في قرارة نفسها أن الامتناع عن التدخين أمر يقوم به الناس الأصحّاء. وشاهدت، وهي تسير عائدةً إلى الباب، زرّ الورد ينمو ويصبح لونه أفتح. شعرت بالدفء في رأسها. ربما كانت القبعة مصنوعة من صوف حقيقي؛ صوف خراف.

بعد أن أغلقت باب المدخل، سمعت برادوين ينقّب في الطابق العلوي، فصاحت وهي تمسح الرمل عن قدميها: «ما الذي يجري في الأعلى؟».

أطلّ برادوين من المكتب، وقال: «إنني أعيد ترتيب غرفة النوم الجديدة».

صعب عليها النظر إلى الأعلى بعد تطلّعها لفترة إلى الأسفل.

«وضعتُ سريرك قبالة الموقد. لا يزال عليّ أن أشعل النار».

realpagex0175x

«وأنت؟».

«على الأريكة كالعادة».

«يا إله الخير»، أطلقتها بتأفّف هادئ وصوت خفيض. فهي لم تدرك إلّا الآن، بعد أسابيع من الإقامة في هذا المنزل، أن الموقد في غرفة المعيشة والمدفأة من فوقه موصولان بالمدخنة نفسها. قالت: «عليك أن ترحل بعد الميلاد».

«لا أعتقد ذلك»، قالها وهو ينزل الدرج.

54

استيقظتْ لأن الفتى وضع حطبتين في الجمر، وكان عليه أن ينفخ لإشعال النار من جديد. انسلّ عائداً إلى الأريكة، بعد أن فتح النافذتين قليلاً؛ فالجو في المكتب كان من دون ذلك لا يُحتمل.

قال: «كان الأمر مختلفاً جداً بوجود سام هنا».

لم تجبْ، وبقيت تحدّق إلى السقف.

«كلاب مثل سام لا تستطيع النوم طوال الليل، وتشرع في التقلّب من جهة إلى أخرى. كان سيتذمّر ويأتي ليتشمّمني».

«وربما نزل إلى الطابق السفلي أيضاً».

«لا، فلطالما بقي هنا».

تنهّدت وأدارت رأسها نحوه. أنزل برادوين نصف جسده تحت اللحاف وقد وضع يديه وراء رأسه. «كم الساعة الآن؟».

«لا فكرة لديّ. هل شارفت على الثالثة؟».

realpagex0176x

بدا جسمها كلّه كأنه ممتلئ بأشياء ثقيلة: رصاص، خرسانة، عوارض السنديان. لم تشأ حتّى محاولة الاستدارة على جنبها. تذكّرت الليلة التي تقيّأ فيها برادوين، وفكرة أنّ بعض التوتّر قد انتقل من جسمه إلى جسمها عبر يديها. قالت: «أنت تجول في المكان أيضاً».

«الآن فقط. فالنار كادت أن تنطفئ».

لا، فجسمها في حدّ ذاته هو الأشياء الثقيلة: ساقان مصنوعتان من ألواح السنديان، بطن من الخرسانة، والرصاص السائل ينساب في عروقها.

سألها الفتى: «ما اسمك الحقيقي؟».

فكّرت للحظة. «إيميلي».

استدار برادوين على جنبه بسهولة كبيرة تاركاً يده اليمنى تحت خدّه وهو يحكّ صدره بيسراه. كانت عيناه تلمعان في وهج النار.

«ما كان اسم السيّدة إيفانز؟».

«لا أدري، فأنا أعرفها السيّدة إيفانز».

«هل كنت تأتي غالباً إلى هنا؟».

«كنت آتي عادةً. في الأيّام الغابرة».

«وهل عرفتَ السيّد إيفانز أيضاً؟».

«كلاّ. فقد توفّي وأنا في الثانية أو الثالثة».

«ألا تزال تشمّ رائحتها؟».

«ماذا؟».

«هل ما زلت تشم رائحة السيّدة إيفانز؟ هنا، في المنزل؟».

رفع رأسه عن يده وقال: «لا».

realpagex0177x

«أنا أشمّها». كان خرير الجدول يُسمع بوضوح هنا في المكتب أيضاً، بل كان أكثر وضوحاً، لأنّ النافذة المطلّة على الدرب كانت أقرب إلى الماء من التي في غرفة نومها.

بدا مختلفاً، كما لو كان جدولاً آخر، أو منزلاً آخر.

قالت بعد صمت طويل: «إلى متى تعتقد أن رائحة الكلب ستبقى تفوح في حقل الإوز؟».

«إلى وقت طويل بعض الشيء، على ما أظن».

«هممم». فرقع الحطب المشتعل، وشعرت بحرارته عند أعلى رأسها. «الأيام الخوالي»، قالت في سرّها. ماذا تعني عبارة كهذه عندما تكون في العشرين؟ وطرأت لها فكرة فجائية. «أيعقل أنك لا تعرف الحلقة الحجرية؟».

«بل كنت أعرفها».

«قلت إنّك لا تعرفها».

«إطلاقاً. قلت إنني ‘لم ألحظها’. فقد كان الجوّ ضبابياً ذلك اليوم».

«وسألتني كيف يمكن الوصول إلى الجبل».

«ليس ‘كيف’، بل سألت إذا كان لديك اقتراح حول الطريق الأجمل لبلوغه».

«أأنت تكذب أم ماذا؟».

«لا، أنا لا أكذب. هل تكذبين أنت؟».

«نعم. باستمرار».

ضحك الفتى ضحكةً خافتة، واهتزّ صدره.

«أراد والدك أن يخبرني كيف لاقت حتفها».

«ماذا؟».

«لكنّني رفضت الإصغاء».

realpagex0178x

«أيعقل؟».

«أردت التخلّص منه بأسرع ما يمكن».

ضحك من جديد ضحكةً خافتة.

قالت: «سأصغي إليك»، بالرغم من أنها وجدت شبه استحالة في إبقاء عينيها مفتوحتين.

نهض الفتى عن الأريكة ولحافه بيده. «افسحي لي».

قامت بما طلب منها باسطةً ذراعيها من فوق الغطاء على امتداد جسمها. استلقى قربها ونصفه تحت لحافه ورأسه عند مستوى نهديها. كان في الأمر نوع من الخضوع ذكّرها بالليلة التي نزل فيها سام إلى الطابق السفلي، ووضع رأسه على ركبتيها.

قال: «أنا من عثر عليها».

«أنت؟».

«هل قال والدي غير ذلك؟».

فكّرتْ في ذلك ثم قالت: «لقد تصرّفَ كما لو أنه يعرف كل ما يتعلّق بالأمر». اضطرّت إلى التنقيب عميقاً بحثاً عن الكلمات الإنكليزية، فالترجمة كانت مجهدة.

«ذلك صحيح. دبّرتُ الأمر حيث يعثر عليها من بعدي. أنا مدين له بهذا القدر.

تكلّم الفتى، واضطرّتْ إلى بذل أقصى جهدها لمتابعته، محاولةَ عدم تفويت بعض الشذرات، أو ترك ذهنها يشرد، لسهولة الاستماع إلى كلماته بوصفها أصواتاً فحسب. حدث ذلك في الصيف. افترضَتْ أنه الصيف الماضي. أراد رؤية السيدة إيفانز من جديد، ربما للمرّة الأخيرة، فقد كانت في النهاية قد جاوزت التسعين. جاء بالدرّاجة من بانغور، ولم يصادف أي درّاج آخر في الطريق. فالناس هنا لا يركبون الدرّاجات، بالرغم من وجود محل لتأجيرها قرب محطة القطار. إنّها للسيّاح الذين لا يستخدمونها هم أيضاً. في أعلى الدرب، كان العشب قد نما كثيراً في الحقول، ما ذكّره بوالده الذي كان، فيما يبدو، يهمل واجباته في جزّ العشب. وذلك أمر طبيعي. لم يكن سام معه، بل كان قد تركه في المنزل. ردّاً على سؤالها أين كان ذلك، أجاب: «في ليفربول». أحيث كان يدرس؟ «نعم، في جامعة هوب. لا تخبري والدي بذلك». تبلغ المسافة بين بانغور وهنا حوالى خمسة عشر ميلاً، ولم يكن يعرف إن كان في وسع سام اجتياز المسافة ركضاً إلى جانب الدراجة. كما كان هناك، بالطبع، احتمال دائم لوجود والده هنا في أي يوم من الأيام، الوالد الذي سرق الكلب منه. كان بإمكانها مقاطعته عند هذا الحد، لأنها شعرت بالحرّ من النار ومن حديثه عن الصيف، لكنها لم تستطع استجماع طاقتها لفتح فمها. رأى الإوزات متكوّمة على مقربة من الزريبة الخشبية الصغيرة، لكنه لم يجد أحداً في المنزل أو تحت أشجار «جار الماء» على امتداد الجدول: كانت تجلس أحياناً هناك في أيام الحر. أسند درّاجته إلى جانب زريبة الخنازير. كانت الإوزات تقوقئ بانفعال، فسار نحوها. ذكّرته بمجموعة من الناس المتحلّقين حول ضحية حادث سير وهم مستثارون في هلع. قفز من فوق السياج، فتفرّقت الإوزات، وإذا بها ممدّدة في المكان التي كانت الإوزات تقف فيه للتو. كان قد هاجمها شيء ما. لم يعرف إن كان في وسع الإوزات القيام بذلك، لكنه رجَّح أن يكون ثعلباً أو طائراً جارحاً. ربما كانت حدأة قالت في سرّها، وفتحت عينيها لتتمكن من رؤية سقف المكتب، وليس حقل الإوز في الصيف وفيه المرأة الممدّدة، وهي ميتة. كان قد اكتفى باختلاس النظر إليها. رأى ثوبها مرفوعاً، ووجد أن ذلك من أسوأ الأمور. ركض خارجاً من حقل الإوز، وكان قبل ذلك بلحظة يشعر بالجوع، ويتطلّع بشوق، وهو على الدراجة، إلى قطعة ضخمة من الكعك المصنوع منزليّاً. لم يكن أحد يضاهي السيدة إيفانز في صنع الكعك. أدرك أن عليه أن يتصل هاتفياً بأحد، فركب درّاجته وعاد إلى الطريق. ومن هناك، من عند البوابة المفتوحة دائماً، اتصل بوالده وهو على ثقة بأنّه لن يكون في المنزل في هذا الوقت من النهار. بذل أقصى ما في وسعه ليبدو صوته مختلفاً، تاركاً رسالة قصيرة، بصوت عميق، على المجيب الآلي. ثم رجع إلى بانغور وأعاد الدراجة وركب القطار. بدّل خط القطار في تشستر، ومن هناك إلى مقصده النهائي: شارع لايم في ليفربول. قالت الفتاة، المقيمة في الغرفة المجاورة لغرفته في السكن الطلابي، إن الكلب ظل ينبح طوال النهار، وطلبت منه أن يتركه معها في المرّة المقبلة التي يخطّط فيها للذهاب إلى مكان ما وحده.

«فتاة»، قالت في نفسها، ثم سألته: «هل سنرى والدك في الجوار من جديد؟».

«لا أعتقد ذلك. فقد استعاد كلبه، وأنت لم تكوني مهتمة».

بالكاد لاحظت أنّ الفتى كان قد انضمّ إليها تحت اللحاف. لا بدّ من أنها قد فقدت الإحساس لبرهة بذراعها اليسرى. لم تشتكِ لأن هذا الجسم المؤلف من أشياء ثقيلة لم يكن رقيقاً إلى هذا الحدّ. كان ينبعث منه شيء ما، نوع من الكهرباء: كان صدره يومض، ويده تلهب ونفَسه حاراً كنفَس كلب سعيد. تُرى بمَ كانت ستشعر لو لم تكن ترتدي ثوب النوم؟ أرادت خلعه، لكن النار جعلتها خاملة، وكان الليل قد انتصف؛ وكانت متعبة، منهكة. «أيمكنك...؟» سألت، وهي ترفع رأسها قليلاً عن الوسادة.

فهم. وسرعان ما كانا متمدّدين، جنباً إلى جنب، في سرواليهما الداخليين مثل مراهقين حذرين. هي على ظهرها وهو على جنبه، أدنى منها قليلاً، أنفه عند زندها وذراعاه عند وركيها. ذراعان ملؤهما التوتّر، أمكنها الشعور بهما تشعّان. كان الجدول مندفعاً. وما كاد صوت انسياب المياه يدفعها إلى الإغفاء حتى قال: «سنذهب بعد غد إلى الجبل، يوم الميلاد، فالقطار يسير ذلك اليوم».

فكّرت: حسناً. سنذهب إلى الجبل، يجب أن أتمكّن من القيام بذلك. «هل تذهب غداً إلى الفرن لشراء مهلّبية الميلاد؟ بلّغهما تحيّاتي، أطيب التحيّات من المرأة الهولنديّة».

أصدر الفتى صوتاً من عمق حلقه وغفا. هل وجدها عجوزاً وقبيحة؟ هل أمكنه أن يشمّ رائحةً ما؟ تنهّدت وأغمضت عينيها: لا تفكّري في الأمر. ليس الآن.

realpagex0181x

55

كان الفتى قد مضى إلى الفرن، وبات المنزل لها وحدها، إلى أن يعود. عليه من ثمّ الذهاب إلى «تيسكو» لجلب بعض الطعام من أجل عيد الميلاد. كان المذياع دائراً، وهي تجلس إلى طاولة المطبخ وقد اعتمرت القبّعة الصوفيّة، وأمامها مجموعة ديكنسون الشعرية مفتوحة على الصفحتين 216 و217، «جنازة ريفية». كانت قد كتبت ترجمتين للبيت الأول، ثم شطبتهما: «اصنع هذا السرير» (Spreid ruim dit bed) و«اصنع هذا السرير واسعاً» (Spreid dit bed breeduit). الأولى كان ينقصها مقطع صوتي فيما الثانية فيها جناس غير موجود في النص الأصلي. في النهاية حوّرت المعنى قليلاً وكتبت: «اصنع هذا السرير بعناية»(Spreid dit bed met zorg). وشطبت أيضا البيت الثاني: «اصنعه بمهابة» (Spreid het met ontzag). وغيّرته إلى «اصنعه برهبة» (Spreidhet ademloos). ثم كتبت البيتين الثالث والرابع على ورقة مستقلّة وملأتها بكلمات مفردة: تنويع في كلمة «دينونة،» و«ممتازة،» ومعانٍ كثيرة مختلفة لكلمة «عادلة». قالت في نفسها: الإيقاع هو الأهم هنا»، وأعادت كتابة الأبيات الأربعة على ورقة ثالثة وسرحت بنظرها عبر النافذة. استمرّت النباتات المزهرة في الإزهار، فمركز «ديكنسون للوازم الحدائق» يبيع النوعيّة الجيدة. أخذ المذياع يبثّ الأغنية الميلادية تلو الأخرى، وصوت هادئ يعلن عن العناوين عند كلّ ثالث أغنية. ارتبكت في البيتين الأوّلين من الرباعية الثانية. كان فعل الأمر الغريب ذاك لا يزال يحيّرها تماماً. «كنْ فراشاً سويّاً /ووسادةً مستديرة».

اضطرّتها رائحة السيدة إيفانز التي ازدادت قوّة إلى الخروج. لم ترتدِ معطفها. فكّرت في أن ارتداء المعطف عند الخروج هو للناس الأصحاء الذين يخشون تعرّضهم لنزلة برد. توقّفت تحت قوس الورد، وحدّقت إلى درب الحصى الجديد وكيف أنه ينتهي إلى طريق مسدودة حيث المرج. هذا لم يكن مناسباً، ويحتاج إلى شيء عند خط النهاية. لا بُدّ أن توصل الدرب إلى مكان ما. يُفترض وضع عمود وحوض كبير realpagex0182xللأزهار عليه. كان الجدول يخرخر، وكانت السنديانة الساقطة تستلقي ميتةً من دون حراك. لم تستطع أن تتخيّل أشجار «جار الماء» تتبرعم من جديد؛ إذ بدا أن الحياة قد انعدمت في أروماتها. دارت حول جانب المنزل. كانت الإوزات تمزّق العشب، وكان عددها لا يزال أربعاً. تساءلت إن كانت الثعالب تقضي هي الأخرى فصل الشتاء في سبات، تنام في وجارها، ببطنها المنتفخ وخطمها بين مخالبها وتتنهّد من حين إلى آخر بارتياح؟ ضغطت بباطن يديها على صدغيها، لأنها لاحظت أنها تقيس أفكارها بمقاطع لفظية إيقاعية، وبدّلت «الارتياح» في فكرتها الأخيرة بـ «قناعة». لم يكن هناك أي هواء، لم تهب نسمة. رأتها الإوزات فشرعت تقرقر بلطف. استندت إلى الجدار السميك. هل تعتقد أنني إوزّة أيضاً تماماً كما اعتقد

الكلب، بحسب الفتى، أنني كلب؟ فكّرت، وهي تشدّ على شرّابتي القبّعة القرمزيّة، بل إنّني أبدو أكثر كديك رومي.

عادت بعد دقائق إلى طاولة المطبخ. وبدلاً من العودة إلى ما سبق أن كتبته، أخذت تقلّب الصفحات في القسم الذي يحمل عنوان «الطبيعة». بعد قليل - وكانت على وشك أن تنهي ذلك القسم - شرعت الحروف في التداخل ما جعل القراءة تغدو أصعب فأصعب. لم تعثر في أي مكان على كلمتي «إوزة» أو «إوزات»، كما اعتقدت تماماً. فكل شيء كان يتعلّق بـ «النحل» و«الفراشات» وطيور «أبي الحنّاء». شهقت وأطبقت الكتاب بقوة ودفعت به بعيداً. جرّت نفسها إلى الطابق العلوي، وأخرجت قرصاً من مستوعبه، وعادت إلى الأسفل وصبّت لنفسها كوباً من النبيذ الأبيض، وابتلعت القرص مع النبيذ. عندما تناهى إليها وقع أقدام على الحصى عاد كل شيء ليصبح مشوّشاً بشكل ممتع.

سيجلب الخبز، ثم يتحدّثان عن لائحة التسوّق، ويغادر من جديد. ستأمره بالمغادرة، كما لو أنّه كلب. سيمضي لشراء أشياء فائضة عن الحاجة. وبعد قرص ثانٍ من الدواء، قد تجهّز نفسها. ستأخذ الخبز والخمر إلى زريبة الخنازير القديمة، ووسائد وبطانيّات، وستشذّب أسفل الشمعة بسكين حادّ حتى تستطيع حشرها في عنق زجاجة realpagex0183xفارغة وبجانبها علبة ثقاب. يمكنه الليلة التمدّد قربها ورأسه أوطأ من رأسها وإبهاماه الكبيران على ثدييها. هذا إذا تجرّأ.

دخل برادوين، ووضع حقيبة ظهره على الطاولة، وخلع قبّعته ثم قال: «يردّان لك التحيّة، وسألتْ زوجة الخبّاز متى ستأتين بنفسك من جديد».

هزّت برأسها نافيةً.

«هل تشربين النبيذ؟».

«كأس واحدة».

«إنها عضوة في نادٍ للمطالعة. قالت: سيكون أمراً رائعاً لو انضممتِ إليه».

«نادٍ للمطالعة؟».

«نعم. حتّى إنّها أخبرتني بعنوان الكتاب الذي تطالعه الآن».

نظرت إليه. كان شعره ملتصقاً بجبهته، وكالعادة لم يمرّر أصابعه عبره. العينان الرماديّتان، الحَوَل الذي يصعب معه جدّاً رؤية ما يجول في خاطره أو يشعر به. كان مختلفاً، مختلفاً حقّاً، من دون الكلب. قالت في سرّها: «الذنب ذنبه، فقد أبعدتُه مرّات عدة». خطر لها الماء فجأةً. يجب أن يتوافر الماء أيضاً، فالنبيذ وحده لا يكفي. حاولت، وهي تضيفه إلى قائمة المشتريات الموجودة على طاولة المطبخ، تصوّر وجهَيْ ريس جونز وصديقه الوكيل العقاري. ليس الوجه

الجامد للأوّل منذ سبعة أيام مضت أو ما شابه، ولا المظهر البشوش المفترض للآخر قبل ذلك ببضعة أشهر، بل وجهيهما المتفاجئين بعد نحو أسبوع من الآن. لم تحقّق إلاّ نجاحاً جزئيّاً لأنّها لم تستطع تذكّر ملامح الوكيل العقاري على الإطلاق. أخرجت سيجارة من العلبة، وأشعلتها بعود ثقاب، وسحبت بقوّة، من دون تفكير، ولم تعرف ما الذي أصابها: كان الأمر مريعاً إلى درجة أنها لم تأخذ وقتها لاستخدام أصابعها بل بصقتها فحسب فوقعت على واحدة من الأوراق التي كتبت عليها. عندما لاحظ الفتى أنها ستتركها في مكانها التقطها وضغط بأحد إبهاميه على الورقة المحترقة، ثم سار إلى المجلى، وفتح صنبور المياه على السيجارة قبل أن يرميها في سلّة المهملات.

realpagex0184xشربت ملء فمها من النبيذ، واضطرّت إلى الابتلاع من جديد للسيطرة على الغثيان المتصاعد، ثم سألت: «هل كانت السيدة إيفانز تدخّن؟».

«كلا». ظلّ الفتى قرب المجلى.

«يجب أن تذهب وتقوم للتسوُّق».

«وهل ستأتين؟».

«لا. لديّ ما أفعله».

أشار إلى الطاولة وسأل: «أكنت تعملين؟».

قالت: «يمكنك الذهاب، بلا رجعة».

«ماذا تعنين؟».

«أعني ما أقول».

«إنكِ لا تستسلمين، أليس كذلك؟».

أرادت التحديق إلى عينيه مباشرةً، لكنها لم تتمكن بسبب النافذة والضوء وراءه. قالت: «لا تقل إنني لم أحذّرك».

ظلّ واقفاً مكانه وعجيزته إلى المجلى، ثم شرع في إخراج الخبز من حقيبة ظهره. قال: «كل ما في الأمر هو أنني أفتقد سام».

نشقت. صحيح أن غياب الريح ونزهتها في الخارج كانا قد بدّدا رائحة المرأة العجوز، إلا أنها أخذت تتصاعد الآن من ثيابها، وتطفو صعوداً من كتفيها. قالت: «هيا اذهب».

التقط لائحة المشتريات ثم سأل: «لماذا يجب أن أشتري هذه الكمية من الماء؟» فقالت: «بدأتُ أسأم مياه الصنبور».

سأل: «أيمكنك أن تعطيني بعض المال؟».

realpagex0185x

56

تأجّل انطلاق العبّارة بسبب مشكلة في أحد أجهزة الدفع، وأُعلن عبر المذياع عن إرسال غطّاسين لإصلاحه من دون تحديد ماهية المشكلة بالضبط. شرب الزوج والشرطي كأساً ثانية من الويسكي. كان المركب مكتظاً: أشجار ميلاد اصطناعية في كل مكان، وأضواء زينة، وبريطانيون صاخبون، وهولنديون هادئون. اعتلى أحدهم منصّة صغيرة لتسلية الناس. جلسا على أحد جوانب طاولة مستديرة قرب نافذة يقطر المطر خارجها. أمكنهما النظر عبر النافذة إلى المساحة الضخمة لمصنع بتروكيميائي تغمره أضواء ساطعة. كانت سيّارة الشرطي في مكان ما في الأسفل وسط مئات غيرها من السيّارات. إنها ليلة الميلاد، والرياح شماليّة غربيّة بسرعة ٥ إلى ٦.

قال الزوج: «لن نصل إذاً عند التاسعة صباحاً».

«لا يهمّ»، قال الشرطي. «لسنا في عجلة من أمرنا. أليس كذلك؟».

«كلاّ»، وارتشف الويسكي من كأسه: كان الشرطي قد جاء بالكأسين من المشرب المزيّن بكثير من الصفائح النحاسية. قال: «ويسكي فاخر، ليس مغشوشاً. بدا طعمه مدخناً ولاذعاً. كان الشرطي يعرف ما الذي يتحدّث عنه؛ أما الزوج فلا يكاد يتعاطى المشروبات الكحولية. تذكّر الآن، وهو جالس في المكان، عمليّة عبور كان قد قام بها منذ زمنٍ بعيد برفقة صديق له من الثانوية، حيث عاقرا «الجن» مع المياه الغازيّة، لأنهما كان يسافران إلى إنكلترا. وقد أمضى صديقه الليل كلّه وهو يتقيّأ في المرحاض المشترك الذي يقع في الممشى؛ أما هو فقد تجنّب الغثيان بفرك عظمة صدره على مدى ساعات، وهو مستلقٍ على ظهره بلا حراك في سرير ضيّق في مقصورة خالية من النوافذ، مع شخصين غريبين كلّيّاً، كانا يشغلان السرير التالي. حدث ذلك قبل أن يتعرّف إلى زوجته. فكّر في أنه قد عرفها الآن، وها هو يشرب الويسكي، مشروب الرجال البالغين، وهو وسيلة ممتازة لكي يصير في المزاج المناسب لإنكلترا. كان قد وضع في حقيبة سفره، الموجودة على عمق اثني عشر realpagex0186xمتراً في المركب، قالب حلوى صنعته حماته. كان ذلك تقليداً: فهي، كل مرّة كانا يسافران فيها في إجازة، تحضّر لهما قالب حلوى يأكلانه حيث يقصدان: مخيّماً أو غرفة في فندق. كما لو أنّ هذه عطلة عادية، وكما لو أنّها لم تلحظ أن صهرها يسافر مع الشرطي لا مع ابنتها. نظر إلى الرجل الجالس على الكرسي المجاور، وكان قد ارتشف جرعة من كأسه للتو، وكان يشاهد المرفّـِه وهو يضع قبّعة على رأس شخص أحمر الشعر سحبه إلى المسرح؛ ترك الويسكي يغسل فمه قبل أن يبتلعه. بدا كرجل شرطة حتى من دون بزّته. ربما لأنه كان يعلم كيف يبدو في البزّة.

قال: «لستُ متشوّقاً إلى الأمر».

أجابه الشرطي: «ليست الريح على هذا القدر من القوّة».

«لا، لا أقصد عمليّة العبور».

«آه، ذاك الأمر».

«نعم، ذاك. أتمنّى لو كانت مجرد رحلة عادية».

«تخيّلْ أنّها كذلك»، وشرب الشرطي الويسكي وقد بدا عليه الارتياح.

نظر الزوج إلى المسرح الذي كان قد اعتلاه بهلوان. كانت الغرفة الكبيرة تعبق برائحة رقائق البطاطا والمأكولات الخفيفة المقليّة. قال: «سأذهب وأستلقي».

«حسناً»، قال الشرطي.

لم تكن المقصورة تشبه في شيء تلك الحجرة الضيّقة القريبة من غرفة المحرّكات، التي تذكّر أنه سافر فيها منذ أكثر من عشرين عاماً، فقد كانت تحتوي على سريرين وعلى صورة فوق كل منهما، ونافذة واسعة بينهما، ورواق صغير ودورة مياه مع مغسلة. جلس الزوج على أحد السريرين، ودسّ صنّارة الحياكة تحت جبيرته. خلع الشرطي ثيابه واعتنى في طيّها قبل وضعها على مقعد صغير، ثم دخل المرحاض. كان بالإمكان في المقصورة الشعور بالسفينة تهدر وتهتزّ. بدا كما لو أنها تنوي المغادرة، لكن هناك ما يكبحها في البحر الداكن البارد. لم يمنحه الحكّ بالإبرة في الواقع realpagex0187xأي راحة. سمع الشرطي يتنحنح ويبصق ثم يفتح الصنبور، وقام بعد قليل بدفق مياه المرحاض. كان اسمه أنطون.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

استيقظ الزوج بعد ساعات. كانت السفينة تشقّ طريقها وهي تعلو وتهبط. شرع جهاز إنذار إحدى السيارات يولول من دون توقّف في مكان ما في القعر. كان يشدّ عضلاته مع كل حركة - صعوداً وهبوطاً وتمايلاً - دافعاً إلى الخلف كما لو أنّه يحاول منع السفينة من

الانقلاب. هل صديق الدراسة هو من أقنعه بإمكان السيطرة على الغثيان بفرك عظمة الصدر؟ كان ضوء السقف لا يزال متوهّجاً: تحوّل بعد إطفائه إلى ما يشبه وضعيّة الطوارئ. الشرطي نائم ويتنفّس بانتظام وإحدى يديه على صدره العاري. فيه أمر يوحي بالكمال، فكلّ ما فيه كان كما يجب أن يكون. الطريقة التي يعمل بها، والشكل الذي يبدو عليه. شعره الأسود المشذّب. لم يطق الزوج الانتظار للخروج من السفينة. كان يأمل أن يحل الصبح قريباً فترسو السفينة في هال، لكنه كان يعلم أيضاً أنهم بالكاد قد غادروا روتردام. لم ينظر إلى هاتفه المحمول الموضوع على الرفّ قرب سريره كمنبّه. فرك عظمة صدره وتنفّس بعمق شهيقاً وزفيراً. كان يصعب التصديق كم كان الأمر موحشاً في المقصورة مع هذا الضوء الضعيف الذي لا مفرّ منه، ومع الشخص النائم على مقربة منه، والمعاطف على المشجب تترجّح بعيداً من الجدار، ثم تعود لتصطدم به في إيقاع منتظم.

استطاعٍ النهوض؛ قد يكون البار لا يزال مفتوحاً؛ وربما كان المهرّج لا يزال على المسرح. تخيّل الرحلة التي قامت بها بطاقته البريدية، ربّما جوّاً. «إنني قادم»، وفكّر: ماذا بعد ذلك؟ عندما أخذ الضوء في البزوغ، لم يستطع رؤية شيء عبر النافذة سوى المياه الرمادية.

وصلت العبّارة إلى هال متأخّرة أربع ساعات عن موعدها. تميّز الصباح بالغرابة، لأنّ الركاب لم يكن يفترض بهم البقاء في المركب كل هذه المدة. كان الطاقم شبه غائب؛ ولم يكن هناك أي ترفيه، وباتت منطقة المقامرة أشبه بصحراء مهجورة. لم يُجهّز هذا المركب لتقديم الوجبات: فهو ينطلق في التاسعة مساءً ويرسو في الثامنة من صباح اليوم التالي. لم يتمكّن الزوج والشرطي من إيجاد أي فطور. كان الناس realpagex0188xفي كل مكان يجلسون، أو يجولون في المكان حاملين حقائبهم أو حقائب الظهر؛ ولم يسعهما سوى الانتظار.

أخرج الشرطي السيّارة من العبّارة من دون أي صعوبة، وانتقل بشكل شبه تلقائي إلى الجانب الأيسر من الطريق، وشرع نظام الملاحة في إعطائه التوجيهات بالهولندية. كان اسم الصوت «برام». كان الشرطي يمتلك طرازاً من السيّارات وجده الزوج مزعجاً بعض الشيء عندما رآى السيارة في أمستردام. كبيرة وسوداء. نظر من حوله. كان النهار كئيباً وهال قبيحة: امتداد واسع من المياه إلى يساره وما من تلة في مرمى النظر. كان منهكاً ورجله التي تحكّه تدفع به إلى الشرود. لم يفكّر في إخراج صنّارة الحياكة من حقيبته؛ بل لعله تركها في المركب. «شكراً يا برام وصلتنا الفكرة»، قال الشرطي بعد أن أصدر الصوت التعليمة تلو التعليمة عبر سلسلة من المستديرات.

سأل الزوج: «أيمكننا تناول القهوة في مكان ما؟».

أجاب الشرطي: «وأنا أيضاً في حاجة ماسّة إلى فنجان من القهوة، وإلى ما آكله».

شاهدا بُعَيْد ذلك لافتة أحد مطاعم «ليتل شيف». ركن الشرطي السيّارة وساعد الزوج على الخروج منها وناوله عكّازيه. تبعه الزوج إلى الداخل، ووقف وراءه عند الصرّاف الآلي ومنضدة الخدمة الذاتية والصندوق، ودفع عنهما كليهما، لينضمّ بعدها إلى الشرطي، إلى طاولة قريبة من

النافذة، حيث راح يراقبه وهو يأكل شطيرة دجاج. كان قد طلب لنفسه شطيرة من لحم الخنزير والبيض وكوباً كبيراً من القهوة. أكلا وشربا بصمت. ولما انتهيا رفعت امرأة ترتدي ثياب «سانتا» الحمراء صحنيهما الفارغين وكوبيهما، وسألتهما: «هل استمتعتما بطعامكما أيها الفَتَيان؟» قال لها الشرطي إن مذاقه شهيّ، فيما هزّ الزوج رأسه وابتلع اللقمة الأخيرة. «أتمنّى لكما ميلاداً رائعاً»، قالت المرأة وانتقلت إلى الطاولة التالية لرفع الصحون، وطرحت على شاغليها السؤال نفسه وتمنّت لهم ميلاداً رائعاً.

realpagex0189xقال الزوج: «عليّ أن أذهب إلى دورة المياه».

«وأنا أيضاً»، قال الشرطي.

وقفا عند المبولات، أحدهما إلى جوار الآخر. لم يكن هناك غيرهما في المكان، وكانت أغاني الميلاد تُبثّ عبر مكبّرات للصوت خفيّة.

سأله الشرطي: «أيمكنك مناداتي أنطون أحياناً؟».

«طبعاً»، قال الزوج. انزلق أحد عكّازيه المسنودين إلى الجدار المبلّط قرب المبولة جانباً، فمدّ يده لالتقاطه، مفلتاً في العمليّة عضوه، ما أدّى فوراً إلى انقطاع سيل البول.

التقط الشرطي العكّاز بيده اليسرى، وواصل التبوّل بهدوء شديد، قائلاً: «أنطون. هذا هو اسمي»، وأعاد إسناد العكّاز إلى الجدار، ثم هزّ عضوه لتجفيفه وأدخله في سرواله، وأغلق السحّاب.

رأى الزوج في المرآة، وهو يغسل يديه، بقعة رطبة على سرواله.

نظر الشرطي إلى ساعته، قبل أن يعاودا ركوب السيّارة التي كان كلٌّ منهما يقف على أحد جانبيها، وقال: «تكاد تصبح الثالثة. لا، تكاد تصبح الثانية. ومع ذلك فإن الظلام سيكون قد حلّ منذ وقت طويل عند بلوغنا المكان». كان سطح السيارة يبلغ مستوى عنقه.

«آها» قال الزوج. أراد ركوب السيارة فمدّ رجله المجبّرة، الأمر الذي لم يكن ممكناً إلا إذا أرجع المقعد إلى أقصاه. أراد أن يغمض عينيه ويستمع إلى «برام» الذي سيبلغهما بدقة أن عليهما عبور المستديرة التالية، المخرج الثاني. كانت لديه «لوسي» في سيارته، لها صوت ذو لكنة فلمنكية، وكانت تحذّره بانتظام بأن عليه أن يقوم باستدارة كاملة، وذلك بالطبع بسبب أسلوبه في القيادة. أما «برام» فبدا أشدّ ثقةً بالنفس.

«هل ننزل في فندق؟».

realpagex0190x

«نعم»، قال الزوج.

«يوم واحد لن يشكّل فارقاً، أليس كذلك؟».

«نعم»، قال الزوج.

«هل أنت بخير؟» سأله الشرطي.

«لا أدري ما العمل عندما نصل إلى هناك».

«وهل تحتاج إلى معرفة ذلك؟ سترى ما سيحدث».

«نعم»، قال الزوج.

قال الشرطي: «يمكننا التوجه شمالاً فحسب، «فاسكتلندا أقرب».

«لا».

«يمكننا، إذا شئت، إرجاء الأمر بعض الشيء».

«لا».

«لنذهب إذاً، وسنتوقّف عندما نرغب في ذلك».

وضع الزوج إحدى يديه على سطح السيارة. «ربّما كان الأمر ليختلف لو رزقنا بأولاد».

«لا. فالأولاد مزعجون».

«هذا ما تقوله».

«نعم، هذا ما أقوله. يجب أن يكون لكل شيء ما يبرّره». فتح الشرطي الباب وجلس خلف المقود.

انقشع الآن أمام الزوج منظر الرجل الأبيض الصغير، في الخلفية الحمراء، وقبعة الطباخ على رأسه. كانت السماء وراء الشعار مكتسية باللّون الرمادي نفسه، وكانت ثمة راية متدلية عن سطح المطعم ومثبتة برخاوة على عمود. كان الشرطي قد شغّل realpagex0191xالسيّارة، ففتح الباب وجلس واضعاً جبيرته بوضعية مناسبة ومرخياً ساقه الأخرى قربها. نظر من فوق كتف الشرطي إلى يديه اللتين كانتا تديران المقود، تفلتانه للحظة ثم تمسكان به من جديد. طلب منهما «برام» الانعطاف يساراً عائدين إلى الطريق أ 63. كانت اللافتة تشير إلى «غول» و«كاستلفورد» و«ليدز».

بعد نحو ساعتين، وكانا قد تجاوزا مانشستر، أعلنت شارة كبيرة على حافة الطريق العامة عن «هوليداي إن رانكورن». كانت الدنيا قد أظلمت والطريق مكتظّة بالسيارات. قال الشرطي:

«يكفي لليوم. حان وقت الأكل والشرب».

رنا الزوج إلى اليدين الممسكتين بالمقود فرأى خاتماً من الفضة في إبهام اليد اليمنى. مسحت أنوار السيارة صف الصنوبريات القصيرة التي كانت تحدّ مرأب السيارات.

قال «برام»: «حاول القيام بدورة كاملة».

ضحك الشرطي.

57

أدارتِ التلفاز في الصباح المبكر. كانت نشرة الطقس التفصيلية تظهر خريطة المملكة المتحدة، وكان الطقس غائماً في كل مكان تقريباً باستثناء شمال ويلز. وحين بدأت الغيوم تتحرّك، تبيّن أنها لن تصل إلى هنا من الغرب إلا في الليل. كان الطقس معتدلاً قياساً على هذا الوقت من السنة، وتمنّى لها مقدّم النشرة الجويّة «ميلاداً سعيداً أخضر». أطفأت التلفاز ومضت إلى المطبخ لإعداد بعض الشطائر. وضعت أربع موزات في حقيبة ظهرها وزجاجتي ماء بلاستيكيتين مع الشطائر في حقيبة الفتى. نظرت إلى علبة السجائر وسط الطاولة، وتردّدت، ثم وضعتها أيضاً في حقيبتها. انتعلت جزمتها وأطلّت برأسها من باب المدخل لترى إن كان غصن جار realpagex0192xالماء لا يزال مسنوداً إلى الجدار. وضعت القبعة القرمزية وصاحت من أسفل الدرج: «هيا!».

كان الفتى قد تجرّأ على مداعبة نهديها ولو أنها اضطرّت إلى تشجيعه. تمدّدت على ظهرها وهي ترتعش. لهاثه الحار على عنقها، ودفء النار ليس على قمة رأسها بل على جانب جسدها. كان قد أدار الفراش تسعين درجة؛ لا بد أنه فعل ذلك في وقت ما من ذلك اليوم، وكان قد وضع صورة ديكنسون على الطاولة ووجهها إلى أسفل. بالكاد كان أحدهما يشاهد الآخر طوال النهار: هو ذهب، وهي كانت تتنقّل جيئةً وذهاباً إلى زريبة الخنازير؛ هو عاد، وهي جلستْ أمام التلفاز؛ هو في المطبخ يحضّر مزيداً من الطعام لجسمه العضلي الشبيه بالخروف، وهي في المغطس ذي القوائم التي لها مخالب مع الأعشاب الطبيعية لطرد رائحة المرأة العجوز. قالت بعد أن استدارت على جنبها: «أبعدْتَ السرير عن الطريق وأدرته رأساً على عقب». أجاب: «نعم» وشفتاه قريبتان جدّاً من شفتيها، وهو ينفث بحرص نَفَسه في فمها. «امرأة مخيفة». قالت في سرّها: «يمكنه امتصاص الرائحة مني. ربما أمكنه طردها». «ألا نحتاج إلى...؟» قال، وجسده الخروفي فوق جسدها، وقبضتاه على مقربة من زنديها، والوتر الذي يمرّ مباشرةً عبر صدره يرتعش. داعبت عجيزته من دون أن تجيب، وهي تنظر بعد صدره إلى عضوه التوّاق، وتسحبه نزولاً ببطء شديد. «الوقاية»، قالت لنفسها، «إنها للأناس الأصحاء». كانت سخونته لا تُصدَّق. ساخن وشاب وحيّ. لم تتمكّن، كالعادة، من الاختيار، يستحيل النظر مباشرةً إلى كلتا العينين. لكنها واصلت النظر آملةً أن يمضي

برفق، وألاّ تحتاج إلى قول شيء، وأن يشعر جسده الخروفي بجسدها ويندمج معه. كانت تحدّق إليه باهتمام تماماً في اللحظة التي انحرفت فيها العين الحولاء بعض الشيء إلى أحد الجوانب، فتمكّنت في النهاية، ولفترة وجيزة جدّاً، من النظر مباشرةً إلى كلتا عينيه بالرغم من أنّه لم يرَ شيئاً في تلك الثواني القليلة. تنهدت بعمق؛ ولم يصدر عنه أي صوت، وأراد النهوض عنها فوراً. قالت: «لا»، وضمّته بشدة، وصدره الرطب على ثدييها. قامت أخيراً بتسريح الشعر من فوق جبهته بأصابع يدها اليسرى المبسوطة. لعق الفتى عنقها، من دون أن يصاب بالمرض، وعاد لاحقاً إلى أريكته realpagex0193xبعد أن وضع آخر الحطبات في النار. لقد قام بذلك بهدوء شديد من دون أن يصدر أي صرير عن مفصل واحد من مفاصل جسمه العضلي. كانت قد استلقت على جنبها، وهي تحدّق إلى النار. كان بإمكانها أن تشمّ رائحتها ورائحة الفتى: الرائحة الصادرة منذ البداية، مزيج الجوارب الحلوة وأوراق الشجر اللاذعة. شخر بعض الشيء، أو كان ذاك بالأحرى صفيراً خافتاً. أرادت أن تنام تلك اللحظة، يستحسن معه، أن يقوما بشيء واحد معاً على الأقل. لكن بدلاً من ذلك، فاحت مجدَّداً، رائحة المرأة العجوز من السرير أو من الأرضيّة أو من جسدها بالذات. بكت بصمت وفكّرت في أنّ عليها التوقّف عن المقاومة. تخيّلت في النهاية، والجدول يندفع مسرعاً طوال الوقت، المنزل والإوزات والخراف وأشجار «جار الماء» وأكمات الوزّال والحوض والحلقة الحجرية وحديقة الورد، عالمها الصغير الخاص، وغفت.

لم يمتصّ الفتى أي شيء منها، ولم يطرد الرائحة. كان بإمكانها الشعور بجسمها الذي لم يتبقَّ فيه سوى القليل جدّاً من الحيوية. كان القطار يتحرّك ببطء، وكانت سحب كثيفة من البخار والدخان - بالأبيض والأسود - تمرّ بالنافذة. جاء قاطع التذاكر يحمل آلة تذاكر قديمة الطراز معلّقة حول بطنه المنتفخ لثقب تذكرتيهما، وكان هناك أيضاً رجل متقدّم في السن يجرّ عربة مرطّبات عبر الممشى. أخذ الفتى قهوة وقطعة من الكعكة بالفواكه. لمّا وجدت أنه لم يحاول بلوغ محفظته، دفعت هي. لم يكن مختلفاً عن أي نهار آخر سوى أنه كان متحمّساً بعض الشيء لفرصة تسلّق الجبل. كانا جالسين على مقعدين منجّدين لهما مساند، وليس على مقعدين خشبيين، كما سبق لها أن تخيّلت. كانت عربة الدرجة الأولى مطلية بالبني المائل إلى الأحمر. هي التي دفعت ثمن التذكرتين، فيما تولّى الفتى قيادة السيارة إلى كيرنارفون. وقد جلسا متقابلين، فالجلوس جنباً إلى جنب في هذه العربة لم يكن ممكناً: هي نحو الأمام؛ وبرادوين نحو الخلف. كانت ستارة بلون «الكريم» تترجّح جيئةً وذهاباً على مقربة من رأسها، وكانت هناك في الخارج حقول خضراء وبنّية، وحيطان حجرية في كل مكان، وأشجار عارية ذات جذوع رمادية، وتلال إلى اليسار لا تني ترتفع.

realpagex0194x

«ليس هناك الكثير من الثلج»، قال الفتى وفمه محشو بكعكة الفواكه وقد ألصق وجهه بالنافذة. «ربّما على القمّة. علينا أن ننزل بعد نحو دقيقة».

لم تقل شيئاً، ولن تتفوه إلاّ بالقليل طوال النهار. كانت قد أثيرت شكوكها.

كانت محطة «ريد دو» عبارة عن رصيف وحيد مع غرفة انتظار خشبية وحوضين مستطيلي الشكل للنباتات والحجارة. كان هناك بيتان في البعيد. نزلت من القطار وكادت تحبس أنفاسها إذ كانت تفوحت في المكان رائحة منعشة جدّاً. منعشة وحادّة؛ ولم تمتلك أي فكرة عمّا تشمّه. أهو سرخس ميت [12]، أم حجارة وصخور، أم ماء، أم هواء نقي؟ كان بضعة أشخاص قد نزلوا أيضاً. تطلّعت إلى ما وراء تلّة خفيفة الانحدار. قال الفتى: «هيّا بنا»، فتشبّثت بقوّة بغصن «جار الماء» وتبعته. انعكست الشمس على وجهها من ألواح الزجاج الصغيرة التي كانت تشكّل معاً نافذة واحدة كبيرة في غرفة الانتظار. رفع حارس السكة قرص التأشير عالياً بحركة مبالغ فيها كما يجري في الأفلام؛ فتحرّك القطار، وهو ينفث سحباً من الدخان الأسود.

مرّت درب عريضة، مرتفعة من وسطها، بكوخ ذكّرها بزريبة الخنازير القديمة. سار الفتى في المقدّمة من دون أن يلتفت إلى الوراء، لكنها لم تشأ أن تطلب منه مذ ذاك أن يتمهّل. ركّزت في عصاها وفي تنفّسها. كانت تنظر بين الحين والحين إلى الأمام وإلى ما حولها: مراعٍ من دون خراف، جدار حجري مهمل، أسيجة من الأسلاك، رحّالة. حين نظرت إلى الوراء أدركت أنها والفتى في المؤخّرة. كان صعود الطريق المخصصة للجرارات شاقاً: أخذت تتنفّس بانتظام شهيقاً وزفيراً، وعدّلت تَرَجُّحَ عصاها ليتلاءم مع إيقاع تنفّسها. لماذا لم يلتفت الفتى إلى الوراء، إليها، ولو مرّة؟ قالت لنفسها: انظري، شمّي، اشعري. الشمس مشرقة.

صاحت به: «انتظر!».

انتظر الفتى حتّى أصبحت خلفه تماماً، ثم تابع سيره. كان الأمر لا يزال سهلاً realpagex0195xبعض الشيء، ولا يمكن وصف المنحدر بالشديد. بدا هناك في البعيد، على ارتفاع أعلى كثيراً، ربّما عند القمة المغطّاة كلّها بالبياض، نوع من التشكيل الصخري.

سألها الفتى: «أترين الحدبة التي إلى اليمين قليلاً؟».

نظرت في اتجاه ذراعه الممدودة. «نعم».

«سنسير الآن من حولها. وهل ترين تلك الحافة الجبلية إلى يسارها، التي تبدو أقلّ أخفض من الحدبة؟».

«نعم».

«إنها الحافة التي سنسلكها إلى القمة».

«وكم تبعد من هنا؟».

«تبدو أبعد مما هي فعلاً».

«أوه».

«اسم الجبل هو ‘إير ويدّفا’، أي المدفن».

نظرت إلى قدميها، إلى المعبر، إلى الحجارة الصغيرة، والعشب القصير المسطّح. لم تكن تشعر بالدوار، لكن مجال رؤيتها بدا غير مستقر ويدور حول النقطة الثابتة المكوّنة من فردتي حذائها وطرف عصاها. القرصان اللذان تناولتهما اليوم جعلا الألم يفارقها. بل إنها، ويا للمفاجأة، كانت تشعر بألم خفيف، غامض ولكنه أشبه بإحساس متواصل بالتدهور، وبتقلّص جسمها، وبفمها يتدفق بكلام ليس في رأسها. ربما لم تكن تشعر بأي ألم، لأنها كانت تحت التأثير الدائم للمسكّنات. كان الفتى قد قال للتو أمراً مبهماً، ولم تكن لتفهم عن أي أمر يتحدث، لولا أنّها استطاعت أن ترى أمامها غلاف خريطة «أوردنانس سورفاي»: «سنودن/إير ويدّفا». لم تبالِ بما يعنيه الاسم. فالفتى، بقدر ما يعنيها الأمر، قد رحل بالفعل، ويمكنه أن يقول ما يشاء. ولن يحصل منها على ما هو أكثر من «أوه»، و«نعم»، أو «لا». قد يهوي عن الجبل. أخذت نفساً عميقاً وكانت عقصة البرد قد تلاشت. الدرب، كعباه، العشب. سيري. realpagex0196xواصلي السير. انعطفت الدرب يميناً، ومرّت عبر بوّابة جديدة تماماً؛ وباتا فجأةً عند رأس جرف. خلاء شاسع إلى يسارها، وبحيرتان صغيرتان في الأسفل البعيد. فكّرت: قد أهوي عن الجبل. شعرت بالحكاك في رأسها من تحت القبعة التي كانت شرّابتاها تترجّحان إلى الأمام والخلف بطريقة مزعجة. كانت تحاول بكلّ ما أوتيت من قوّة أن تجعل منه نهاراً مثل أي يوم آخر، وكان حفيف الشرّابتين القرمزيّتين يساعدها على ذلك، وكذلك المسار الواضح؛ والشمس التي كانت تلقي بوهجها الأحمر والأزرق على البحيرتين. كانتا تبدوان ضئيلتين من هنا، من الأعلى. ليستا، لنَقُلْ، أكبر من بركة فندق. لكنّهما ربّما أكثر عمقاً. فكّرت في الموز: هل هو في حقيبة ظهرها، أم أنّه في حقيبة برادوين؟ الماء معه، وهي متأكدة من ذلك. قد يكون يوم غد يوماً كأيّ يوم آخر، لكنها لم تقرّر ذلك بعد.

قالت: «أنا عطشى».

توقّف الفتى وخلع حقيبة ظهره، وأخرج منها قنّينة ماء ناولها إياها. شربت وسال الماء إلى أسفل ذقنها. أعادت القنّينة إليه. شرب هو الآخر، لكن بعد أن أدخل إبهامه في عنق القنّينة وأداره، فيما شدّ بسبابته على سنّ اللولب. لا، لم يكن يتصرّف للتو في القطار كما لو أنّ شيئاً لم يحدث. قالت: «إلى الأمام».

هل قام الزوجان إيفانز يوماً بتسلّق هذا الجبل؟ لا بدّ أنّهما فعلا. أو هل الجبل هنا كان، في نظرهما، كمتحف «ستيديليك» في أمستردام؟ إنه يقع على مقربة شديدة منك، بحيث تعتبره أمراً مفروغاً منه ولا تقصده أبداً. تخيلتِ الفتى بأنّه المزارع إيفانز في أيام شبابه يوم أحد مشمس، وهي عروسه الجديدة، فتاة لا تهتمّ البتّة بالجرف وبالبحيرتين أو بالطيور السوداء، ولا تستطيع حرف نظرها عن ظهر زوجها وتتوق لإنجاب أولاد. «هاي»، نادته. «هل رُزقت السيدة إيفانز بأولاد؟».

«لا»، قال الفتى الذي كان يسبقها بأكثر من عشرة أمتار. استدار، ثم تابع سيره. «وإلا لكانوا يقيمون الآن في منزلك، أو باعوه على الأقل».

باتت فجأةً منهكة وأرملة، ورائحة المرأة العجوز تشقّ طريقها بالقوّة إلى منخريها. realpagex0197xأخذ الفتى يسبقها بمسافة تزداد أكثر فأكثر. كانت عظامُها تصرصر، ورجلاها تترنّحان، والريح تشدّ خصلة من كعكة شعرها الرمادي الخفيف. قالت لنفسها: لكنّني كنت أعلم ذلك مسبقاً. ريس جونز أخبرني. ريس جونز، والده. لماذا يحرص الفتى إلى هذا الحد على الابتعاد عني؟ تطلّعت قليلاً إلى اليسار وتبعت بنظرها الجرف إلى أعلاه. بدا بعيداً جدّاً، وكان أبيض للغاية في الأعلى. قد يكون التشكيل الصخري مجرّد كتلة ضخمة من الثلج. فكّرت: لن أتمكّن أبداً من الوصول. فجأةً شرعت إحدى رجليها في التباطؤ.

عمّتها تلهب حماسة عمّها، مثل مشجّع متعصّب للعبة كرة القدم، وهي تحمل في يدها شيئاً ما، وعمّها يعمل أسرع فأسرع: ينشر، يطلي، يدقّ المسامير. قطط تهرب لتختبئ تحت الأريكة. «ليس خزانة جدارية» قالت. «ليس خزانة جدارية»، وتضحك عمتها، وهي لا تزال تحمّسه وتحثّه على المضي قدماً. وكانت والدتها هناك أيضاً. هكذا تقومون بالأمر! تقومون بالأشياء فحسب! واحدة من القطط، الأكبر سنّاً، من النوع الأليف، انسلّت إلى خارج المنزل.

«خزانة جدارية؟».

فتحت عينيها. كان الفتى قريباً جدّاً منها.

«ماذا؟».

«قلتِ شيئاً عن خزانة جدارية ما».

«قطعاً لا»، ورفعت نفسها ببطء. الشمس ساطعة. لمسَتْ كتفُها شيئاً، بقايا حائط. استخدمت يدها لتدفع نفسها أكثر إلى أعلى، واتكأت على الحجارة الحادة، وشكّلت حقيبة ظهرها حدبة مربكة بين ظهرها والحائط. كانا قد تسلقا بلا توقف، وها هي تشاهد الأعماق للمرة الأولى: محطة قطار نموذجيّة، بحيرة ضخمة إلى جانب السكة، جبال أخرى، تلال، نور شمس ضبابي: أشبه بصورة على علبة علاج realpagex0198xتجانسي [13]. أخذت تلهث. جلس الفتى القرفصاء أمامها وسحبها من كتفيها وقرّبها إليه أكثر، ثم سحب بصعوبة الحقيبة عن ظهرها وأخرج الموز، أعطاها واحدة فيما أكل اثنتين، واضعاً القشر في حقيبته.

قال: «أنا ذاهب، وسأعود قبل أن تلحظي غيابي».

قالت: «‘أسطيع’».

«ماذا؟».

«‘أسطيع’». وفكّرت: «أستطيع، ذلك ما أريد قوله. ليس أسطيع بل أستطيع. أستطيع السير إلى القمة إذا لم نمشي بسرعة. شيء من هذا القبيل».

قال: «انتظري هنا فحسب. سأعود سريعاً، حقاً»، واستدار وسار مبتعداً.

راقبته وهو يذهب. أخذ يخطو على المنحدر بخطوات كبيرة مثل كبش الجبل بالغاً الخطّ الذي يفسح فيه العشب المجال للثلج. عاودت التطلّع إلى المنظر وقشّرت موزتها ودفعتها في فمها ورمت بالقشرة من فوق كتفها. «أنا بخير»، قالت لزوجين من الجوّالة سألاها عن حالها. «إنني أستمتع بالمنظر فحسب». ارتكبت في كلامها الأخير خطأ، إذ استدار الرجل والمرأة وشرعا في التعليق على كل ما يمكنهما رؤيته. كانا يقفان في طريقها، أشبه بالناموس وبالذباب الكبير الأزرق المزعج.

«يا لقبّعتك المحاكة الجميلة»، قالت المرأة قبل أن يتابعا سيرهما في النهاية. سحبت عبوات الأقراص من الجيب الأمامي لحقيبة الظهر، وتناولت قرصاً بجرعتين كبيرتين من الماء البارد. تنفست بعمق، شهيقاً وزفيراً، ودلّكت ساقيها، ثم عاودت التنقيب في الجيب الأمامي بحثاً عن علبة السجائر وعيدان الثقاب. جلست ويداها في حضنها، ثم أشعلت عود الثقاب الذي استمرّ في الاحتراق وقد غاب عملياً أي أثر للهواء. تكوّمت على نفسها. انقضّ القطران والنيكوتين على حلقها، وكانا شبه سائلين. تسنّى لها ما يكفي من الوقت لرمي السيجارة أبعد ما يمكن قبل أن تنحني realpagex0199xوتتقيّأ الموزة. استقامت في جلستها، تنفست بعمق من جديد، شهيقاً وزفيراً، وهي تنظر إلى عمود الدخان الخفيف. شربت بضع جرعات كاملة من المياه الحلوة، وبصقت الجرعة الأخيرة، ثم وقفت وشرعت في السير نزولاً. لم تنظر إلى المنحدر ولا إلى محطة القطار النموذجيّة، بل إلى الدرب وفردتَيْ حذائها وغصن «جار الماء» والشرّابتين القرمزيتين المتراقصتين حول رأسها.

لاحقاً - لم تعرف كم مضى من الوقت - سار الفتى إلى رصيف المحطة. كانت تجلس على الأرض، وهي تستند إلى جدار غرفة الانتظار. كان الباب موصداً، وعلى مسافة أبعد قليلاً منها، مجموعة من الجوّالين الذين أخذوا ينظرون إليها بين الفينة والأخرى. حدّقت طويلاً إلى المنشأة المجاورة للسكّة: خزّان أحمر على قوائم سوداء طويلة جدّاً، وله مزراب. نهضت على قدميها. عندما وقف الفتى أمامها - وكان خدّاه دافئين وتفوح منه رائحة هواء الجبل اللطيف المعدنية، وكان الشيء الوحيد الناقص أنه لم يدع لسانه يتدلّى من فمه مثل لسان كلب سعيد. سألته: «ماذا ترى؟».

استغرقه الأمر ثانية ليجيب: «امرأة بقبّعة قرمزيّة جميلة جدّاً. تعبة. لم تتمكّن من بلوغ القمة، لكنها ليست نهاية العالم. إنّه الميلاد، وحان وقت عودتها إلى المنزل حيث يجب إعداد الطعام والشراب».

استدار برادوين نحو الممر وتوقّف، ثم أشار إلى صندوق البريد وسأل: «هل ألقيت مرّة نظرة على ما فيه؟».

«كلا».

«هل أقوم بذلك؟».

«لا»realpagex0200x.

فتابع القيادة.

رأت خرافاً في الحقل المجاور للطريق. قالت: «توقّف».

أوقف الفتى السيارة.

«أريد القيام بذلك».

«هل أعود بالسيارة؟».

«كلاّ، سأسير». ودفعت باب السيارة لفتحه، كان ثقيلاً جدّاً. رفعت بعض الخراف نظرها، لكن معظمها استمرّ في رعي العشب الجديد. رفعت غطاء صندوق البريد فوجدت فيه الشيء القليل. هل تخلّوا عن إمطارها بالدعايات، أم أن ساعي البريد عرف أن السيدة إيفانز لم تعد تقرأ رسائلها؟ وعندما التقطت بعض المنشورات انسلّت من بينها بطاقة بريدية وسقطت وارتطمت بقعر الصندوق. أعادت المنشورات وسحبت البطاقة وكانت عليها صورة كلب. قلبتها فوجدت اسمها واسم المنزل، فضلاً عن كلمة «غْوينِدْ». أهو اسم المقاطعة؟ كان بالإمكان قراءة خاتم البريد بوضوح. و«أنا قادم» مع اسم زوجها. أعادت قلب البطاقة وحدّقت إلى الكلب. جرو في سلّة. تطلّعت جنوباً، إلى الجبل. نعم، يبدو سهلا جدّاً... من هنا.

سألها الفتى: «أوجدت فيه شيئاً؟».

«لا»، قالت. «تفاهات. دعايات».

نَقلتُ الخراف (ليس هذا من شأنك). سنأتي أنا ووليامز وغودوين، وكلاء العقارات، المخمّنون، المسّاحون والدلاّلون حوالى الأول من كانون الثاني. تأكّدي من امتلاك ما يكفي من النقود ثمناً للإوزات المفقودة. هذه الملاحظة أُلصقت على باب المدخل بقطعة من العلكة.

قالت: «أيشمّ ذلك الرجل الرائحة عندما نكون في الخارج؟».

realpagex0201xلم يجب الفتى واكتفى بالتنشّق.

أسندت غصن «جار الماء» إلى الجدار، ودخلت. كانت ساعة المطبخ تشير إلى الرابعة إلا ربعاً، وكانت أضواء شجرة الميلاد تشعّ. توجّه برادوين إلى الموقد، ووضع فيه بضع حطبات وشرع في إذكاء النار. وقفت في المطبخ تنظر إلى ظهره. جسده أشبه بالخروف، العضلي، الجاهز للقفز. اضطرّت إلى كبح نفسها عن التنقيب في الطاولة الجانبية عن أشياء مفيدة. قالت لنفسها: كل شيء في أوانه.

قال الفتى: «لقد فعلتِ شيئاً بالأريكة، فهي تبدو أكبر».

لم تجب بشيء.

سار إلى البرّاد، وأخرج زجاجة النبيذ الأبيض المفتوحة، وكان لا يزال يعتمر قبّعته.

فكّرت: الآن. لكن كيف؟ وقالت: «انتظر».

«لماذا؟».

«تعالَ معي»، وسارت أمامه إلى باب المدخل.

«ماذا سنفعل؟».

«تعال». عبرت درب الألواح الصخرية إلى زريبة الخنازير القديمة، وسمعته يسير في إثرها. كان وهج برتقالي يغطّي حقل الإوز، فيما بات جدار زريبة الخنازير من جهة الحديقة في الظل. سحبت الباب وفتحته وأضاءت النور. «هناك»، قالت مشيرةً إلى الأدراج الخرسانية.

«ماذا يوجد في الأسفل؟».

«اذهب وانظر. في الخلف».

«هل جلبتِ لي هديّة أخرى لمناسبة الميلاد؟».

«لا تكثر من الأسئلة. انظر فحسب»، وانتحت جانباً. نزل الفتى الدرج، وقد أحنى ظهره وإحدى يديه على حافة الفتحة. «المكان مظلم»، قال وهو يرفع نظره إليها. أشبه بكلب، قالت في قرارة نفسها. أشبه الكلب عندما يُصدر إليه أمر لا يثق به تماماً.realpagex0202x

أدارت رأسها عنه، باحثةً عن العارضة الخشبية التي استخدمتها قبل أسابيع لقياس المستطيل في حديقة العشب.

«ستألف المكان بعد دقيقة».

رأت قبّعته الزرقاء تختفي، ثم جذبت أعلى الباب القلاّب وصفقته لتقفله، فارتدّ بضع مرات. وقفت على الباب القلاّب حاملةً العارضة الخشبيّة وركعت على ركبتيها وأدخلتها عبر القوسين الموجودين في كل جانب، ثم تهيّأت بانتظار الخبط والصراخ. لم يحدث شيء. حافظ الفتى على هدوئه: ربما اعتقد أنها تلعب معه. وقفت بأقصى ما أمكنها من الحرص كما لو أن أي صوت منها سيستجلب صوتاً منه. تراجعت خطوة إلى الوراء عبر الباب المفتوح، ثم خطوة أخرى، وباتت في الخارج. قالت في نفسها: «لقد انتهى الأمر سريعاً، أسرع كثيراً مما اعتقدتُ». تركت النور مضاءً: ربّما كان في ذلك بعض الفائدة له، إذ يصله من خلال الشقوق والفتحات. وربّما تطفئه لاحقاً. استدارت وقفلت عائدةً إلى المنزل.

*

صبّت لنفسها كأساً من النبيذ، وأخذت وقتها في أول رشفة. يُفترض أن يكون المذياع دائراً، لكن ليس على محطة تبثّ أغاني الميلاد. بدّلت التردّدات إلى أن سمعت موسيقى كلاسيكية. جثت ثانيةً، وأخذت تفتش في محتويات الطاولة الجانبية، ثم شرعت بُعَيْد ذلك في العمل الكبير القاضي بنقل الفراش واللحافين وأكياس تُستخدم لجمع النفايات ومصباح قديم يمكنها وضع شمعة فيه وزجاجة ماء. لقد أحسنت في شراء عجلة اليد: ما إن تمكّنت من موازنتها حتى استطاعت كذلك أن تجرّ الفراش. بدا كأن الظلام قد حلّ، لكن الوقت الذي استغرقته لبلوغ حقل الإوز كان كافياً realpagex0203xلتدرك أنه لا يزال هناك بعض الضوء، ولو أن الوهج البرتقالي كان قد اختفى. قوقأت الإوزات باستثارة في مكان ما خلفها، فيما كانت تحضّر الأمر كلّه، وتعمل بعناد ومن دون تفكير. جلبت كمّاشة لخلع أحد الألواح ولثني سياج الدجاج، لكن بسط أكياس النفايات كان صعباً بشكل غير متوقّع؛ وسرعان ما اتّسخت يداها وركبتاها، وأخذت تتعرّق وتتنفّس بصعوبة. شعرت خلال مسيرة العودة القصيرة من البوابة إلى المنزل أن عجلة اليد الفارغة كانت الشيء الوحيد الذي يبقيها منتصبة. كان قد مرّ وقت طويل على البوّابة وهي مفتوحة، وتلك الطيور الغبيّة لم تهرب. سارت على رؤوس أصابعها إلى زريبة الخنازير، وأطفأت النور. لم يتناهَ إليها أيّ صوت من تحت. تركت الباب مفتوحاً.

كان المذياع لا يزال يبثّ موسيقى كلاسيكية. إنها ليست خبيرة فيها، ولم تتعرّف قط أيّاً منها. لكن يبدو أن للموسيقى الكلاسيكية قيمة خالدة أكثر من أغاني الميلاد. رفعت الصوت بعض الشيء. كانت الساعة الثامنة إلا ربعاً، وكانت خارطة «أوردنانس سورفاي» مفتوحة على طاولة المطبخ. سنودن/إير ويدّفا. كانت تنظر بين الفينة والأخرى إلى الخطوط المنقّطة الخضراء زارّةً عينيها لتشوّش الرؤية، ولتقعا معاً على أرضها وعلى حقل الإوز، إذا أمكن. كانت بطاقة زوجها على الخريطة والجهة المكتوب عليها إلى أعلى، وبقربها كتاب ديكنسون كما لو أنه يفترض به أن يكون هناك، مفتوحاً. أخذت النار في موقد غرفة الجلوس تخمد شيئاً فشيئاً؛ ولم تكن قادرة على إضافة بعض الحطب الجديد، حتّى لو أرادت ذلك؛ فالكومة كانت قد نفدت. أكلت موزتين إضافيتين

لم تتقيّأهما. افترضت أن بقاء المعدة فارغة ليس بالفكرة الجيّدة. كانت تنهض بين الحين والآخر لتخطو بين الطاولة والمجلى أو الطاولة الجانبية التي وضعت عليها مشعلاً نبشته من أحد الأدراج الذي كان يحتوي أيضاً على بطاريّات جديدة. أخذت تتجرّع النبيذ الأبيض ببطء، بمحتوى نصف كوب كل مرة، إلى أن كادت الزجاجة تفرغ. «شاردونيه». كحول. اعتقدت أن ذلك سيساعد. كان الفتى هو من اشتراه. لم تشعر بأي رغبة أن تدير التلفاز. بحلول الساعة الثامنة صعدت إلى الطابق العلوي.

realpagex0204xكانت المياه على وشك أن تصبح ساخنة أكثر مما يجب؛ وصافية. لا أعشاب محلّية الليلة. فتحت نافذة الحمام. لو أنها لم تكن ترشق الماء بقدر كبير من الضجيج لأمكنها سماع صوت انسياب الجدول. حدّقت إلى الندبة في قدمها. لقد شفيت تماماً. كانت المرآة قد بدأت بالتغبّش بالرغم من النافذة المفتوحة، فسرّها ذلك. حاولت الاسترخاء لكنها استمرت في الإنصات بانتباه. فعبارة «أنا قادم» على البطاقة البريدية كانت مثيرة للقلق. وعبارة ريس جونز، «تأكّدي»، كانت فعل أمر، ولم يكن هناك قاسم مشترك بينها وبين «كن فراشاً سويّاً». أغمضت عينيها. نحْل، برسيم، ورود بيضاء، امرأة تسوّي السرير، تنفض شرشفاً أبيض لينبسط واسعاً وينزل على فراش متين، وكيس مخدّة متجعّد على وسادة من ريش. «واسعاً اصنع هذا السرير». فتحت عينيها وأخذت تحدّق إلى ضوء السقف. مزاج بصيغة الشرط. شَرطيّ. لم تكتب ديكنسون «اجعل هذا الفراش واسعاً»، لم تكتب «يجب أن يكون فراشه سويّاً / ووسادته مستديرة». تمهّلي. لا تفكّري. يجب أن أبقى مستلقية هنا إلى أن يصبح جسدي حاراً بكل ما في الكلمة من معنى، وإلى أن يمضي عليّ وقت طويل لأشعر بالبرد من جديد. ساخن جدّاً إلى درجة أتمنّى فيها لو أنني أشعر بالبرد. أخرجتْ بعد عشرين دقيقة ثياباً نظيفة: بنطلون، بلوزة، سترة فضفاضة، جوربا رياضة أبيضان؛ ونزلت إلى الطابق السفلي. تناولت في المطبخ نصف كأس أخير من النبيذ. ورقة، قلم بنّي ليّن الرأس. رأت للحظة الفتى وهو يرسم به الدوائر. كانت ورقة بيضاء يجب استخدامها لرسم تصميم الحديقة، وقد انتهت في غضون دقائق. هزّت رأسها، حقيقة، لأنها لم تستطع أن تصدّق أنها استغرقت كل ذلك الوقت لترى شيئاً بهذا الوضوح. كانت الساعة التاسعة إلا ربعاً. نزعت القابس الكهربائي للمذياع، وحرّكت مفتاح التحويل إلى البطارية. لم تفقد الموسيقى إلا نحو إيقاعين. لم تسحب قابس أضواء زينة الميلاد، وأبقت على الإنارة في المطبخ وغرفة الجلوس والحمّام والمكتب. ارتدت القبعة القرمزية، ولم تقفل باب المدخل.

سارت عبر الممر إلى حقل الإوز، وهي تضيء دربها بالمشعل. كانت النجوم غائبة، فقد كانت السماء ملبّدة بالغيوم كما كان مُتوقّعاً، وكان رذاذ مطر خفيف جدّاً realpagex0205xيهطل. أنهكها تسلّق البوابة؛ فعاودت الاستناد إلى الألواح الخشبية لبرهة، وأخذت تبحث عن الإوزات بواسطة شعاع الضوء الواهن. كانت الطيور تتهرّب منها بالطبع. التقطت المذياع وسارت إلى مأوى الإوزات، حيث خلعت حذاءها على كيس النفايات الموضوع أمام المدخل. بدا صوت المذياع أعلى في الداخل، فقد كان عليه في الخارج أن ينافس الصراخ

الشاكي لبومة، أو حدأة. أشعلت عود ثقاب وأضاءت الشمعة في المصباح. لم تكن تشعر بالبرد؛ فقد كان الحمّام الساخن قد فعل فعله على أفضل ما يرام. حاولت شدّ قطعة سياج قنّ الدجاج لتعيدها إلى مكانها عند المدخل، وانتهى بها الأمر وقد أخذت كيس النفايات الموضوع خارجاً وطوته. كانت قد جلبت معها كلّ ما لديها من أقراص. ستتناول عشرين منها على الأقل؛ ذلك كان تقديرها. ربّما كان المزيد أفضل، ولكن ربّما لا. ابتلعتها الواحد تلو الآخر بجرعة كاملة من ماء الزجاجة البلاستيكية التي سبق أن وضعتها في المكان، ثم تمدّدت تحت اللحافين وهي تتنفس بعمق. لم يكن ضوء المصباح يرتجف وكان يضفي نوراً متجانساً على سقف المأوى. فكّرت في الثعلب - ثعلب بالفعل، لم يسبق لها أن رأته - وفي الغرير والسناجب الرماديّة. كلّها تسبت في الشتاء. هذا المكان أيضاً كان نوعاً من الوجار الذي يحدثْ فيه السبات. الضوء اللطيف، والاندفاعات المكتومة للجدول، والنقر الممل لقطرة المطر الغريبة. أمكنها الآن حتّى شمّ رائحة السيّدة إيفانز العجوز، بالرغم من أنّها استلقت في حوض الحمّام لفترة طويلة، وارتدت ملابس نظيفة. لم تستطع إلاّ أن تبتسم. لم يكن ذلك مهمّاً، لم يكن مهماً على الإطلاق. أغمضت عينيها، وعاودت فتحهما بعد أن شعرت بضغط غريب على قدميها. كانت إحدى الإوزتين على الفراش فيما كانت الثلاث الأخريات تجلس على مقربة منها. كلّها هادئة للغاية، لكن ليست نائمة. «من المعيب أنّني ألاّ أحمل معي أي خبز»، كانت لا تزال قادرة على التفكير. أحنت الإوزة التي كانت على الفراش رأسها إلى أن استند إلى ساقيها. شعرت بها وكأنها حبل أو سلك يجرّها بعيداً. قالت لنفسها: «لقد تحوّلتُ إلى إوزة». بعيداً من هنا، عبر السطح المتداعي المطلي بالقطران، فوق الحقل، realpagex0206xالقدمان أولاً إلى السماء، ما بين الأغصان وخطوط الكهرباء. «لا تدعنّ صخب شروق الشمس الأصفر/ يزعج هذا التراب». مع قليل من الحظ، يمكن صعود الطريق بأكملها حتى قمة الجبل.

59

«كتيمة»، قال الزوج. «تلك هي الكلمة».

قال الشرطي: «وأنت نفسك لستَ كتاباً مفتوحاً».

كانا يتناولان فطوراً إنكليزياً، أُعلن عنه في غرفة الاستقبال بأنه «فطور يوم الصناديق»(*). كان الزوج يشرب كأساً من الشمبانيا الوردية. شمبانيا ورديّة مثيرة جدّاً للاشمئزاز. قال للشرطي: «كنْ شاكراً لأنك من يتولّى القيادة». كانا يتناولان النقانق والطماطم المشويّة ولحم الخنزير والبيض المقلي والفاصوليا. [14]

قال الزوج: «ماذا تعني بقولك إنّني لستُ كتاباً مفتوحاً؟».

«يصعب عليّ فهمك هذا ما قصدت».

«أفترضُ، يا أنطون، أنّك تعتقد أنني أجدك سهلاً؟» ودفع بكأسه جانباً.

لم يمتلك الشرطي جواباً عن ذلك، ووضع آخر قطعة من النقانق في فمه، ونظر إلى ساعته. صعدا بعد الفطور إلى الطابق العلويّ، ووضّبا حقيبتيهما. دفع الزوج أجرة الغرفة التي كانت أغلى كثيراً مما توقّعه.

كان مطر خفيف ينهمر. «كلانا إذاً كتيمان»، قال الزوج لدى ركوبهما السيّارة السوداء. شعر هذا الصباح بسهولة أكبر في المشي. قام بإحصاء ما مرّ عليه من أسابيع، وأدرك أن وقت نزع الجبيرة يكاد يحين.

realpagex0207xقال الشرطي: «حَمَلَكَ ذلك على التفكير، أليس كذلك؟».

«بلى».

خرج الشرطي بالسيّارة من المرأب، مثل فتيان السباق، فلفّ المقود وسحب بقوّة ناقل الحركة.

وجد الزوج موضعاً لجبيرته، وراح يتطلّع إلى الخارج. عندما تجشّأ، استرجع بطعم الشمبانيا الكريهة. لم يكن قد فكّر في الآتي. فحتى وهو يبذل أقصى ما في وسعه كان يجد صعوبة في تصوّر وجه زوجته. «أنا قادم». وهو لم يفعل ذلك حقاً إلا لأنّه عرف أنّها عليلة، ولولا ذلك لنأى بنفسه عن الأمر.

قال: «أصديقتك هذه؟».

«كلاّ»، قال الشرطي.

«كلا؟».

«لا تتحدّث في الموضوع، فنحن خارج البلاد».

«هل لديك صديقة فعلاً؟».

قاطعهما «برام» طالباً منهما عبور المستديرة التالية. المخرج الثاني. هابسفورد، إللسمير بورت. واستمرّ «برام» عند المستديرة في إصدار التوجيهات.

راقب الزوج يدي الشرطي المسترخيتين على المقود. كانت مسّاحتا الزجاج الأمامي قد توقّفتا عن الاندفاع جيئةً وذهاباً. انقشع الغيم فوقهما قليلاً. قال: «سيكون نهاراً لطيفاً».

«أجل»، قال الشرطي.

«ثمّة احتمال بالطبع أنّها لم تعد تقيم في المكان».

«سنرى عندما نصل إلى هناك».

«‘يوم الصناديق’، ما معنى ذلك في الواقع؟».

realpagex0208x

«لا أعرف».

انعطفْ يميناً بعد ثمانمئة متر، ثم اسلك الطريق السريعة. أخذ الزوج يتضايق من «برام». لم يكن في مزاج لمحاولة منافسته على الحديث. أغمض عينيه وفكّر في الركض، بقدم غير مكسورة، بقدم تجري. الركض، التنفّس، التعرّق، الشدّ على قبضتيه لاعتصار الألم من طحاله، العودة وحده إلى المنزل، الاستحمام، والتمدّد على الأريكة. لم تكن تقول شيئاً قط. لم تسأله مرّة طوال كل تلك الأعوام كيف سار الأمر. كانت تتنهّد في بعض الأحيان. ولم تحضر قط لمشاهدة أيّ من السباقات. إنها كتيمة. أخذ يفكّر في أمر قالته حماته. يبقى أن الخطأ كلّه خطؤك. ألأنّه، كما قال الشرطي، لا يكاد يكون كتاباً مفتوحاً؟ لم تحكّه قدمه؛ ولم يفتقد سنّارة الحياكة. ربما كانت تلك إشارة إلى أن الأمور تسير على ما يرام تحت الجبيرة.

نورثوب، برينفورد، روالت. لم يكن «برام» قد تفوّه بأيّ كلمة منذ دهور، ربما لأنّهما على الطريق أ 55 وسيبقيان عليها بعض الوقت. كانت الشمس مشرقة آنذاك؛ والبخار يتصاعد من الحقول والأحراج. «المكان جميل هنا»، قال الزوج في سرّه. بدأ هاتفه يرتجّ عند صدره، فأخرجه من الجيب الصغير في معطفه.

إنها حماته: «هل بلغت المكان؟».

«لا».

«ولمَ لا؟».

«تأخّر المركب، واضطررنا إلى مبيت الليلة في الفندق».

«وهل أنت على وشك الوصول الآن؟».

«بعد نحو ساعة ونصف الساعة على ما أعتقد».

«كيف حال الطقس؟».

realpagex0209x

«لطيف، والشمس مشرقة».

«إنّه رهيب هنا. ليس لطيفاً أبداً».

ألقى الزوج نظرةً سريعة على جانبه، فوجد أن الشرطي ينظر إلى الأمام بهدوء شديد. «الحقيقة أنه لطيف جدّاً هنا. وقد شربتُ شمبانيا هذا الصباح».

«ماذا؟ ولماذا بحق السماء؟».

«إنّه يوم الصناديق».

«ما هذا؟».

«لا أدري. اليوم التالي للميلاد؟».

«هل يعرف شرطيّك هذا كيفية الوصول إلى هناك؟».

«إنه يحظى بالمساعدة. من 'برام'».

«برام؟».

«إنّه واحد من أنظمة الملاحة تلك».

«أوه»، وأعقبت ذلك لحظة صمت. «هل يرتدي بزّته الرسميّة؟».

«لا، ولماذا عليه ذلك؟ فهو ليس في العمل».

«لا، لكنّني ظننت أنّه يذهب إلى هناك بصفته الرسمية، لجلبها».

«ليس للأمر أيّ علاقة بالشرطة».

«هذا صحيح». تبع ذلك صمت آخر في أمستردام. «يريد حموك أن يعرف إن كانوا قد عرضوا فِلْماً على المركب».

«ليس على حدّ علمي، لكنّه كان مركباً كبيراً جدّاً. شاهدنا بهلواناً على المسرح».

«اسمع، قل لها عندما تصبح هناك إننا..».

«نعم؟».

realpagex0210x

وراحا يتشاوران من جديد. «قل لها إننا نحبّها، ونريدها أن تعود إلى المنزل. ليس إلينا طبعاً، بل إليك».

«إليّ؟ اعتقدتُ أن الخطأ كلّه خطأي».

«لا. فذلك بحسب حميك ليس صحيحاً. لقد أجرينا المزيد من الحديث عن الأمر».

«أوه».

«نحبّها، ووالدها يحبّها أيضاً. أبلغها ذلك. هل تفعل؟».

«سأقول لها ذلك بالتأكيد، وعندما نبلغ المكان سأعطيها هاتفي فتقولين لها ذلك بنفسك».

«لا، افعلْ أنت بذلك، ثم سنقوم بالاتصال. أو لا، اتصل أنت بنا لأننا لا نعرف متى ستبلغ المكان. كم الساعة هناك في أي حال؟».

«أبكر من عندكم بساعة واحدة».

«حسناً، لأنّنا لا نريد أن يجري ذلك ونحن في وسط العشاء».

هزّ الرجل رأسه.

«يمكنكَ أن تقول لها إنّ اختفاءها هكذا ليس بالأمر الجيّد، وأنّ عليها أن تفكّر بأبويها العجوزين، وأنّنا سامحناها».

«ما الذي سامحتماها عليه؟».

«تعرف، ذلك الأمر مع... يقوم الجميع بأمور يندمون عليها في النهاية». تلفّظ حموه بشيء في الخلفيّة. «يقول حموك إن الجسد ضعيف». وشرعتْ في البكاء.

أبعد الزوج الهاتف عن أذنه وقال للشرطي: «حماتي معي على الخط، وتقول إن الجسد ضعيف».

رمقه الشرطيّ بنظرة وقال: «لا أستطيع مخالفتها في ذلك».

realpagex0211x

كان يسمع آنذاك صوت حميه يقول: «ثمة أمر آخر»، فأعاد وضع الهاتف على أذنه. «أبلِغْها أننا نريد فعلاً الاحتفال، جميعنا معاً، بالسنة الجديدة».

«سأفعل ذلك. هل ستأتيان إلى هنا أم أنك تعني في أمستردام؟».

«هنا بالطبع! فما الذي يدعونا للذهاب إلى هناك؟ أتراني فعلاً أضع حماتك على متن واحد من هذه المراكب؟».

«يمكنكما المجيء بالطائرة».

«لا، حتى لو دفعتَ لنا ثمن التذكرتين. لا، هنا، في منزلنا. في بيتها القديم.

سيفيدها ذلك. علينا أن نعتني بها».

«نعم».

«لديك تذكرة عودة، أليس كذلك؟ متى ستركب الباخرة عائداً؟».

«لا، لا تذكرة عودة. يمكننا الرجوع متى أردنا. أضف إلى ذلك أنّنا ستكون معنا عندها سيارتان».

«أتعرف ماذا؟ قل لها إن عمّها وعمّتها سيأتيان أيضاً»، وقالت حماته شيئاً.

«ماذا؟ انتظر لحظة... لا، طبعاً، لن يمانع. إنّه قلق عليها... ماذا؟... أضمن لك أنّه لن يتصرّف بانزعاج... عفواً، قالت حماتك شيئاً. سأرتّب الأمر فوراً، أنا واثق بأنّها ستستمتع به».

«سأخبرها بذلك».

المزيد من المشاورات في الخلفيّة. «ماذا؟ انتظر لحظة. تريد حماتك أن تعرف إن كان قالب الحلوى قد أعجبك».

«إنه لا يزال في الحقيبة. تركناه لوقت لاحق».

«هل ستتصل في اللحظة التي تصل فيها إلى هناك؟».

realpagex0212x

«أعدك بذلك».

«حسناً. قودا بحذر في ما تبقى من الرحلة».

وضع الرجل هاتفه في جيب صدر معطفه. أحسّ بالحرارة في أذنه. سأل الشرطي: «ألا يفترض بك الاتصال بالمنزل؟ لمجرد التواصل؟».

«ما من حاجة إلى ذلك».

بدت الطريق أ 55 تحاذي الساحل. كولوين باي، لندودنو، كونوي. تجاوزهما قطار يسير على امتداد الشاطئ.

قال الشرطي: «بقي أمامنا أقل من ساعة».

قال الزوج: «أعتقدُ أن المكان جميل هنا، وأتساءل عمّا كانت تفعله كلّ هذا الوقت».

«يحتمل أنها تقيم مع مزارع ويلزي».

ضحك الزوج. عبرا إحدى القرى التي توقّف القطار في محطّتها. تساءل الزوج: هل يمكن أن تكون هذه إيرلندا؟ عاد القطار وتجاوز السيّارة بعد ذلك بقليل. «إنها ابنة مدينة. لا يمكنها التفريق بين الشحرور والدوري».

«وهل هذا شرط أساسي؟ لا يحتاج المرء إلى معرفة أمور كهذه للعيش في الريف».

«إنه موحش للغاية».

«وماذا عن العيش معك في منزل واحد في المدينة؟».

«ماذا يفترض بذلك أن يعني؟».

رفع الشرطي إحدى يديه عن المقود، ووضعها على فخذ الزوج.

لم يزحها عنه لأن الشرطي هو السائق.

realpagex0213x

انعطف أمامك إلى اليسار، وبعد ثمانمئة متر انعطف يساراً، واتبع الطريق. ها هو «برام» ينطق من جديد بعد طول صمت. أشارت اللافتة إلى أنّ كيرنارفون تقع على بعد تسعة أميال إضافية. عند المستديرة انعطف يميناً في المخرج الثالث. قال الشرطي: «بات العمل وقفاً على برام الآن».

سأله الزوج: «أيمكنه أن يجد منزلاً من اسمه فقط؟» وفرك ركبته اليسرى.

«لا».

«كيف سنصل إلى هناك إذاً؟».

سحب الشرطي خريطة من جيب بابه، وأعطاها للزوج قائلاً: «ماذا كنتَ ستفعل لولاي؟».

نظر الزوج إلى الخريطة. سنودان/ إير ويدّفا، «إكسبلورر ماب» ومتسلق جبال يرتدي معطفاً باللون الأحمر الفاقع، ويقف على صخرة وخلفه قمّة الجبل المغطّاة بالثلج.

قال الشرطي: «لقد رسمتُ دائرة حول المنزل، وأشرتُ بقلم فوسفوري أحمر إلى الطريق المؤدّية إليه».

حاول الزوج بسط الخريطة؛ لكنه لم يستطع، لأنها كانت كبيرة جدّاً. كبيرة جدّاً ومفصّلة جدّاً، وتسبّبت بضوضاء غير معقولة، فوضعها في حضنه. كانت الأرض في الجانب الآخر من المياه أكثر قرباً، ولا يمكن أن تكون إيرلندا. خذ المخرج. حافظ على خط اليسار ثم اعبر المستديرة، المخرج الثاني. عبرا بلدة كيرنارفون. كانت متاجرها مفتوحة والشوارع مزدحمة بعض الشيء؛ رأى الزوج لافتة كبيرة كُتبت عليها «تصفية»! ورأى ما اعتقد أنّه نوع من شجر البلح وسط إحدى المستديرات الصغيرة. اعبر المستديرة، المخرج الثاني. حافظ الزوج على صمته فهو لا يستطيع أن ينافس «برام». هل يوم الصناديق يوم عطلة رسميّة تقوم فيه المحالّ بالتصفية؟

توقّفا بعد ربع ساعة عند مفترق طريقين، وقال «برام»: «بلغت مقصدك»، وقبل أن realpagex0214xيتوقّف الشرطي عند جانب الطريق، أتبع ذلك بقوله: «حاول القيام باستدارة كاملة». فقال الشرطي: «كلا يا برام. لقد انتهى عملك»، ثم أخذ الخريطة من الزوج. كان يقف الآن أمام السيارة وقد فتح الخريطة على غطاء المحرك. وكان باب السيّارة مفتوحاً. فاحت رائحة شبيهة بالرائحة التي يمكن أن تفوح في أمستردام في آذار عندما تهب الريح من اتجاه معيّن: هواء ربيع المزارعين. استدار الشرطي وأنعم النظر في مسرب ضيّق، مغمور يتوجّه صعوداً، وفي كتل العشب المنتصبة وسط الأسفلت. كان هناك عدد غير معقول من الخراف في الحقل المجاور للمسرب، وكان الجوّ رطباً. ساعة لوحة القيادة تشير إلى الواحدة إلا ربعاً، طرح منها الزوج ساعة. وكان يشعر بتوتّر غريب. إنه يوم الصناديق في ويلز؛ وقد يتمكّن بعد ربع ساعة من رؤية زوجته من جديد.

60

استمرّ في تخيّل القمّة، والطريقة التي وقف بها عليها ونَفَسه المرئي، وممر «هورس شو»، وبحر إيرلندا، والبحيرات، والمنحدر المتدرّج إلى لانبيريس، كما لو أن الجبل كان يعرف في الأساس أنهم في يوم من الأيام سيبنون فيه خطّاً للسكّة الحديديّة. طبقة من الثلج. من المؤسف أن المرء لا يكون وحده أبداً في أمكنة كهذه. كانت المحطّة الجديدة على القمة، «هافود إيريري»، مقفلة، وألواح من الخشب المقوّى تحمي نوافذها الكبيرة، وجرف ثلجي عميق على جدارها الخلفي. لم يكن المكان مزدحماً، لكن بدا كأنّ جميع الناس الموجودين يتحدّثون عبر هواتفهم النقّالة ويخبرون أحداً ما أنّهم بلغوا القمة. عندما عاد - راكضاً - إلى حيث تركها، ولم يجدها، نظر من فوق الجرف إلى الأعماق قبل أن يتابع ركضه.

لكنّه عالق الآن في قبو زريبة خنازير قديمة، من دون هاتف نقال، وحتّى لو أراد أن realpagex0215xيخبر أحداً، بوجوده في الأسفل تحت مستوى سطح الأرض، فلن يتمكّن من ذلك. استحال عليه الوقوف منتصباً. كانت قد فرشت الأرض بالوسائد والبُسط والبطّانيات. لم يستخدم عود الثقاب لإشعال شمعة إلا بعد أن أطفأت نور الزريبة. أضاء شمعة واحدة، وليس

الاثنتين اللتين وُضعتا في عنقي زجاجتي خمر. لا يمكن في أي حال أن تُظلم بالفعل، وأنوار المنزل مضاءة وتلقي بمستطيلات ساطعة على العشب. كان بإمكانه رؤيتها من خلال النافذة التي يبلغ عرضها أربعة إنشات. وكان ثمة كيس بلاستيكي يحتوي على خبز ورزم من البسكوت وزبدة وبعض الموز وسكين وجبن وشرائح من لحم الحمَل البارد. أهي مزحة؟ وكاد يبتسم. أتعتقد أنّه سيأكل ذلك؟ وكانت هناك أيضاً ثلاث زجاجات من النبيذ الأحمر ذات أغطية لولبية، وزجاجة نبيذ أبيض وسبع زجاجات ماء ومقرمشات، وكأس وطبق. لم يبحث حتّى عن هديّة ميلاد ثانية. بدا كما لو أنّها تنقل شيئاً بعجلة اليد وسمع أصوات أقدام على الحصى. كانت الموسيقى الكلاسيكية هي آخر ما سمعه: لا بدّ من أنّ صوت الراديو رُفع والنافذة مفتوحة أو باب المدخل، وأعيد إقفال المفتوح منهما بعد وقت قليل. إما ذلك وإما أنها أطفأت المذياع. لم يفهم، لكنه في الحقيقة لم يُفاجأ. ظلّ يدفع الباب القلاب بقوة ويشعر بالغبار ينجرف منهالاً على رأسه. شتم بصوت هامس وقال: "Sguthan " (ساذج) من دون أن يشعر بالغضب، و "Iesu Crist " (يا يسوع المسيح). أكل وشرب ولكن ليس الكثير، إذ يمكن للأمر أن يستمرّ أسبوعاً. ولا يستطيع شيئاً حيال احتمال أن يكون والده هو الذي سيقوم في النهاية بتحريره. خلع جزمته ومعطفه ونزع في النهاية قبعته، وتمدّد على الوسائد من دون أن ينزع المزيد من الثياب، وغطّى نفسه بالبطانيات والبُسط. نفخ على الشمعة وأطفأها. لم يكن يشعر بالبرد. الأنوار لا تزال مضاءة في المنزل. شاهد نفسه على قمة «إير ويدّفا» يتنشّق الهواء القارس، ويغمض عينيه نصف إغماضة من وهج الثلج.

كانت العصافير تغرّد في الصباح التالي، وأمكنه في غياب أي منظر - نعم، هناك العارضات والألواح - أن يعتقد أنّه الربيع. وفي النهاية، كان البرد المنبعث من realpagex0216xالأرضيّة قد اشتدّ في الليل. جلس وتناول قطعة من الخبز مع الجبن وشرب بعض الماء. انتظرَ، وفكّر: ربما حملت مني. وقف وتطلّع عبر النافذة. العشب رطب، وعندما عاود النظر بُعَيْد ذلك، وجد أن الشمس كانت قد قطعت شوطاً بعيداً. لم يلحظ إلا الآن أنها كانت قد وضعت نبتات حافة نافذة المطبخ المزهرة الثلاث قبالة نافذة القبو، وشعر، عندما دسّ إصبعه في أحد الأصص، أن التراب رطب.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle ما زال عاجزاً عن فهم سبب بقائه واقفاً هناك على العشب مثل غزال عالق في الأضواء الأمامية للسيارة، أضواء البيك-آب السوداء المركونة بجانب المنزل. كان في إمكانه الابتعاد بسهولة عبرٍ تسلّق الحائط ثانيةً. كان

سام يجلس مرتجفاً عند ساقيه؛ كان إلى هذا الحد يسعى يائساً للذهاب إلى سيّده. لقد أعطته إشارة: غير مفهومة ولكنّها مع ذلك كانت إشارة. ربّما كان ذلك هو السبب.

كان كثيراً ما يقف هنا منتصباً، بل كان عليه أن يمدّ جسمه ليتمكّن من النظر عبر النافذة إلى والدته والسيدة إيفانز وهما تجلسان على كرسيين غريبين في ظلّ شجرة «جار الماء» جانب الجدول. لطالما كان الجو بارداً في القبو. لم يكن يفهم سبب جلوسهما في الخارج، مع كوبين من الليموناضة المصنوعة في المنزل ومكعبات ثلج على طاولة مترنّحة. وهو يقف على رؤوس أصابعه للنظر إلى المرأتين مستمعاً إلى صوت أمه. كانت تنادي أحياناً: «برادوين!» فتطلب منها السيدة إيفانز أن تدعه وشأنه، "Da chi'n gwybod lle mae o ". كانتا دائماً تحزمان أغراضهما عندما يقترب والده من الكرسيين والطاولة وقد انتهى من الخراف، وهو على استعداد للعودة إلى المنزل والعرق يغطّي أنفه وحاجبيه.

سكتت الطيور. ربما أدركت أنّه «يوم الصناديق»، أو أقلّه منتصف الشتاء، وليس يوماً رائعاً من أيام الربيع. أخذ يجوب المكان جيئةً وذهاباً، وهو محني الظهر في القبو ذي البلاط الأخضر، ويضغط مرةً أخرى على الباب القلّاب الذي لا يزال، بالطبع، يرفض الاستسلام، وكان الغبار ينهال على الأدراج الخرسانية. تخيّل صبيّاً realpagex0217xصغيراً، طفلاً، على أرجوحة أو يحاول عبثاً ركل الكرة. بعد فترة أخذ ظهره يؤلمه فتمدّد على الوسائد. لم يعد يشعر بالبرد. حتى وإن كان سام يتمنّع عن إطاعته أحياناً، تمنى أن يكون هُنا ليعتني به، وإن لم يكن كلبه الذي يحبّه من دون شروط. فكّ أزرار بنطلون الجينز وتغطّى بالبطانية.

بعد ساعات، وفيما كان يتناول بعضاً من الخبز والجبن، سمع صوت سيّارة؛ لا تسير مبتعدة بل قادمة. جمد في أرضه وتوقّف عن المضغ، فقد كان يفضّل أن يبقى عالقاً في القبو على رؤية والده في مثل هذا الوقت القريب. «تأكّدي من امتلاك ما يكفي من النقود ثمناً للإوزات المفقودة». كما لو أن المرأة هي الثعلب الذي يلتهم الطيور. فُتح بابا السيارة وأُطبقا، مصدرين صوتاً خافتاً ومكتوماً، لأنها لم تتوقف قرب المنزل. سمع صوتَيْ رجُلين. لم يكن يفترض بهما المجيء قبل الأول من كانون الثاني. وصوت أقدام على الدرب. لا يتحدثان لغة الويلز، بل ما بدا أنّه لغتها: تعرّف الحروف الحلقية القاسية، وأحرف العلّة الغريبة. تطلّع من حوله. تطلّع من جديد: النباتات المزهرة، لحم الحمَل البارد، الشمعدانان المصنوعان من زجاجتي النبيذ. احتذى جزمته واعتمر قبّعته، ثم قضم قضمةً أخرى من الجبن مع قطعة من الخبز وابتلعهما مع محتوى كأس النبيذ. وما إن انتهى حتى أخذ يطرق الباب القلّاب.

«من أنت؟» سأله أحد الرجلين، وكان ذا شعر قصير أسود.

«برادوين»، قال. «أنا برادوين جونز».

«أين أغنيس؟» سأله الرجل الآخر، وكانت قدمه مجبّرة ويسير على عكّازين. وقد لفظ الاسم بالطريقة الهولندية من عمق حنجرته، فلم يفهم برادوين.

«ماذا؟».

«أين أغنيس، المرأة التي تتحدّر من أمستردام؟».

«أهذا اسم؟».

«بالتأكيد. أغنيس» realpagex0218x.

«لا وجود هنا لأي أغنيس. من أنتما؟».

بقي الرجلان في مكانهما عند المدخل، ولم يجب أيٌّ منهما. ظل الفتى واقفاً على الدرج الخرساني. تألّق ضوء الشمس الأصفر الذي يعمي العيون بين أرجلهما ما جعله يرفع إحدى يديه ليظلّل عينيه.

«أليست أغنيس هنا؟»، قال الرجل ذو الجبيرة.

«لا».

سأله الرجل الآخر: «ما الذي تفعله هناك؟».

«احتجزتني في الأسفل. إيميلي».

«إيميلي؟».

«نعم».

«متى؟».

«عصر البارحة».

«وأين هي؟».

«لا أدري. أليست في المنزل؟».

«لا. ولماذا احتجزتك؟».

أخذ الرجل ذو الجبيرة يكلّم الرجل الآخر بالهولندية. أومأ ولفظ اسم «أغنيس» من جديد. أبقى الرجل الأسود الشعر عينيه على الفتى، حتى وهو يتحدث إلى الرجل الآخر، وكان يمسك العارضة الخشبية بإحدى يديه. تراجع الرجل أخيراً عن المدخل. «تعال»، قالها وهو يحمل العارضة. صعد الفتى خارجاً من القبو. أسند الرجل قطعة الخشب إلى الجدار، ونزل الأدراج الخرسانية. شمّ الفتى رائحته وهو يمر: عطر ما realpagex0219xبعد الحلاقة، قوي ومنعش. سار الرجل ذو العكّازين وهو يعرج صوب المنزل. انتظر الفتى إلى أن عاد الرجل من القبو وسار أمامه حتّى باب المدخل المفتوح على مصراعيه. نظر إلى قوس الورد. كانت الوردة الوحيدة البيضاء، التي لم تكن أكثر من برعم، لا تزال برعماً، وربما لن تتفتّح أبداً.

في المطبخ، واصل الرجلان التحدّث بالهولندية كما لو أنّهما نسيا وجوده، أو كما لو أنّه غير ذي شأن. كان الرجل ذو الجبيرة يحمل في يده مجموعة إيميلي ديكنسون الشعرية. التقط الفتى من مجموع الأصوات غير المفهومة اسمَي «إيميلي» و«أغنيس» و«صه» وحيدة. كان يقف وعجيزته على الفرن، كأنّه ينتمي إلى المكان. منحته الحرارة إحساساً جيّداً بعد القبو. واصل الرجل الحديث واضعاً يده على ورقة فوق الخريطة المفتوحة. وكان القلم البنّي الليّن الرأس إلى جانب الورقة، وهو أحد الأقلام الذي افترض بهما استخدامها لتخطيط الحديقة. وضع الرجل حقائبه على الأرض قرب الطاولة الجانبية. كان المذياع قد اختفى مخلّفاً فراغاً واضحاً، وكانت أنوار شجرة الميلاد مضاءة. وها هو الرجل يلتقط بطاقة بريدية ويسلّمها إلى الرجل الأسود الشعر. ابتسم الفتى وفكّر: تفاهات، دعايات. «هل تريدان قهوة؟» سأل، لا لشيء إلا لأنه شعر أنه هو نفسه بحاجة إلى قهوة.

سأله الرجل ذو الشعر الأسود: «متى وصلت هذه البطاقة؟».

ملأ الفتى الإبريق بالماء والبن، ورفع أحد أغطية الفرن. «البارحة».

«وهل يسلّمون البريد هنا في الميلاد؟».

«كانت على الأرجح موجودة بالفعل في صندوق البريد. لم يسبق لي أن رأيتها من قبل».

«من أنت؟».

الأمر أشبه بالتحقيق. «برادوين جونز»، وانتابه شعور جيّد لتلفّظه باسمه بهذا الشكل، وهو يعرف تمام المعرفة أنّ الرجل يسأل عن شيء آخر. بات إبريق القهوة realpagex0220xالآن على الصفيحة الساخنة، الصفيحة الأكثر سخونة. تطلّع الفتى من النافذة إلى السنديانة الساقطة، ولاحظ هو الآخر أن ممر الحصى لا يجوز أن يصل إلى العشب بهذا الشكل. لا موجب له، فهو لا يوصل إلى مكان. يجب وضع شيء منتصب هناك. استدار ليجد الرجل ذا الجبيرة يحدّق إلى البطاقة البريدية، والرجل الآخر يحدّق إليه من جديد. سأله: «هل أنت شرطي؟».

«نعم»، وتابع بعد صمت قصير، «أنت فتى فطن».

«ما اسمك؟».

«أنطون».

«وهو؟».

وأشار الفتى إلى الرجل ذي الجبيرة.

«إنّه زوج أغنيس. روتغر».

«أين هي؟» سأل زوج أغنيس وهو يخاطب البطاقة.

بدأت القهوة تغلي. رفع الفتى الإبريق عن النار، وأحضر ثلاثة أكواب من الخزانة.

سأله الشرطي: «ما هي تلك الملاحظة على باب المدخل؟».

«إنها من والدي». لم يدرِ الفتى ما يقوله غير ذلك عنها، كما أنه لا يملك أي فكرة عن سبب مجيء والده مع الوكيل العقاري في الأول من كانون الثاني.

«إوز؟» سأل الشرطي.

«توجد إوزات في الحقل الملاصق للممر. يأتي ثعلب أحياناً ويأخذ واحدة منها». وضع الفتى كوبين من القهوة على الطاولة وأحضر الحليب من البرّاد والسكّر عن الرفّ. رفع زوج أغنيس نظره. بدا أنه كان يفكّر في شيء ما. ثم وقف واستخرج من حقيبته شيئاً مستطيلاً ملفوفاً بورق معدني فضي، ووضعه على الطاولة؛ لكنه لم يفتحه realpagex0221x. نظر الشرطي إلى الفتى، وبادله الفتى النظر، وهو مدرك للحوَل الذي في عينه.

وها هو لاحقاً في المغطس. النافذة مفتوحة. المياه ساخنة وتفوح منها رائحة الأعشاب المحلّية. كان قد أرسل الهولنديَّين إلى الحلقة الحجرية بعد أن أخبرهما أنها تحب ذاك المكان. قال: «إذا لم تجداها في المكان فهناك البركة أيضاً، على مسافة أبعد بعض الشيء. لا يمكنها أن تكون قد ابتعدت لأن السيّارة لا تزال في مكانها وراء زريبة الخنازير القديمة». لم يشر إلى أي غرير، كما أنه لن يرافقهما إذ يسهل العثور على المكان: ما عليهما إلاّ أن يتبعا الطريق فحسب. طلب منه الشرطي عدم المغادرة، كما لو أنّه متّهم بحالة اختفاء. ضحك ردّاً على ذلك ضحكةً صغيرة ما دفع الشرطي إلى الابتسام. أبطآ في السير، وقد رأى ذلك من نافذة المطبخ، مع أن الرجل ذا الجبيرة كان يسير بأسرع ممّا توقّع. راتغر وأنطون. نظر إلى عضوه الذي يعوم في الماء ويبدو أكبر مما هو، وفكّر في أنها حامل. لم يستطع إزالة الأمر من رأسه وبخاصة الآن بعد أن عرف بوجود الزوج. هي التي أرادت ذلك؛ لم ترد استخدام أي شيء. إلى أين ذهب ذلك المذياع؟ أغمض عينيه وراح يصغي

إلى خرير الجدول. أخذ يقوّم الوضع. يمكنه البقاء. فذلك الشرطي، أنطون، لن يمانع. فتح عينيه وخرج من المغطس. تشمّم وهو يجفّف نفسه. قالت إيميلي إن في إمكانها شمّ رائحة السيّدة إيفانز. وهو يستطيع شمّ نفسه، ورائحته طيّبة. لمّا فتح باب المكتب لإحضار بعض الملابس النظيفة من حقيبة ظهره وجد أن الفراش قد اختفى.

وقف الفتى عند زاوية المنزل، والسيارة الكبيرة السوداء التي جاء فيها الرجلان على بعد نحو خمسين متراً منه. لا تزال الشمس مشرقة، وكان قد شاهد قُبَيْل ذلك البحر يتلألأ من نافذة بيت الدرج. حقل الإوز أمامه، وهو خالٍ. شرع في السير على الممر ملتزماً جانب الحقل من الطريق. أدار رأسه، تماماً بعد أن جاوز السيارة السوداء، لاعتقاده أنه سمع أصوات أبواق تطغى على خرير الجدول. أبواق. عشب حقل الإوز قصير جداً، فقد نتشت الطيور السيقان كلها حتى الأرض. تسلّق الفتى realpagex0222xالبوّابة وسار ببطء، بل وببطء شديد، إلى مأوى الإوز. لم تكن الأبواق في الجدول، بل داخل المأوى. كانت الشمس قبل ذلك بستة أشهر مشرقة أيضاً، وكان الجو أكثر دفئاً حينها وأشجار السنديان خضراء، أكمات الوزّال في حقل الخراف صفراء. كان العشب ينمو بسرعة كبيرة لم تتمكّن الإوزات من مجاراتها. قرفص للنظر إلى الداخل، فالعارضات وسياج الدجاج كانا يصعّبان عليه الرؤية. لحظ زاوية الفراش؛ لم تكن الموسيقى مرتفعة جدّاً، لكنّها كانت تُسمع بوضوح. رأى الآن أن الفراش موضوع على طبقة من الأكياس المخصّصة للنفايات، والإوزات الأربع جالسة حول المرأة، ولما لاحظته أخذت تقوقئ بهدوء. بدت إحدى الإوزات كأنها تربض على ساقيها، بل إنها شرعت تفحّ كما لو أنّها تتولّى الحراسة. شاهد أيضاً شيئاً قرمزيّاً، فقد كانت تعتمر قبعتها. كفى.

نهض واقفاً. امرأة بقبّعة قرمزيّة جميلة جدّاً. تعبة. لم تتمكن من بلوغ القمة، لكنّها ليست نهاية العالم. إنّه الميلاد وحان وقت عودتها إلى المنزل حيث يجب إعداد الطعام والشراب. استخرجها كلمة بكلمة. فلم يكن ذلك في النهاية إلاّ بالأمس. ما الذي تراه؟ كان ذلك هو السؤال البسيط الذي طرحته عليه وهي تشيح بنظرها عنه، مقطّبة الجبين وخجولة بعض الشيء، وعيناها مسمّرتان على حوض المياه. كانت جميلة بشكل لا يوصف. لم يسبق له أن رآها كذلك من قبل. جميلة بشكل مذهل، أشبه بشجرة أو شُجيرة تنتج ما أمكن من البراعم أو الأزهار في السنة التي تسبق وفاتها. لكن ذلك كان أمراً آخر لم يقلْه لها. إيميلي.

استدار قبل أن يعاود تسلّق البوابة. نظر إلى حقل الإوز وإلى مراعي الخراف الخالية من أيّ خراف. فكّر في ثلاث نساء موتى: اثنتان هنا، والثالثة في سرير منزلها في لانبريس. قالت قُبيل وفاتها تماماً أمراً أخيراً واحداً. بالكاد أمكنه تذكّره لأنّه أُخذ في تلك اللحظة بجمال أمه. قالت له: «ارحل إذا أردت، أو إذا اضطررت إلى ذلك، ارحل»، ثم أغمضت عينيها. نظر إلى السماء فوجدها زرقاء. رأى الأعمدة الخشبية التي تحمل كبلات الكهرباء، أكمات الوزّال، أشجار السنديان، بضعة غربان، حوض realpagex0223xاستحمام برتقالياً مكسوراً على العشب، سياجاً من الشريط الشائك، وبالتأكيد مأوى الإوزات الذي لا تزال الموسيقى تصدح منه. وفرة من الظل، حتى بالقرب

من حوض الاستحمام البرتقالي، أكثر كثيراً من الصيف الماضي. ذلك كل ما في الأمر، إضافةً إلى الغيمة الشاذة في البعيد. موسيقى ناعمة جدّاً وخرير الجدول. ابتسم. فكّر أنها لم تكن قد تخيّلت الأمر بهذا الشكل. لا تدعنّ صخب شروق الشمس الأصفر / يزعج هذا التراب.

وضّب الفتى حقيبة ظهره. لم يستغرقه ذلك طويلاً لأنه لم يُفرغ، ولو لمرّة، كل شيء منها. قبل أن يغادر المكتب نظر إلى كومة الكتب على طاولة القهوة ووضَع «الريح في الصفصاف» في الجيب الأعلى لحقيبته لأنّه يحمل على غلافه صورة خلد وضفدع وجرذ. تطلّع، وهو في المطبخ، من النافذة، فلم يجد أثراً للشرطي وللزوج. جلس إلى الطاولة ونظر إلى الورقة. إنه خطها. لغتها. كانت كلمة "bed" (سرير) بارزة في وسط السطر الأول، "bed met " (عن السرير)، لكن ذلك كل ما في الأمر. كذلك كانت رسالة البطاقة البريديّة تحتوي على كلمتين غير مفهومتين، "Ik kom " (أنا قادم). رأى للمرة الأولى اسمها، وكان «أغنيس» حقاً. كذلك كانت البطاقة تحمل اسم «روتغر». نزع الورقة المعدنية عن الشيء المستطيل. إنّه نوع من الحلوى، قالب في داخله شيء باللون الأسمر الداكن. جلب سكّيناً وقطع شريحة؛ وجدها لذيذة، فقطع شريحة أخرى، ولمّا انتهى أعاد توضيبه. نهض ونظر إلى شجرة الميلاد وفكّر في أنها راحت هدراً. انتقل بنظره من الشجرة إلى حقيبتي الرجلين قرب الطاولة الجانبية. تردّد لبرهة وجيزة جدّاً ثم أخذ أربعين جنيهاً من كل محفظة نقود بالرغم من أنّ كلتيهما كان فيها أكثر من ذلك بكثير. وضع محفظة روتغر في حقيبة أنطون، ومحفظة أنطون في حقيبة روتغر، ثم غادر المنزل وهو يحمل بيده كيساً بلاستيكياً وحقيبة الظهر على كتفه. ثم بدّل رأيه، وأسند الحقيبة إلى الحائط قرب الباب ووضع فوقها الكيس البلاستيكي وعاد إلى المنزل، وشرع بهدوء في تعرية شجرة الميلاد واضعاً الزينة والأشرطة المعدنية، وأخيراً الأضواء في درج الطاولة الجانبية. سحب realpagex0224xبعد ذلك الشجرة من الحصى وهزّ جذورها بقوّة، ثم حملها إلى الخارج، إلى الممر الذي يفضي إلى العشب. وجلب المجرفة من الزريبة وحفر حفرة عند نهاية الممر الجديد، ووضع الشجرة فيها وضغط التراب ثم أعاد المجرفة إلى الزريبة. أخذ الكيس البلاستيكي عن حقيبة ظهره، ومضى مرةً أخيرة إلى القبو ووضع فيه الخبز والجبن والموز، والتقط قنّينة الماء وتسلّق الأدراج الخرسانية. وضع الكيس البلاستيكي فوق ثيابه وأقفل الغطاء الأعلى لحقيبة الظهر، وأرخى الرباط الجانبي، ومرّر قنّينة الماء سعة اللتر ونصف اللتر إلى أن بلغت قعر الجيب الجانبي، وتأنّى بعد ذلك في شدّ الرباط، ثم رفع الحقيبة إلى ظهره، وأقفل باب المدخل كصبي شاطر؛ وعبر البوابة المخصّصة لدخول الناس فقط في السور الحجري.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

اجتاز الجدول. لم يكن قد قرّر بعد: هل يبقى على الدرب أم يسير في خطّ موازٍ لها في

الجانب الآخر من الضفة الكثيفة الأحراج؟ إنه يعلم أن عليه أن يمشي يوماً بأكمله في طريق العودة. لقد سلك الاتّجاه الخطأ فحسب. يكون يوم العمل أحياناً بلا نتيجة، لأنّه لا يؤدّي إلى أي مكان. كان قد قال ذلك لنفسه قبل أسابيع.

كان المسلك الطويل يتسلّق الجبل عبر لانبريس، ويخيّر الجوّالين بين أمرين: إمّا السير وإمّا ركوب القطار البخاري، ثم ينزل من قمة «إير ويدّفا» إلى «ريد دّو» - مع ملاحظة أن اجتياز الجرف لا يخلو من خطر - قبل أن يتوجّه تدريجيّاً نحو الساحل. قد تُشكّل «أبريستويذ» نقطة نهاية جيّدة. تقع «شروزبوري» على مسافة أقل من ساعتين. كان عليه أن يدرك ذلك من قبل. إنه الجانب الخطأ من الجبل.

نظر باتجاه الجنوب الغربي. لا يزال لديه حوالى ساعتين من الضوء. تردّد عندما سمع أصواتاً في البعيد، ثم شقّ طريقه عبر الضفة الحرجيّة، وقرفص خلف شجرة. أخبره أحدهم مرّةً أن أظافر المرء وشعره يستمران في النمو بعد وفاته. تساءل إلى متى يستمرَ الكائن المتحلّل في امتصاص الدم والغذاء؟ أغمض عينيه. لم يرد أن يقرفص بلا حراك من دون أن يفعل شيئاً. أراد السير، والتحرّك. تنهّد ونظر إلى realpagex0225xالمرجة المحاطة بسياج كثيف من الأشجار. عندما كان يجلس هنا وهو صغير، والريح في الاتجاه المناسب، كان في إمكانه أن يسمع صوتَي أمّه والسيدة إيفانز. لم يشرد يوماً أبعد من مدى هذين الصوتين. لن يطرأ تغيُّراً كثيراً هنا بعد عشر سنوات أو عشرين سنة من الآن. لم يخرج من وراء شجرة الإيلكس [15] القديمة إلا بعد أن ابتعد الرجلان عن مجال السمع. شرع في التصفير بصوت خفيض.

realpagex0226x

حائز جائزة دبلن الأدبيّة العالمية
وجائزة الإندبندنت للأدب الأجنبي

غيربرند باكر

التوأم

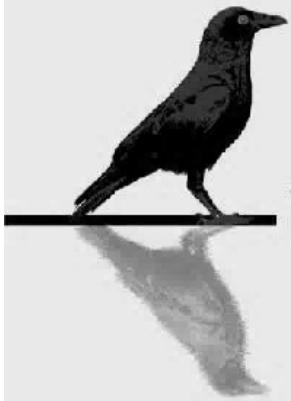

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

realpagex0227x

صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة الأدب

♦ روايات وقصص عالمية ♦

الروائي پاولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة (رواية)
- ألِف (رواية)
- أوراق محارب الضوء (عبارات وعِبَر)
- بريدا (رواية)
- الجاسوسة (رواية)
- الجبل الخامس (رواية)
- حاج كومپوستيلّا (رواية)
- الخيميائي (رواية)
- الرابح يبقى وحيداً (رواية)
- الزانية (رواية)
- الزَّهير (رواية)
- ساحرة پورتوبيللو (رواية)
- الشيطان والآنسة پريم (رواية)
- على نهر پييدرا هناك جلستُ فبكيت (رواية)
- فيرونيكا تقرّر أن تموت (رواية)
- مخطوطةٌ وُجِدت في عَكرا (رواية)
- مكتوب (عبارات وعِبَر)
- هيپّي (رواية)

جين ساسون

- بنات سموّ الأميرة (قصة)
- حلقة الأميرة سلطانة (قصة)
- خيار ياسمينا (قصة)
- سموّ الأميرة (قصة)
- سموّ الأميرة: الأسرار المباحة (قصة)
- سموّ الأميرة: حفنةٌ أخرى من الدموع (قصة)
- لأنك ولدي (قصة)
- مغامرة حب في بلاد ممزقة (قصة)
- ميّادة ابنة العراق (قصة)

جون غرين

- سلاحف إلى ما لا نهاية
- ما تخبّئه لنا النجوم

راوي حاج

- الصرصار (رواية)
- كرنفال (رواية)
- لعبة دي نيرو (رواية)

غيربرند باكر

- التوأم
- المنعطف

مارغريت دوراس

- التدمير
- مرض الموت

♦ ♦ ♦

- «الأصولي» المتردِّد – محسن حامد
- ألف عام من الصلاة (قصص قصيرة) – ييون لي
- اعترافات غايشا – آرثر غولدن
- امرأة من ماريوپول – ناتاشا فودين
- بساط من الزهر الأحمر: البحث عن أفغاني – نيلوفر بازير
- بومبي – روبرت هاريس
- بيل كانتو– الرهينة – آن باتشيتا
- حكاية الشتاء –پول أوستر
- حياة –دافيد فاغنر
- الخجل والكرامة – داغ سولستاد
- دماء الأزهار – أنيتا أمير سڤاني
- عند تلاشي الضّوء – أويغن روغه
- فتاة من بلغراد – لويس دو بيرنييز
- اللعنة على نهر الوقت – بير بيترسون
- ما تخبّئه لنا النجوم – جون غرين
- متتالية فرنسية – إيرين نميروفسكي
- مدينة بوهاين – كيڤن باري
- موعظة عن سقوط روما – جيروم فيراري
- الناس والآخرون – قدري قلعجي

♦ مكتبة نوبل ♦

توني موريسون

- الديار
- رحمة

♦ ♦ ♦

Notes

[1←]
الغرير حيوان من فصيلة ابن عرس - المترجم.

[2←]
رواية للأطفال، بقلم كينيث غراهام، تؤنسن الحيوانات.

[3←]
لإميلي ليكسون.

[4←]
شجرة جار الماء من فصيلة الحوريات، ويقال لها أيضاً: الحور الرومي.

[5←]
شراب جينيفر المعتّق: مزيج من الجِنّ والنبيذ والويسكي.

[6←]
رفيق القديس نقولا في فولكلور الأراضي المنخفضة (هولندا حالياً) – المترجم.

[7←]
نوع من الشجيرات المعرّشة، وهي من الكروم، وتُسمّى أيضاً «وستارية» و «غليسين».

[8←]
كلمة kite بالإنكليزية تعني في الوقت نفسه «حدأة» أي طائر جارح من الفصيلة الصقرية، و«طائرة ورقية».

[9←]
Vlieger، كلمة هولندية تعني طائرة ورقية.

[10←]
Wouw، أي الحدأة بالهولندية.

[11←]
ظاهرة اجتماعية انطلقت من الولايات المتحدة في ستينات القرن العشرين، وهي مناهضة للثقافة الرأسمالية، وتدعو إلى عالم تسوده الحرّية والمساواة والحب والسلام (المترجم).

[12←]
السرخس: جنس نباتات بريّة تُستخدم للزينة، تنبت في الغابات والحقول وعلى الجدران (المترجم).

[13←]
homeopathic cure: مبدأ علاج الداء بالداء، ويقوم على إعطاء مادة تولد أعراضاً لدى الشخص السوي مماثلة لتلك التي يُقصد معالجتها - المترجم.

[14←] Boxing Day Breakfast: يسّمى يوم الإهداء، وهو عيد خاصّ بسعاة البريد ويوافق يوم 26 كانون الأول/ ديسمبر).

[15←]
الإيلكس (holly tree): شجرة ذات أوراق صقيلة شائكة الأطراف وزهر صغير ضارب إلى البياض.